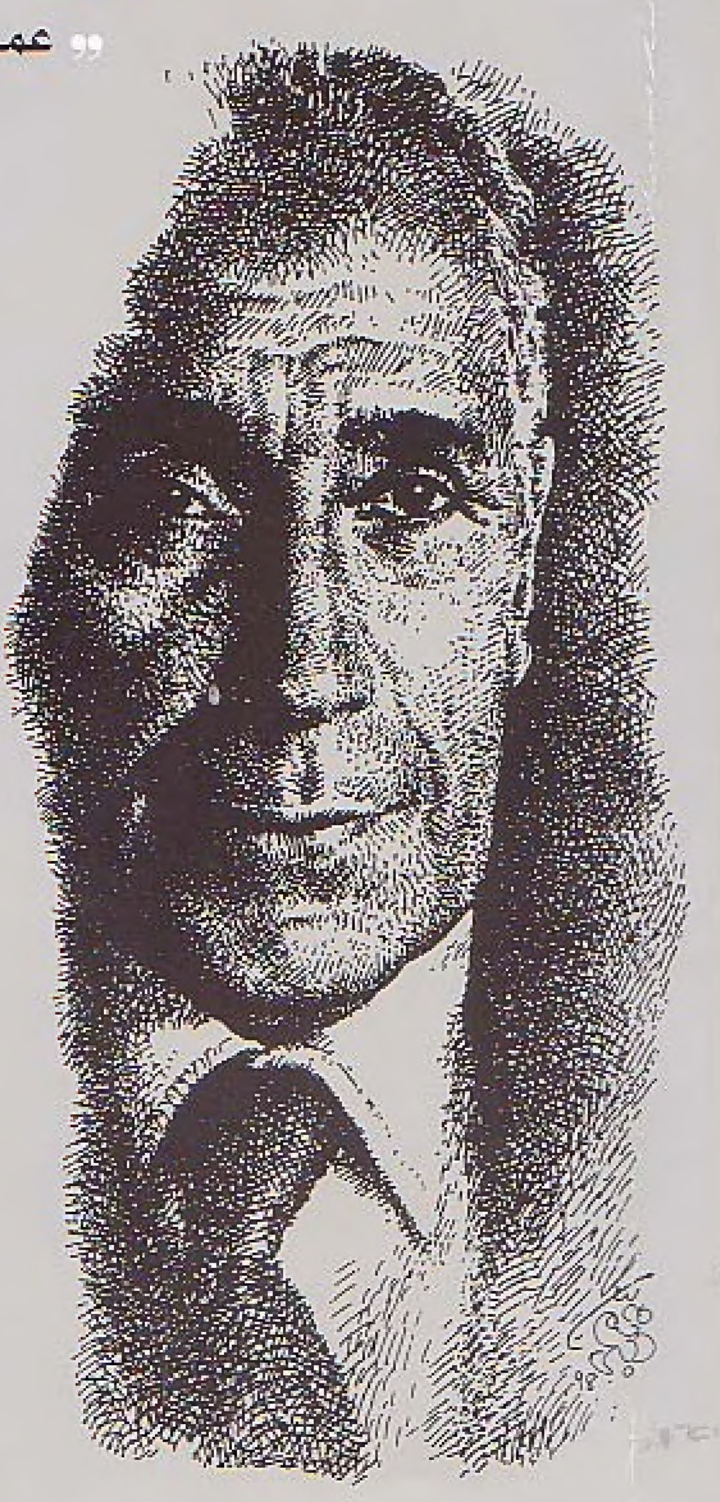
محمد حسنين هيكل

«عمر فى كتب»

أحاديث فى آسيا



دار الشروق

الفهـــرس

مقـــدمة

لهذه الرحلة إلى آسيا «موعد مع الشمس»، ومجموعة الأحاديث التى «ولدت» خلالها - قصة تستحق أن تروى، باختصار فى هذه المقدمة، وبتفصيل فى موعد لاحق مصحوبة بوثائقها.

وكانت تلك القصة فى الواقع بداية الخلافات بين الرئيس «أنور السادات» وبينى، ومناسبتها مقال نشرته بعنوان «كيسنجر وأنا مجموعة أوراق»، وكان فى تقدير الرئيس «السادات» أن المقال يعطل خططا سياسية - طلب منى المشاركة فيها واعتذرت، وضايقه اعتذارى، وضايقه أكثر أننى كتبت فى الموضوع - بالطبع دون إشارة إلى أنه كان داعى خلاف بيننا.

وفوجئت بنائب رئيس الوزراء للإعلام وهو وقتها الدكتور «محمد عبدالقادر حاتم» - مد الله فى عمره - يتصل بى كى يبلغنى «بالنيابة» - على خلاف المعهود فى علاقتى مع الرئيس - أن مقالاتى من الآن فصاعدا لابد أن تخضع للرقابة، وكتبت إليه خطابا رسميا على «ورق الأهرام» أبلغه أن هذا القرار بوضع ما أكتب تحت الرقابة مخالف لعهد متفق عليه منذ أيام الرئيس جمال عبدالناصر - وحتى من قبله - وقد استمر سنتين حتى الآن من رئاسة «أنور السادات»، وبمقتضى هذا العهد المتفق عليه فإن مقالاتى لا تخضع للرقابة «فأنا لا أستطيع أن أكتب شاعرا أن مسئولا فى الدولة مهما كان قدره يمكن أن يمد قلما أحمر إلى ما أكتبه ويحذف منه على هواه، وإذا كان غيرى لم يتمسك بهذا الحق الجوهرى للصحفى فذلك شأنه، وأبلغت الدكتور «حاتم» فى نفس الخطاب أننى سوف أمتنع عن الكتابة إلى حين إعادة النظر فى القرار، ولم أشأ أن أراجع الرئيس «السادات» وكان ذلك ممكنا فى أى لحظة، لكنه خطر على بالى

أن المراجعة فى هذه الحالة يمكن تصويرها على أنها رجاء، وذلك غير لائق وكنت ـ ومازلت حتى هذه اللحظة ـ ودون تجاوز للحدود ـ أعتبره نوعا من المساومة على حرية كاتب.

وفى نفس الوقت ـ ولأنى لم أكن أريد أن أصطدم علنا مع الرئيس «السادات»، عارفا أن هناك معركة مسلحة قادمة على الطريق ذلك العام (١٩٧٣)، وأن من يستطيع أداء دور فى الخدمة العامة فى ظروفها ـ عليه أن يكون متواجدا حيث يكون نافعا ـ فقد فكرت فى طريقة أستطيع أن أغطى بها انقطاعى عن الكتابة.

وكذلك نظمت على عجل رحلة إلى آسيا، اصطحبت معى فيها عددا من الزملاء فى الأهرام وقتها، بينهم الأساتذة: «جميل مطر»، و«محمد سيد أحمد»، و«سميح صادق» و«حمدى فؤاد»، وجاء معنا مسئولا إداريا عن الرحلة الأستاذ «عبدالله عبدالبارى» (وهو مدير إعلانات الأهرام الذى أصبح فيما بعد رئيسا لمجلس إدارته عندما تولى المهندس «عثمان أحمد عثمان» مهمة ترتيب شئون الصحافة من أواسط السبعينيات، وكان «عبدالله» نجم إعلان لامع وقدير)، وكان معنا بالطبع رفيق السنوات المبكرة من العمل الصحفى الأستاذ «محمد يوسف» (وهو وقتها رئيس قسم التصوير فى الأهرام).

وقضيت ـ وقضينا معا ـ شهرا كاملا فى آسيا، قابلنا فيه كل قادتها السياسيين والعسكريين، وعندما عُدنا من ذلك الموعد مع الشمس، بدأت أكتب فى الأهرام سلسلة أحاديث فى آسيا، وبأمانة الشهادة فإن الرئيس «أنور السادات» فهم مغزى الرسالة من الانقطاع عن الكتابة، ومغادرة مصر لشهر كامل، وكذلك فقد كان أول من اتصل بى بعد العودة، وكان أننا التقينا لمدة ست ساعات فى بيته فى الجيزة لتصفية العوالق فى خلافنا، خصوصا وأنه أثناء غيابى حدثت واقعة بيان الأدباء الشهير ومن نتائجها أن الرئيس «السادات» أمر بنقل عشرات الصحفيين إلى وظائف إدارية فى مؤسسات اقتصادية تابعة للدولة، وفيهم عدد من محررى الأهرام بينهم الأساتذة «أحمد بهاء الدين»، و«يوسف إدريس»، و«لويس عوض»، و«مكرم محمد أحمد»، وبدت هذه أزمة جديدة أضيفت إلى الأزمة القديمة، وكان الرئيس «السادات» ـ

بذكائه ـ يريد تعليق صفحة ما جرى قبل شهر على حساب ما جرى فى غيابى ـ أى مقايضة أزمة بأزمة، وكذلك فإن الحديث الذى بدأ رقيقا لم يلبث أن علت فيه الأصوات، مما لفت نظر قرينة الرئيس السيدة «جيهان السادات» فجاءت بنفسها إلينا تمارس دبلوماسيتها التوفيقية الرقيقة، والواقع أن حرصها كان شديدا على أن تعود العلاقات بين قرينها وبينى إلى ما كانت عليه ـ صداقة وتعاونا ـ وعلى أى حال فقد عُدت للكتابة دون رقابة ـ وتوصلنا إلى نصف حل فى موضوع الزملاء الذين نُقلوا من المؤسسات الصحفية، ثم إلى حل كامل بعد أسابيع ـ وخفت حدة الأزمة أو لعلها تأخرت من بداية عام ١٩٧٣ إلى نهايته، حيث تجدد الخلاف بيننا مرة أخرى دون إمكانية لحل وسط بسبب «هنرى كيسنجر»، وقبول الرئيس «السادات» بسياسة فك الارتباط خطوة خطوة ـ جبهة جبهة، ومن جانبى فقد رأيتها مقدمة لصلح مصرى ـ إسرائيلى منفرد يؤدى إلى انفراط فى العالم العربى يصعب التنبؤ بتداعياته وعواقبه ـ وذلك جرى لسوء الحظ.

لكن تلك «الرحلة إلى آسيا» «موعد مع الشمس» ـ ظلت عملا قائما بذاته، مستقلا عن الملابسات التى أحاطت به وأدت إليه، وكذلك وصلت أحاديث آسيا إلى هنا ضمن «عمر من الكتب» ـ (المجموعة الكاملة)، ورأيت أن أشير فى التقديم لها إلى ظروف وملابسات كتابتها.

محمد حسنين هيكل

موعد مع الشمس

نظرة طائر على آسيا

لقد دفعتنى مجموعة أسباب متعددة إلى السفر من الشرق الأوسط ومشاكله، إلى الشرق الأقصى وصراعاته..

....

....

ولعلى أقول إن الرحلة إلى الشرق الأقصى كانت فى بالى منذ وقت طويل.

ولست غريبا على الشرق الأقصى، فقد قصدته من قبل خمس مرات، وتابعت فيه حربين تركزت عليهما اهتمامات الدنيا وقتها: حرب كوريا، وحرب الهند الصينية الأولى، ثم إننى تابعت فيه مؤتمرا كان ولا يزال علامة تحول بارزة فى تاريخ حركة التحرر الوطنى: مؤتمر باندونج. وفوق ذلك، فإننى كنت أعتبر نفسى تلميذا شديد الفضول فى دراسة قضايا الهند واليابان بصفة خاصة، وكان فى هذين البلدين شىء ما يستهوينى ويشدنى إليه باستمرار.

....

....

ولكننى انقطعت عن الشرق الأقصى منذ سنة ١٩٦٦.

ومنذ ذلك الوقت، كانت رياح التغيير تهب بشدة على الشرق الأقصى:

- الثورة الثقافية فى الصين، والقنبلة الذرية الصينية، والقنبلة الهيدروجينية الصينية، ثم ذلك المشهد المثير الذى ذهب فيه إمبراطور الغرب: ريتشارد نيكسون، طارقا على باب الصين فإذا الباب يفتح له، وإذا هو فى لقاء مع أسطورة الشرق: ماوتسى تونج، الذى يعتبرونه فى الصين مزيجا من الإله والنبى والشاعر.

ـ تفجر النزاع الصينى ـ السوفيتى، واتساعه بعد كل حد يمكن السيطرة عليه.

ـ ظهور القوة الاقتصادية الهائلة لليابان، وحدودها وأبعادها.

ـ وقوع الحرب بين الهند وباكستان، نتيجة لعوامل قديمة وجديدة، أدت من قبل إلى انقسام باكستان نفسها، وظهور بنجلاديش.

ـ اتجاه الحرب الفيتنامية إلى الحل، بعد مأساة إنسانية حزينة، كانت فى بعض جوانبها ملحمة بطولية، سجل بها الإنسان الفيتنامى مثلا أعلى فى صلابة الإرادة وقوة التصميم.

كل ذلك وهو كثير، وغيره وهو متسع، جرى على الشرق الأقصى منذ سنة ١٩٦٦ إلى اليوم.

وهكذا جاءت الرحلة إلى الشرق الأقصى، لشهر كامل، أردته دراسة مكثفة واستيعابا بالتركيز، وكان ذلك ضمن أسباب انقطاعى عن الكتابة طوال هذه المدة، وقد سئلت فى أكثر من مكان ذهبت إليه:

«هل أكتب مقالى الأسبوعى تباعا مع مراحل السفر؟»

وقلت:

«إننى آثرت الانتظار إلى النهاية، لتكتمل الصورة لدىّ، ولعلى بعد ذلك أستطيع نقلها متماسكة متكاملة».

....

....

والرحلة إلى الشرق الأقصى بالطائرة «موعد مع الشمس».

وقد اخترت طائرة تحلق على خط مباشر من القاهرة إلى شنغهاى، وتتوقف فى الطريق مرتين فقط: فى كاراتشى العاصمة الاقتصادية لباكستان، وفى رانجون العاصمة السياسية لبورما.

وكانت الساعة السادسة بعد الظهر، عندما غادرت الطائرة مطار القاهرة الدولى..

بعد أربع ساعات هبطت فى كاراتشى، وبتوقيت القاهرة فقد كانت الساعة العاشرة من الليل، ولكنها بتوقيت كاراتشى كانت بعد ذلك بثلاث ساعات، أى أنها كانت الواحدة بعد منتصف الليل.

وقابلنا الفجر على منتصف الطريق بين كاراتشى ورانجون.

كان الفجر قادما من الشرق بسرعة دوران الأرض حول الشمس.

وكانت الطائرة قادمة من الغرب بسرعة ١٤٠٠ كيلومتر فى الساعة.

لم يبق ظلام الليل من حولنا أكثر من خمس ساعات أو ست ساعات على أكثر تقدير.

وعندما وصلنا إلى رانجون، كانت الساعة التاسعة صباحا... ولم تكن بشائر النور قد وصلت بعد إلى القاهرة.

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر كنا فى شنغهاى، وكانت القاهرة قد بدأت تستيقظ لنهار جديد.

كأن الرحلة بالطائرة إلى الشرق الأقصى بالفعل ـ كما قلت ـ «موعد مع الشمس».

* * *

إن هذا الشعور الذى يصنعه الطيران مرة واحدة من الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى، لموعد مع الشمس، يعطى لهذه الأحاديث ـ عن رحلة إلى آسيا اليوم ـ مدخلها الطبيعى:

نظرة طائر على آسيا.

نظرة سريعة وشاملة، تطل على الصورة كلها من ارتفاع شاهق، وتستجلى المعالم الرئيسية فيها، متجاوزة فى ذلك كل عقبات الطبيعة ـ محيطات وبحار، جبال

وغابات، أنهار وصحارى ـ متجاوزة أيضا كل الحواجز الأخرى، مما تصنعه اختلافات الأجناس والقوميات والعقائد والحدود السياسية.

معنى ذلك، أننى أريد أن أبدأ اليوم بتقديم صورة عامة، أقول بعدها:

ـ «هكذا بدت لى آسيا اليوم، وهكذا رأيت ما يجرى على أرضها... والمنتظر».

* * *

الملامح الرئيسية فى هذه الصورة، وبعين أو نظرة طائر كما يلى:

١ ـ لقد بدا لى صحيحا ذلك القول الذى سمعته قبل عامين فى باريس من «كوف دى مورفيل» رئيس وزراء فرنسا السابق على عهد شارل ديجول.

يومها، فى حديث طويل بعد العشاء، وفى غرفة مكتبة زاخرة بنفحات العقل، قال لى كوف دى مورفيل:

ـ «إننى أعتقد ـ وأظن أن الجنرال ديجول كان من نفس الاعتقاد ـ بأن بؤرة الصدام العالمى القادم أو المحتمل قد انتقلت بسرعة من أوروبا إلى الشرق الأوسط، ثم استقرت نهائيا فى الشرق الأقصى، وبالتحديد فى المحيط الهادى».

واستطرد كوف دى مورفيل:

ـ «إذا كنا نقول إن العالم الآن فيه خمس من القوى الأعظم هى الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى، والصين، واليابان، وأوروبا الغربية، فلا بد لنا أن نتذكر أن أربعا من هذه القوى الأعظم تطل على المحيط الهادى، ويواجه بعضها بعضا على ناحيتيه وفوق شواطئه:

هناك فى الغرب: الولايات المتحدة.

وهناك وسط البحر: اليابان.

وهناك على الشرق: الاتحاد السوفيتى والصين.

هذه القوى الأربع الأعظم عمالقة فى القوة الاقتصادية، وفى التأثير والنفوذ السياسى

ثلاث منها الآن بالفعل قوية نووية هى الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى، والصين...

واليابان قوة ذرية بمجرد لمسة على زر، ومن الصعب على أحد أن يتنبأ متى يحدث ذلك، وفى أى ظرف؟.. ولكن الاحتمال قائم!»

....

....

فى شنغهاى وبكين، فى طوكيو وهونج كونج، بدا لى ذلك القول الذى سمعته قبل عامين فى باريس من كوف دى مورفيل صحيحا بأكثر مما تصورت!

٢ ـ إن التوازن الدولى القائم الآن على استحالة الحرب بين القوى الأعظم لا يلغى الصراعات فيما بينها، وهكذا فإن الصراعات تدور بين العمالقة الأربعة فى آسيا، وإن كانت أساليب الصراع قد تغيرت، كما أن معظمه يجرى تحت السطح عقائديًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا أيضًا.

وأتذكر خلال حديث طويل دام قرابة أربع ساعات مع شواين لاى رئيس وزراء الصين العتيد، أننى سألته:

ـ «كيف ترى المتغيرات الرئيسية فى العالم اليوم؟» وكان قوله:

ـ «انقسامات جديدة .. تحالفات جديدة.. ثم فوضى فى كل مكان».

وأعترف أننى لم أسمع وصفًا لحالة العالم المتغيرة الآن أدق من هذا الوصف الذى سمعته من شواين لاى.

والصورة العامة فى آسيا شاهد على دقته:

ـ الحشود العسكرية من الصين والاتحاد السوفيتى، برغم أن وحدة العقيدة الماركسية اللينينية ما زالت موجودة، وخطر المواجهة محتمل، ولو أنه بعيد عن التصور حتى الآن.

- منافسة بين الاتحاد السوفيتى والصين فى اجتذاب اليابان، وفى بداية سنة ١٩٧٢ بدا أن الاتحاد السوفيتى يسارع إلى التفاهم مع اليابان، ولكن نهاية سنة ١٩٧٢ شهدت بزيارة تاناكا رئيس وزراء اليابان لبكين - تقاربًا يابانيًا وصينيًا ملحوظًا بشدة، يساعد عليه أن الحضارة اليابانية رافد من روافد الحضارة الصينية العريقة.

- اليابان تركز كل همها فى النمو الاقتصادى، وتحاول حتى الآن - بجهد جهيد - أن تقمع الدواعى والدوافع إلى أى دور سياسى، وتفعل ذلك أحيانًا بقسوة على النفس شديدة، يقول معها أحد الساسة البارزين فى اليابان:

- «نحن حيوان اقتصادى لا أكثر ولا أقل ... هكذا علمتنا تجربة الحرب النووية التى لم يتعرض لها من البشر غيرنا... وليس فى مقدورنا - ولا فى نيتنا - أن ننسى هذا الدرس».

ولكن أى مراقب محايد لا يستطيع أن يقبل هذا القول على علاته، لأن المنطق يقول بأن «كل قوة اقتصادية لابد لها أن تعبر عن نفسها سياسيًا... وبالضرورة عسكريًا».

- الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت بعد انتهاء دورها فى الحرب الفيتنامية، فى وضع أكثر ملاءمة لها.

لقد تخلصت من مأزق التورط العسكرى على الأرض الآسيوية وعادت إلى الدور الطبيعى لها فى آسيا، وهو الدور الذى دعاها إليه بإلحاح، عدد من مفكريها الاستراتيجيين العظام، وأولهم «والتر ليبمان»، وهو أن يكون وجودها فى آسيا على الشواطئ فقط، باعتبارها قوة بحرية فوقها غطاء جوى.

وهى هناك فى آسيا الآن فى وضع الانتظار، تتحين فرصتها، وسط الصراعات التى تجرى وسوف تجرى على الأرض الآسيوية، وخصوصًا بين الصين والاتحاد السوفيتى.

....

....

ولكل واحد من العمالقة الأربعة فى آسيا أسلوب فى التأثير على الناس، وفى كسب المواقع:

*الولايات المتحدة: تلعب بالصراع الصينى - السوفيتى، وتلوح بالمساعدات العسكرية والاقتصادية، والغريب أنها تركز الآن على فيتنام الشمالية، التى زارها هذا الأسبوع «هنرى كسينجر»، ومعه عروض بمساعدات لإعادة بناء دمار الحرب، تصل إلى بلايين الدولارات.

*الاتحاد السوفيتى: مشغول بالخلاف مع الصين، يعرض على كل دول آسيا معاهدات أمن مشترك، ومما يلفت النظر أن الاتحاد السوفيتى عرض معاهدة أمن مشترك حتى على الباكستان التى ما تزال إلى الآن عضوًا فى الحلف المركزى، وإن كانت قد انسحبت من حلف جنوب شرق آسيا.

*اليابان: تواصل حركتها فى جنوب شرق آسيا، وتحقق بالاقتصاد فى السبعينات، ما عجزت عن تحقيقه بالحرب فى الأربعينات، ووجودها فى أندونيسيا ضخم، وحجم مساعداتها للهند فى العام الماضى وحده زاد على ٨٠٠ مليون دولار.

*الصين: تتبع أسلوبًا جديدًا يقوم على العطاء بغير تعهدات بالسداد، ومثلاً فإن رئيس وزراء اليابان «تاناكا» ذهب إلى بكين وهو مستعد لأن يدفع باسم اليابان تعويضات حرب الصين، ولكنه فوجئ بشواين لاى يقول له:

«إننا لا نريد تعويضات حرب... لقد أغلقنا صفحة الماضى، ونريد أن نفتح صفحة جديدة!».

وأتذكر أننى سألت رئيس وزراء اليابان عندما قابلته:

«كيف تفسر ذلك الموقف؟» وكانت إجابة رئيس وزراء اليابان إعادة لما سمعه فى بكين، وقال لى:

«هم لا يريدون إثارة الماضى ... هم يريدون صفحة جديدة فى العلاقات معنا».

وفى مثال آخر، فإن الصين تنشئ لباكستان اليوم فرقتين مدرعتين، ولم تنتظر الصين حتى تسألها الباكستان عن التكاليف، بل بادرت إلى القول:

- «إننا بالطبع لن نتقاضى ثمنًا فيما سوف نقدمه لكم من المعدات».

ثم يضيفون فى بكين التفسير التالى:

- «إن الصين دولة اشتراكية ونحن لا نتصور أن تتحول دولة اشتراكية إلى تاجر سلاح !».

٣ - إن الصراع الكبير على أرض القارة الآسيوية الآن هو الصراع الصينى - السوفيتى، وهو صراع محسوس بشدة فى كل ركن من أركان القارة، بل فى كل قرية من قراها.

وعندما قابلت شواين لاى، لم يكن هناك سؤال وجهته إليه إلا ووجد فيه فرصة لينفذ إلى الهجوم على الاتحاد السوفيتى.

ولعلى أقول بغير تجاوز إن أعنف المشاهد فى آسيا أخيرًا، وهو الحرب بين الهند وباكستان كان فى ناحية من نواحيه ظلاً من ظلال الصراع الصينى - السوفيتى.

٤ - إن ثمة إحساسًا بين بعض زعماء آسيا البارزين، بأن الولايات المتحدة الأمريكية تسرف كثيرًا فى الاعتماد على الصراع الصينى - السوفيتى واستغلاله، وأنها فى هذا الصدد قد «تتمادى وتقلب المائدة على نفسها»، وذلك هو التعبير الذى استعمله واحد من أبرز وأذكى زعماء آسيا وقد طلب منى صراحة ألا أذكر اسمه إذا استشهدت بقوله.

كان قوله:

- «إن لعبة نيسكون وكيسنجر واضحة فى استغلال الصراع الصينى - السوفيتى، والآخرون ليسوا عميانًا.

إن اللعبة نجحت حتى الآن بأكثر مما كان متوقعًا.

ولكن نيكسون وكيسنجر ينسيان العامل البشرى... ينسيان أن هناك حدودًا لما ترضى القوى الأعظم بأن تستغل لتحقيقه.

هناك حدود ترضى فيها القوى الاعظم - لمصالحها - بأن تقبل استغلال الآخرين لها، ولكن ذلك لا يصح أن يتجاوز حدًا معينًا، وإلا جاءت نتيجته عكسية.

إذا حدث فى يوم من الأيام أن وجدت موسكو وبكين أن واشنطن تستغل الصراع بينهما بأكثر مما ينبغى، فإنهما سوف تتوقفان، وإذا تذكرنا أن القيادات الحالية فى موسكو وبكين ليست مخلدة بل إن معظمها تقدم به العمر كثيرًا، وإن قيادات أخرى ليست لها نفس العداوات القديمة وحدتها سوف تظهر... إذن فإن التوقف قد يتحول إلى حركة فى اتجاه آخر.

وهنا تنقلب حسابات نيكسون وكيسنجر رأسًا على عقب.

إن العقل الإليكترونى ثبت نجاحه فى السياسة، ولكن على شرط أن ندرك أن هناك حدودًا لأى نجاح !».

٥ - إن آسيا اليوم تعكس أكثر من أى مكان آخر فى العالم نشأة نوع من التحالفات غير العقائدية.

كانت وحدة العقائد أول أسس التحالفات فيما مضى، واليوم تبرز ظاهرة جديدة: هى التحالفات غير العقائدية:

التقارب الأمريكى - السوفيتى نوع من ذلك.

التقارب الأمريكى - الصينى نوع من ذلك.

الصداقة الهندية - السوفيتية نوع من ذلك.

الصداقة الباكتسانية - الصينية نوع من ذلك.

فى عصر الكتل - والحرب الباردة - كانت خطوط التقسيم على امتداد الكرة الأرضية كلها خطوطًا عقائدية.

فى عصر التوازن - بعد ذوبان الثلوج - أصبحت المصالح - قومية واقتصادية - هى وحدها التى تحدد وتقرر.

٦ ـ من أبرز ما يسترعى البصر فى آسيا اليوم، تلك المباراة الصامتة بين اليابان والصين، وهى مباراة من أهم وأخطر ما يجرى فى العصر، لأنها فى الحقيقة مباراة بين «الإيديولوجيا» و«التكنولوجيا»، أى بين العقائدية، والتقنية. إذا استعملت الترجمة المستحدثة لكلمة التكنولوجيا.

وهذه المباراة بين العملاقين تهم الدنيا كلها.

كان هناك رأى فى السابق، بأن التقدم السوفيتى الباهر يرجع إلى أسباب عقائدية.

ثم وفد رأى آخر يقول إن علوم الإنتاج وعلوم الإدارة الحديثة قد تواضعت بأهمية كل هذه الأفكار التى ظهرت فى القرن التاسع عشر، وحكمت فى النصف الأول من القرن العشرين.

٧ ـ هناك فى آسيا اليوم بلد وحيد فى العالم، من حيث نوع المشكلة التى تضغط عليه، وهى مشكلة الخوف من التقدم.

وهذا البلد هو اليابان.

وعندما زرت اليابان لأول مرة سنة ١٩٥١، كان إنتاجها القومى ٤٥ مليون دولار.

وهذه المرة وصل الانتاج القومى اليابانى إلى ٢٧٠ ألف مليون دولار.

وفى سنة ١٩٨٠، تقول التقديرات إن الإنتاج القومى اليابانى سوف يصل إلى ٨٠٠ ألف مليون دولار.

والواضح أن معدلات النمو تجرى بسرعة تتراوح ما بين ١٢ و١٤ فى المائة سنويًا، وهذه فى تقديرهم نسبة خطيرة لها محاذيرها.

من محاذيرها أن الفارق بينهم وبين من حولهم سوف يصبح كبيرًا، وهذا خطر.

ومن محاذيرها أن نمو القوة الاقتصادية إلى هذا الحد، مع الاعتماد الكامل على

مواد خام تجيء كلها من خارج اليابان، قد يدفع إلى إعادة التسليح على نطاق واسع، وربما على المستوى الذرى.

ومن محاذيرها أن البيئة اليابانية الطبيعية سوف يجرى تدميرها تمامًا بتلوث المصانع والمعامل.

٨ ـ هناك مباراة أخرى صامتة ـ حتى الآن ـ فى آسيا عبر المحيط الهادى، وهى المباراة بين «الين اليابانى» و«الدولار الأمريكى».

كان الدولار الأمريكى فى البداية هو السيد، وكان شريكًا فى معظم صناعات اليابان، خصوصًا فى ظروف الحرب الكورية.

وعندما كنت فى اليابان سنة ١٩٦٦، كانت نسبة الاستثمارات الأمريكية بالدولار فى الإنتاج اليابانى تكاد تصل إلى الثلث فيه، ولكن النسبة الآن لا تزيد على ستة فى المائة، وفى نفس الوقت فإن ثلث صادرات اليابان تذهب إلى الولايات المتحدة.

والنتيجة أن الين اليابانى فى مركز القوة، وأن الدولار الأمريكى يتراجع أمامه.

وإذا تذكرنا أن السياسة فى حقيقتها مجرد مظهر لمصالح اقتصادية وراءها، إذن فإن هذه المباراة بين الين والدولار قد لا تصبح صامتة، وإن كان الكل فى اليابان حريصًا على إزاحة هذا الاحتمال، وكأنه كابوس لا يريد أحد أن يلقاه يقظًا أو حتى نائمًا!!

٩ ـ هناك بين زعماء آسيا من يرون أن شرق القارة مضبوط الآن، أو هو سوف يكون مضبوطًا بالتوازنات الجارية بين العمالقة الأربعة، ولكن غرب آسيا ما يزال منطقة مفتوحة يجرى عليها النزاع بينهم.

والشرق الأوسط فى رأى هؤلاء جميعًا، هو امتداد لغرب آسيا.

وعندما كانت السيدة أنديرا غاندى تحدثنى عن رأيها فى أزمة الشرق الأوسط، فقد كان تعبيرها الدائم طوال الحديث هو:

ـ «عندكم فى غرب آسيا»... أو «هناك فى غرب آسيا»... أو «الأزمة فى غرب آسيا».

وأتذكر أن الرئيس الباكستانى ذو الفقار على بوتو قال لى خلال حديث طويل:

ـ «منطقة غرب آسيا ... أكاد أقول من الباكستان إلى الجزائر، مازالت مفتوحة للصراعات، لأن أحكام التوازن لم تفرض نفسها بعد عليها بطريقة واضحة، وهذا هو الخطر الذى يواجهنا جميعًا».

١٠ ـ قد يكون مناسبًا الآن أن أتعرض لنقطة لا أستطيع، مهما حاولت أن أتجنبها، وهى:

ـ «كيف تبدو مشكلة الشرق الأوسط من هناك، ووسط صراعات آسيا؟».

وردى بأمانة:

ـ «أنها تبدو لهم بعيدة جدًا وسط شواغلهم».

ولقد قابلت ستة من زعماء آسيا الكبار: شواين لاى، وتاناكا، ومجيب الرحمن، وأنديرا غاندى، وسيهانوك، وذو الفقار على بوتو...

وقابلت أيضًا عشرات من وزراء الخارجية والدفاع وقادة الجيوش فى كل بلد زرته...

وقابلت مئات من السياسيين والصحفيين والدارسين فى كل مجال واتجاه...

وأخشى أن أقول إن أحدًا من هؤلاء جميعًا لم يبدأنى بسؤال عن الشرق الأوسط، وإنما كان من نصيبى دائمًا أن أطرح الموضوع للمناقشة. وأستجلى رأيهم فيه.

وعندما كنت أفعل ذلك، فلقد كان أول ما يتبادر إلى أذهان معظمهم، سؤالاً أصبح تقليديًا من كثرة ما سمعته، وهو:

ـ «هل تتصور بعد حل مشكلة فيتنام، أن الدور سوف يجىء على مشكلة الشرق الأوسط؟».

وفى كل مرة كنت أقول:

ـ «إن الذين يحلون المشاكل ليست لديهم قائمة منظمة بها، يفرغون من واحدة ويلتفتون إلى أخرى.

المشاكل تطرح أو تفرض نفسها، ولا توجد مشكلة تدعى إلى الاهتمام العام بتذكرة دعوة، كأنها مأدبة غداء أو عشاء!».

وفى إحدى المرات سألنى أحد زعماء آسيا:

ـ «ألا تتصور أن أزمة الطاقة قد تدعو الولايات المتحدة إلى الاهتمام بأزمة الشرق الأوسط، خصوصًا أنه مخزن الطاقة ـ البترول ـ الأساسى فى العالم؟».

وقلت:

ـ «وما الذى يهدد هذا المخزن من وجهة نظرهم... هو موجود فى مكانه وأبوابه مفتوحة لهم!».

ثم قلت:

ـ ما لم يحدث ضغط، وضغط محسوس، وبكل الوسائل العربية، سياسية واقتصادية، وسياسية وعسكرية، فإنهم لن يتحركوا، وحتى إذا تحركوا فلا أظننى أطمئن إلى مثل هذه الحركة أو إلى نتائجها».

وأتذكر أن هذا الزعيم الآسيوى قال لى:

ـ «هذه مرة أخرى هى كارثة الحسابات الصماء، بالعقول الإلكترونية وحدها، لنيكسون وكيسنجر».

واستطرد هذا الزعيم يقول:

ـ «إن أحد أصدقائى قابل كيسنجر، وناقش معه طويلاً... وبين ما ناقشه أزمة الشرق الأوسط.

وقد شعرنا بأنه لا يريد أن يتحدث فيها.

ولقد فهمنا أن وزارة الخارجية الأمريكية بعيدة عن القرار.

وأن البيت الأبيض الأمريكى يضم ثلاثة أو أربعة يعرفون شيئًا عن الشرق الأوسط وإن لم يكونوا من الخبراء فى شئونه، ومع ذلك فإن كيسنجر لم يسمع من أحدهم شيئًا».

ومضى هذا الزعيم الآسيوى يقول:

- إننا لم نسمع شيئًا واضحًا من كيسنجر، وإن كان فى نهاية حديث طويل أشار إلى أنهم على أية حال «لا يستبعدون إمكانية حوار بين مصر وبينهم».

ولقد أستطيع فى هذه النقطة عن نظرتهم فى الشرق الأقصى إلى أزمة الشرق الأوسط أن أضيف عدة ملاحظات:

- لقد أحسست أن هناك تيارًا واضحًا مستعدًا لتأييد مصر فى أى قرار تتخذه.

- وأحسست كذلك أن تقديرهم للدور الخاص الذى تقوم به مصر فى المنطقة ما زال موجودًا.

- ثم أحسست أيضًا أن الجزء الذى يحظى باهتمامهم فى الأزمة هو قناة السويس لأن تأثير إغلاقها عليهم مباشر.

* * *

وكانت تلك نظرة طائر على آسيا.

بعدها نهبط على الأرض... نتقدم نحو بوابة بكين.

الشرق أحمر

الصين «نظرة عامة»

«دونغ فانغ هونغ»، عبارة فى اللغة الصينية، ترجمتها الحرفية: «الشرق أحمر»، وكانت هذه العبارة هى الإشارة المميزة التى ظل القمر الصناعى الصينى يرددها فى طوافه حول الأرض حينما انطلق سنة ١٩٧٠، بينما كان ثمانمائة مليون إنسان فى الصين يلصقون آذانهم على أجهزة الراديو فى كل مكان يتسمعون إلى النبضات القادمة من الفضاء الخارجى!

ولست أعرف تمامًا من الذى اختار هذه العبارة لتكون الإشارة المميزة للقمر الصناعى الصينى الأول، وقد سألت فى ذلك كثيرين ممن لقيت فى الصين، ولكن أحدًا لم يعطنى إجابة قاطعة، وإن كنت شخصيًا أظن أن الذى اختار الإشارة هو الرئيس «ماوتسى تونج» بنفسه لأنه بحاسته التاريخية لا يمكن أن يترك مثل هذه الإشارة وما ترمز إليه دون أن يعبئها بمعنى خاص يقصده، ثم إن العبارة من ناحية الصياغة تحمل إيماءات إلى أسلوبه الخاص فى الكتابة، وحتى فى إصدار التوجيهات؛ وهو أسلوب وصفه الرئيس ماو نفسه ذات يوم بقوله: «لكى يستطيع أى تعبير أن يلهم ويحرك، فإنه لابد أن يكون مزيجًا بين التحديد الذى لا يسمح بالخطأ، والإبهام الذى لا يقمع الخيال».

وربما كان من نماذج ذلك الأسلوب، أن الرئيس «ماو» عندما يدعو أحدًا إلى حوار معه، فإن تعبيره المفضل هو القول:

- «تعال نتحدث فى كل شىء من جنوب الجبال إلى شمال البحار».

وإذا قبلنا استنتاج أن عبارة «الشرق أحمر» من اختيار الرئيس ماو.

وإذا قبلنا تفسير الرئيس ماو نفسه لأسرار الكلمات، إذن فإن العبارة قد تكون إشارة إلى أن ظل الصين - الحمراء - هو الظل الغالب على الشرق...

وإذا كان ذلك هو المقصود، فلا أظنني أختلف، لأن هذه هى الحقيقة الكبرى فى آسيا كما رأيتها، ذلك أنه على طول المسافة من اليابان إلى الباكستان، فإن ظل الصين هو الغالب فى كل مكان، ولا أحد - فيما أتصور - يستطيع أن ينازع فى هذه الحقيقة!

* * *

وقبل أن أذهب إلى الصين، فقد حاولت أن أستمع إلى آراء عدد من الذين سبقونى إليها.

وكان بين ما لفت نظرى أن الآراء شديدة التباين، بل شديدة التناقض.

* ومثلاً، فإن وزيرًا مصريًا هو الدكتور محمود محفوظ وزير الصحة قال لى بحماسة:

- «إنك سوف تجد هناك مجتمع الفضيلة... لا أحد يكذب... لا أحد يسرق... لا أحد يتواكل».

وهذه النظرة المثالية للصين وكل ما يجرى فيها شائعة، وقد كان مما لفت نظرى ذات يوم، أن أحد رفاقى فى بعثة «الأهرام» إلى بكين، وهو خبير متخصص فى علوم الصراع السياسى، كان يزور معنا مدرسة من مدارس ٧ مايو - وهى مدارس إعادة تقويم القيادات - ودخلنا أحد فصول المدرسة، وإذا قرابة مائة دارس جالسون على الأرض يناقشون مع أستاذ لهم، يجلس أمامهم على منصة مرتفعة بعض الشىء من الأرض، أطروحة إنجلز الشهيرة «ضد دورينج»، وإذا برفيقنا تأخذه النشوة ويقول بالحرف:

- «يا إلهى... كأن أرسطو بعث حيًا مرة أخرى».

* ولكن هناك نظرة أخرى متباينة، بل متناقضة للصين، وكان صاحبها سياسيًا عربيًا - غير مصرى - وكان قوله:

- «أنت ذاهب إلى الصين؟

إنك سوف ترى مجتمع النمل!

إنك فى الغالب سوف تنزل فى فندق «الشعوب»، وإذا حدث ذلك، فإنى أرجوك أن تستيقظ مبكرًا ذات يوم، وأن تنظر من نافذة غرفتك إلى الشارع تحتك، وسوف تجد على الناحيتين فى الشارع الواسع منظرًا لن يبرح ذاكرتك.

طابور لا ينقطع من راكبى الدراجات الذاهبين إلى عملهم فى الصباح على هذه الناحية من الشارع، وطابور آخر لا ينقطع على الناحية الأخرى.

سوف تجدهم كالنمل فى الحركة، وفى الشكل العام.

لن تجد فى بكين إلا هذه الطوابير من راكبى الدراجات.

ليس فى الشوارع سيارات، لأن السيارات لا تخصص إلا لنواب الوزراء ومن فوقهم، وللأعمال الرسمية فقط.

وفى بكين مترو تحت الأرض، وهو فخم وأنيق، ولكنه للمستقبل.

وأما الوسيلة الأساسية للانتقال فى بكين اليوم فهى الدراجة، وسوف تذكرك طوابيرها المتحركة بغير انقطاع، بطوابير النمل.. النمل الفارسى بالتحديد!».

وكان هذا التباين والتناقض مصداقًا حيًا لملاحظة سمعتها من رفيق آخر من رفاق السفر، وهو خبير فى العلاقات الدولية بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية «بالأهرام»، وقد سبقت له الإقامة المتصلة سنتين فى الصين، وكانت ملاحظته:

- «إن أحدًا لا يستطيع أن يتخذ موقفًا وسطًا إزاء الصين.. الصين شىء يفرض نفسه، إما أن تتعصب له... وإما أن تتعصب ضده!».

- ولعلى أقول برغم ذلك، إن هناك من استطاعوا أن ينظروا إلى تجربة الصين نظرة موضوعية، وبينهم السير «إليك دوجلاس هيوم» وزير الخارجية البريطانية... وأتذكر أننى فى زيارة أخيرة للندن، أتيح لى الاطلاع على فقرات من تقرير قدمه إلى مجلس الوزراء البريطانى بعد رحلة له أخيرة إلى الصين، وكان من بين ما قاله وزير خارجية بريطانيا:

- «سوف يكون مهمًا بالنسبة للعالم كله، أن يتابع عن كثب تجربة الصين، لأنها فريدة فى التاريخ.

هناك شعب يريد أن يعتمد على نفسه كلية فى بناء تطوره وتقدمه.

وهو حتى لا يريد أن يقترض من الخارج لتمويل مشروعاته.

وقد سألت رئيس وزراء الصين «شواين لاى» عن السبب فى ذلك. وكان رده:

- نحن نفضل أن نعتمد على أنفسنا تمامًا.. ولا نريد أن نقترض من أحد ... وليس من أهدافنا أن نصل إلى وضع نجد أنفسنا فيه مثل غيرنا يقترضون من جديد ليسددوا فوائد قروض قديمة!».

* * *

وعندما ركبت القطار من «كانتون» إلى «هونج كونج»، خارجًا من الصين، بعد زيارة استغرقت اثنى عشر يومًا، فلقد وجدت كثيرين من الصحفيين فى انتظارى.

كان علىّ أن أجيب على السؤال الذى طالما كنت قد وجهته إلى غيرى:

- «كيف وجدت الصين؟».

وقلت لهم بسرعة:

- «إن أبرز ما لفت نظرى فى الصين هو «قوة الاندفاع».

هناك قوة دافعة تحرك الصين بغير حدود.

وهذه القوة مزيج من عناصر مختلفة، يمكن أن يطول النقاش حول أصولها وجذورها، ولكن أحدًا لا يمكن أن يختلف حول الطاقة التى تولدها.

هناك فى الصين شعب من ثمانمائة مليون.

وهذا الشعب يتحرك إلى هدف.

ولا أعتقد، مما رأيت، أن هنالك أحدًا يستطيع أن يحول دونه ودون بلوغ هدفه.

«القوة الدافعة» هى الشىء اللافت للنظر فى الصين».

وعندما سئلت عن أحوال الناس فى الصين، قلت بأمانة:

- «الكل يأكل بما فيه الكفاية ... الكل يلبس بما فيه الدفء والكرامة أيضًا... والكل يعمل بغير انقطاع ... حتى العجائز فى المزارع الجماعية يكلفونهم بالسهر فى الليل مع الأطفال يروون لهم قصة ما كان فى الصين من جوع وفوضى وعذاب وذل، حتى لا تضيع من ذاكرة الأجيال حكاية ما كان، وليستطيعوا تقدير ما هو كائن».

* * *

ولقد ساءلت نفسى كثيرًا بعد أن خرجت من الصين:

- «ما هو سر ما حدث فيها، وهو شىء أقرب إلى المعجزة؟».

ولست أستعمل هنا كلمة المعجزة جزافًا، لأننى حريص على الكلمة، ضنين بها، وهذا طبيعى، لأن الكلمة بالنسبة للكاتب حياة.

وإنما أستعمل هذه الكلمة، لأننى أتذكر حوارًا مع نيكيتا خروشوف الزعيم السوفيتى الشهير، جرى بينى وبينه سنة ١٩٦٤، وكانت الصين فيه موضوعًا رئيسيًا، وكان من بين ما قاله لى خروشوف وقتها:

- «سوف ترى، ونرى جميعًا، ما يحدث للصين بعد خلافها مع الاتحاد السوفيتى.

أقول لك بلا تردد، إنهم بدون مساعداتنا سوف يعودون إلى عصر المجاعات.

هل قرأت رواية الكاتبة الأمريكية بيرل باك عن «الأرض الطيبة» ووصف المجاعة فيها...؟

سوف تعود الصين إلى هذا العصر، وسوف يتعلمون درسهم.

لقد ضغطوا علينا، لأنهم أرادوا أن نسلمهم أسرار القنبلة الذرية، ونحن لن

نعطيها لهم... إن القنبلة الذرية ليست لعبة... وليست مثل ما يقول «ماوتسى تونج» نمرًا من ورق.

هم لا يعرفون شيئًا.. ولن يعرفوا» !

* * *

ولكن الصين لديها اليوم قنبلة ذرية، ولديها قنبلة هيدروجينية، وعندما كنت فيها، قال لى سفير أوربى يتابع ما يجرى داخلها عن قرب وبعمق:

- «هناك معلومات لدينا تقول إنهم جربوا فى الأسبوع الماضى - وبنجاح - صاروخًا عابرًا للقارات، مداه أربعة آلاف ميل» !

ولكن القنابل والصواريخ ليست، فى رأيى، دليل المعجزة.

ولقد استوقفنى دليل آخر وبالأرقام.

تقول الأرقام:

- إن حجم الإنتاج الصينى يعادل حجم الإنتاج اليابانى، وهو من أضخم القوى الإنتاجية.

(ولابد أن نسلم هنا بوجود فارق فى التقدم، لأن حجم الإنتاج الصينى يصنعه سكان يصل تعدادهم إلى ٨٠٠ مليون، بينما حجم الإنتاج اليابانى يصنعه سكان يصل تعدادهم إلى ١٠٠ مليون فقط).

لكن هذا ليس هو المهم.

المهم هو الرقم التالى عن استهلاك الصين من الوقود، وأقصد به البترول قبل أى شىء آخر:

- اليابان، لكى تصنع حجم إنتاجها، تستهلك سنويًا ٢٤٠ مليون طن من البترول.

- أما الصين، فإنها تستهلك سنويًا ٢٥ مليون طن من البترول.

والغريب أن هذا الحجم الصينى فى استهلاك البترول (٢٥ مليون طن)، هو نفسه تقريبًا حجم الاستهلاك المصرى.

وإذن نخلص بمفارقة بالغة الأهمية، وهى:

«أن الصين تستخدم نفس حجم الطاقة التى تستهلكها مصر لكى تنتج نفس حجم الإنتاج الذى تصنعه اليابان».

وهذه هى الصورة الحية للمعجزة !

* * *

والمعجزة، فى ظنى، ليست معنى غيبيًا، وإنما المعجزة، أو حتى ما يبدو أمامنا وكأنه معجزة له أسباب لابد أن تكون علمية.

وفى طوافى كله بالصين، فلقد أحسست بأن هناك ثلاثة أسباب محددة تكمن وراء المعجزة:

* السبب الأول: أن كل إنسان يعمل، ولا يمكن أن يكون هناك شىء آخر وراء «إنتاج بحجم إنتاج اليابان بوقود يماثل حجم استهلاك مصر» إلا العمل الإنسانى، والعمل الإنسانى وحده.

* السبب الثانى: أنه ليس هناك ما كان يسميه الدكتور محمود فوزى، عندما كان رئيسًا للوزراء «فاقدًا أو عادمًا أو ضائعًا» فى أى شىء.

وأتذكر أن «وو لين شى» المسئول عن تحرير جريدة «الشعب»، وهى كبرى الصحف الصينية، دعانى إلى عشاء ذات ليلة فى مطعم «بط بكين» الشهير.

كان العشاء سبعة أطباق من بطة واحدة !:

خمس قطع مختارة باردة من البطة فى أول طبق.

كبد البطة مقليًا فى طبق ثان.

أضلاع البطة بالصلصة فى طبق ثالث.

قلب البطة فى قطع صغيرة محمرة فى طبق رابع.

لسان البطة وأمعاؤها والبنكرياس، مطبوخة مع الخضر فى طبق خامس.

جسم البطة نفسه أخيرًا، وهو الطبق الرئيسى، مشويًا فى طبق سادس.

عظام البطة مسلوقة، فى طبق حساء فى النهاية، وهو الطبق السابع. وأتذكر أننى قلت لـ «وو لين شى»:

ـ «لم يبق من البطة غير ريشها، وأرجو ألا نأكله؟».

وقال «وو لين شى» بجد:

ـ «لا ... إن المطعم يبيع ريش البط لأغراض صناعية!».

* السبب الثالث: هو التنظيم الدقيق، وهو شىء محسوس إلى «أطراف الأصابع» فى كل بقعة على أرض الصين.

ونقطة التنظيم تستحق مناقشة أطول.

* * *

«ما هو سر هذا الدور الذى يلعبه التنظيم الدقيق فى حياة الصين اليوم، وفى دورها حاليًا ومستقبلاً؟».

ولقد سئلت هذا السؤال كثيرًا وبإلحاح، ومنذ خرجت من الصين وحتى هذه اللحظة.

وكان آخر من وجه إلىّ هذا السؤال هو الرئيس معمر القذافى، وكان معنا فى الأسبوع الماضى لعدة ساعات يسمع «مشاهدات وملاحظات عائدين من آسيا».

وكنت دائمًا ألخص رأيى فى النقط التالية:

١ ـ إن روح التنظيم موجودة فى عقيدة الصين التاريخية الأولى وهى تعاليم «كونفوشيوس»، ولم يكن كتاب كونفوشيوس الشهير وهو: «حوليات الربيع والخريف» ـ وقد أصبح فيما بعد كتابًا مقدسًا ـ إلا مجموعة من قواعد الأخلاق

والسلوك، أرست بين ما أرست فى المجتمع الصينى، أسسًا راسخة لاحترام المسئوليات على كل المستويات، حتى إن عددًا من الدارسين لشئون الصين، وبينهم «إدجار سنو» فى كتابه: «الناحية الأخرى من النهر»، يعتقدون أن «الكونفوشية» أعطت للصين أقوى الأجهزة الإدارية فى التاريخ، وأكثرها استمرارًا واستقرارًا، ولقد ساعدها على ذلك أن المجتمع الصينى بالطبيعة مجتمع نهر، وإذن فهو يحتاج دائمًا إلى حكومة مركزية قوية.

٢ ـ إن الحضارة الصينية لم تنقطع طوال التاريخ، ولم تنكسر ولم تداخلها الشوائب.

وفى حين أن الحضارة المصرية مثلاً انكسرت وانقرضت بعد عهد الأسرات، كما أن الحضارة الإغريقية نامت على طول المسافة بين انهيار الإمبراطوريات الرومانية وعصر النهضة الأوربية الحديث، فإن الحضارة الصينية دون غيرها من الحضارات الأولى، واصلت استمرارها وازدهارها، برغم عصور من الانتكاس عاشتها.

ومن شأن استمرار الحضارة فى أمة من الأمم، أن وحدتها تبقى سليمة.

وربما كان من ذلك أن اللغة الصينية ظلت مع اتصال الحضارة الصينية، وعاء يتسع دوامًا لضمير ووعى ومشاعر الأمة الصينية.

٣ ـ إن الصينى كان، ولا يزال دائمًا، يعتقد أن «الصين» هى قلب الكون، وربما كنا نحن هنا فى الشرق الأوسط ـ الذى نعتبره وسط العالم ـ نظن أن الصين فى طرف قصى من الدنيا، ولكن النظرة إلى خريطة العالم مرهونة دائمًا بالمكان الذى ننظر منه.

ولقد نلاحظ أن اسم الصين فى اللغة الصينية هو «شونج كو» والترجمة الحرفية لهذا الاسم هى «الملكوت المركزى»، أو «الملكوت الأوسط».

ومن هنا، فإن الصين هى شعب الصين، بل إن الأقليات الصينية خارج الصين، وحتى فى الولايات المتحدة، لا تعتبر نفسها مهاجرة خارج الصين، وإنما تعتبر نفسها فى مهمة خارج الصين.

٤ ـ إن الصين لم تتعرض للغزو الخارجى فى أى فترة من فترات تاريخها، كما أنها لم تذهب غازية إلى أى مكان، وكانت حروبها كلها حروبًا دفاعية.

وحتى فى عصر التدخل الأوربى فى الشرق الأقصى، وبعد حرب الأفيون الشهيرة، فإن الصين لم تصبح مستعمرة بالمعنى التقليدى، وإنما تمركزت قوى التدخل الأجنبى على شواطئها، وعلى أطرافها البعيدة، وبقى «الملكوت الأوسط» سليمًا لا يمس.

٥ ـ إن الكونفوشية لم تأت إلى الصين بأية أساطير غيبية يمكنها أن تمزق المجتمع الصينى إلى طوائف وشيع، أو تغرقه فى خزعبلات مظلمة ومسكونة.

وكان كونفوشيوس، ومن قبل ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة يقول:

ـ «لكم أن تحترموا الأرواح... ولكن عليكم أن تحرصوا على إبقاء مسافة بينها وبين عقولكم!».

ثم كنت أقول:

ـ «إن هذه الأسباب الخمسة كانت موجودة فى الصين، تمهد للنظام وإمكانية التنظيم إذا جاءت القيادة الواعية»..

كانت هذه كلها أرضية تاريخية تمكن لماوتسى تونج من الدعوة إلى تعاليمه.

ولقد كان الجو كله مهيأ بعد عصر المجاعات وانحلال الأباطرة فى الصين، ونزعات التسلط لدى القادة العسكريين فى نهاية فترة حكم أسرة «مانشو»، وكان الجو كله مهيأ بعد إذلال حرب الأفيون، وبعد ضياع ثورة «سن يات سن» على يد الطبقة الجديدة التى سيطرت على حزبه «الكومنتانج»، وكان المسرح جاهزًا تمامًا لدخول ماو بعد الحرب الاستعمارية التى شنتها اليابان على الصين، ابتداء من سنة ١٩٣١.

إن «ماو» جاء حقيقة يحمل أعلام الماركسية اللينينية، ولكن «ماو» استجاب للطبيعة الوطنية للصين أكثر مما استجاب لماركس وإنجلز، ولينين، وستالين الذى

لا تزال صورته معلقة حتى الآن فى الصين، أو لعلى أقول لكى لا أتجاوز، إن «ماو» أضاف إلى الماركسية اللينينية وغير فيها، بما يلائم ظروف الصين.

ولعلى أترك هذه النقطة لغيرى ممن يتحمسون للمناقشات العقائدية.

ولكننى أكتفى بالقول بأن «ماو» جاء إلى المسرح الصينى والمجتمع هناك مهيأ لثورة، ومهيأ لثائر، ثم إنه كان بكامل وحدته الحضارية والتاريخية، على استعداد لأن يستجيب للنظام وللتنظيم.

* * *

ولقد سئلت:

ـ «هل أحسست هناك بأثر للقسر والإرغام فى فرض النظام والتنظيم؟».

وقلت:

ـ «لا أستطيع أن أتصور إنسانيًا أن يحدث تغيير مثل الذى حدث فى الصين بدون قسر وإرغام».

ولكنى أريد أن أضيف بأمانة:

ـ «إذا كنت أقول بذلك، فلابد أن أعترف بظاهرة لا يمكن المرور عليها بسهولة.

هذه الظاهرة هى أن الخط الفكرى الصينى واضح من القمة عند «ماوتسى تونج» و«شواين لاى»، إلى أى عامل فى مزرعة جماعية، وإلى أى طبيب من «الأطباء الحفاة» كما يسمونهم، وهم ليسوا حفاة الأقدام كما قد يوحى بذلك وصفهم، ولكن الوصف كان من صياغة «ماو» الذى وجد أن الريف الصينى بكل هؤلاء الملايين الذين يعيشون فيه لا يحتاج إلى أطباء متخصصين تصرف عليهم الدولة عشرات السنين، وإنما هو يحتاج إلى من يفهم فى الأمراض العادية، وهكذا كان تعبير الأطباء الحفاة الذين يسيرون فى الريف يعالجون. بالأعشاب الطبية فى معظم الأحوال ـ نزلات البرد والأمعاء ونوبات الزكام والصداع، بعد تدريب علمى لثلاثة أو ستة شهور أو سنة واحدة فى بعض الأحيان».

ولقد سئلت، وبين الذين سألونى الرئيس معمر القذافى:

- «كيف تفسر وحدة الخط الفكرى واتصاله بين القيادة والقاعدة؟».

وقلت:

- لذلك فى ظنى خمسة أسباب:

* **الأول:** أن التجربة أمام الإنسان الصينى ناجحة، أعطته الكثير، وحققت له الكثير.

* **الثانى:** أن القيادة فى الصين قدوة أيضًا، وهذه نقطة بالغة الأهمية، لأن الناس يتقبلون حينما يشعرون أن الذين يدعونهم إلى شىء يطبقونه أولاً على أنفسهم.

ولقد نتذكر أن «ماوتسى تونج» وهو إله فى الصين الآن يعيش فى المدينة المحرمة، فى بيت صغير، كان مخصصًا لخدم أسرة «مانشو»، والبيت من ثلاث غرف: غرفة نوم، وغرفة استقبال، وغرفة مكتبة، والأثاث بسيط، وليست هناك بجانب «ماو» إلا سكرتيرة واحدة ترتب غرفته وترتب أوراقه وهذا هو كل شىء.

* **الثالث:** وهو نتيجة لما سبق أن هناك ثقة كاملة بين القاعدة والقمة، والثقة فى القيادة فى الصين لا تقتصر على الإيمان بإخلاصها، ولكنها تمتد أيضًا إلى الثقة بقدرتها وحكمتها. هذا فضلاً عن أن جميع المسائل والقضايا تطرح للمناقشة داخل الحزب وعلى كل مستوياته، بحيث تصبح بالفعل حين صدورها معبرة عن رأى الجماهير الواسعة، وفى أقل القليل فإن هذه القرارات حين تصدر لا تكون مجرد أوامر من أعلى كأنها قنبلة هاوية من السماء، أو انفجار مفاجئ تحت الأقدام كأنها لغم كان مدفونًا فى الأرض!!

* **الرابع:** هو أن العقائد لا تعطى للجماهير كأنها كتل حجر، وإنما تترجم العقائد إلى تصرفات عادية وإنسانية بسيطة للغاية، قادرة على النفاذ داخل أى تصور.

وفى الفترة التى كانت الولايات المتحدة فيها تحاول احتواء الصين وفرض

الحصار عليها، فإن ماوتسى تونج لم يحطم رءوس الناس بعبارات لها دوى دون أن يكون لها صدى، وإنما اكتفى بإصدار توجيهاته الثلاثة المشهورة:

- احفروا الخنادق فى كل مكان (أى استعدوا للغزو).

- اختزنوا الحبوب فى كل مكان (أى استعدوا للحصار الاقتصادى).

- لا تسعوا للسيطرة فى أى مكان (أى أن سياسة الصين دفاعية وليست عدوانية).

* **الخامس:** هو أن خطوط الاتصالات ولغة الاتصالات بين القمة والقاعدة فى الصين مازالت حية وقوية من أثر التجربة الثورية الطويلة التى كانت تجعل «الثلاثة فى واحد» كما يقولون فى الصين أى الحزب وجيش التحرير والحكومة. وذلك خلال سنوات النضال الشاق الطويل (ولقد أعود إلى هذه النقطة فيما بعد بتفصيل أكثر).

* * *

- ولقد سئلت:

- «أليست غريبة هذه الألوهية لماوتسى تونج فى الصين؟».

وقلت:

- «لقد كنت دائمًا أستغرب هذه الألوهية لماوتسى تونج، وكنت أجدها دائمًا غير معقولة، بل كنت أجدها فى بعض الأحيان على نقيض مع الفكر الماركسى ذاته، الذى تجرى التجربة فى الصين تحت راياته».

ولكن المذهل أن ما يبدو مستغربًا أو غريبًا من خارج الصين، يبدو داخلها عاديًا وطبيعيًا.

ولقد شعرت بأن الناس فى الصين يعطون «لماو» مكانة الإله بغير رهبة أو خوف، وإنما بمزيج مثير من الحب والتقديس.

لقد وجدت الصين كلها تتحرك على إيقاع صادر من ذلك البيت الصغير وراء أسوار المدينة المحرمة، حيث يعيش «ماو» ويفكر ويصدر تعاليمه.

الصين كلها تتحرك ـ بثمانمائة مليون فيها ـ على الإيقاع الهادئ أحيانًا، والهادر أحيانًا أخرى ـ كما فى وقت الثورة الثقافية ـ الذى يعزفه ماوتسى تونج.

ويبدو أنه خبير بالموسيقى، عارف بفنونها، قادر على تطبيقها فى السياسة.

... كان هو القائل يومًا فى أحد توجيهاته الشهيرة إلى أكثر شعوب العالم كثافة فى السكان:

ـ تعلموا العزف على البيانو... ينبغى للإنسان لكى يعزف على البيانو أن يحرك أصابعه العشر، لا أن يحرك بعض أصابعه ويترك بعضها الآخر جامدًا لا يتحرك...

ولكنه إذا ضغط بأصابعه العشر دفعة واحدة فلن يستطيع أيضًا أن يعزف لحنًا...

فلأجل عزف موسيقى جيدة، ينبغى أن تكون حركات الأصابع إيقاعية متناسقة!!».

الشرق أحمر

شواين لاى «صورة عامة»

إذا أحس أحد من خلال ما أكتب هذه المرة أن إعجابى ظاهر «بشواين لاى» رئيس وزراء الصين، فهذا الإحساس صحيح. ولست أداريه، ولا أحاول، وإنما أعترف به منذ اللحظة الأولى لكى أريح نفسى، ولكى أنبه الذين يقرأون، لعلهم يستطيعون أن يفصلوا بين ما هو «ذاتى»، وما هو «موضوعى» فى سياق هذا الحديث!

والإعجاب يختلف عن الحب.

وفى حين أننا نستطيع أن نمارس الحب فى غيبة العقل، فإن الإعجاب لا يمكن أن يحدث بعيدًا عنه، أى أن الإعجاب لابد أن تكون له أسباب عاقلة، وإن لم يمنع ذلك من وجود أشياء أخرى فى الإعجاب لا تدخل من باب العقل، وإنما تنساب من خلال المشاعر.

وأكاد أقول إن الإعجاب ينبع من مصادر ثلاثة:

الأول: عملى صرف، مرده إلى تقدير دور من نوليه إعجابنا فى الحياة أو فى التاريخ.

الثانى: فكرى مجرد، ينشأ من رؤيتنا لإنسان يفكر ويتحرك برؤية صافية ومنسجمة، وبغض النظر عن النجاح أو الفشل.

الثالث: لا شعورى، ينفذ إلينا بالإيحاءات والإيماءات وحدها.

* * *

وحين قابلت شواين لاى أخيرًا، فلقد كنت أتساءل قبل الموعد المحدد للمقابلة:

- «كيف سأجده هذه المرة؟

وماذا فعلت به أوقات الأزمة. خصوصًا خلال الثورة الثقافية ورياحها العاصفة؟

وماذا فعلت به لحظات الانتصار، خصوصًا حين جلس يتفاوض فى بكين مع ريتشارد نيكسون، الذى طرق بيده باب الصين مستأذنًا فى الدخول، بعد حياة طويلة بناها على احتواء الصين وحصارها؟

وأهم من ذلك، ماذا فعلت به أعباء رئاسة الوزارة فى الصين، وقد مضى على تحمله لها أربعة وعشرون عامًا، وأظنها أطول مدة قضاها رئيس وزراء فى العصر الحديث، وإذا تذكرنا أن ذلك كان فى الصين، حيث رئيس الوزراء مسئول عن ثمانمائة مليون من البشر، وعن تجربة هائلة، قدر له أن يكون مهندسها ومنفذها، إذن فإن الأثقال لابد أن تكون فى حمل الجبال!».

وكنت قد التقيت مع شواين لاى قبل ذلك مرتين:

مرة فى باندونج سنة ١٩٥٥، وكان حديث شواين لاى وقتها مركزًا على نقطة واحدة، هى أنه يريد أن يقنع دول آسيا وأفريقيا بأن الصين شريكة لها فى النضال:

... برغم أنها شيوعية حمراء، فهى جزء من حركة التحرر الوطنى.

... وبرغم حجمها الهائل، فإنها بلد متخلف يسعى إلى التقدم مثلما يسعى الآخرون.

وأعتقد أن شواين لاى نجح فى ذلك نجاحًا بعيد الأثر.

وكانت المرة الثانية فى القاهرة سنة ١٩٦٥، وكان «شواين لاى» قد قضى فى القاهرة وقتها قرابة الاثنى عشر يومًا فى انتظار انعقاد المؤتمر الآسيوى الأفريقى الثانى بعد باندونج، وكان مقررًا عقده فى الجزائر، فى قصر الصنوبر، الذى بنى خصيصًا لهذا المؤتمر واتسع بعد ذلك لمؤتمرات دولية أخرى.

وأتذكر أن شواين لاى ركز فى ذلك اللقاء معى على ثلاث نقاط، أعترف بأن الأيام أثبتت صحتها إلى أبعد مدى، وكان حديثه عنها فى ذلك الوقت المبكر شعاعًا نافذًا إلى المستقبل الذى لم يجئ بعد.

* كان النقطة الأولى التى ركز عليها هى رأيه فى محاولة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحتوى الصين، وأن تحاصرها.

وأتذكر يومها قوله:

- لا يهم ما يحاوله غيرنا، وإنما الأهم ما نشعر نحن به فى قرارة أنفسنا.

إذا كنا نعتقد أننا نمثل تيارًا تاريخيًا صحيحًا، فلابد أن نلزم مواقعنا ولا نتحرك منها، وليس يهم أن ينكر الآخرون وجودنا، لأن التجربة سوف تعلمهم، وسوف يأتى يوم - مهما طال الوقت - يجيئون فيه إلينا معترفين بوجودنا، مع العلم بأن وجود أية قوة لا يتوقف على اعتراف الآخرين بها، وإنما يتوقف على اليقين الذى تجده داخل نفسها.

هل نحن على حق تاريخيًا... أم إننا لسنا على حق؟... هذا هو السؤال!

وهل نحن قوة على الخريطة وحقيقة... أم إننا لسنا قوة وحقيقة؟... هذه بقية السؤال!!

ما يفعله الآخرون من شأنهم.

أما شأننا نحن فهو أن ندافع عن مواقعنا حتى تجيء اللحظة التى يستيقظ فيها الغافلون».

* وكانت النقطة الثانية التى ركز عليها هى رأيه فى سياسة تصعيد الحرب التى لجأ إليها الرئيس الأمريكى - فى ذلك الوقت - ليندون جونسون بالنسبة لفيتنام.

وأتذكر يومها قول شواين لاى:

- إننا نشعر بأن بعض أصدقائنا يخشون علينا من هذا التصعيد، ونحن نختلف معهم.

نحن نريد أكبر قدر من التورط الأمريكى فى فيتنام، ونعتقد أنه كلما زاد عدد الجنود الأمريكيين فى الهند الصينية، فإن ذلك تأمين لنا.

كان أكثر ما نخافه هو أن تضرب الولايات المتحدة من بعيد ولا يكون فى متناول سلاحنا، أو حتى أظافرنا أن تطول لحمها الحى.

اتركوا الولايات المتحدة تصعد... ليصبح لها نصف مليون جندى، أو حتى مليون جندى فى فيتنام، فى النهاية فإن هذا الجيش الأمريكى سوف يصبح رهائن على الأرض الآسيوية، وذلك يجعلهم بالنسبة لنا بوليصة تأمين.

ذلك سوف يجعلهم يحاذرون ويحرصون على حصر ميدان القتال، وليس على توسيعه كما يتصور البعض، لأنهم إذا أقدموا على تصرف من شأنه أن يؤدى إلى تدخل الصين، فإنهم يعرفون أننا نستطيع أن نقذف إلى الميدان بملايين بعد ملايين من البشر، وسوف تستطيع ملايينا أن تبتلع آلافهم، أو حتى مئات الآلاف منهم وهم يفهمون ذلك.

تورطهم بالتصعيد مفيد لنا فاتركوهم، لأن هذا التورط يعطينا أكبر قدر من الأمان، ثم إنه يعطينا الفرصة للتأثير فى المجتمع الأمريكى نفسه، لأنه لا شىء يقلق أى مجتمع من المجتمعات مثل أن يرى نفسه ينزف، وينزف كل يوم على أرض بعيدة!».

* وكانت النقطة الثالثة التى ركز عليها شواين لاى هى مناقشاته وقتها مع جمال عبد الناصر، حول رغبة الاتحاد السوفيتى فى الاشتراك فى المؤتمر الآسيوى الأفريقى، على أساس أن الاتحاد السوفيتى يعتبر نفسه قوة آسيوية بحكم امتداده إلى الشرق فى آسيا.

وأتذكر يومها قول شواين لاى:

- «منذ متى يعتبر الاتحاد السوفيتى نفسه قوة آسيوية؟

إننى أفهم مشاعر الرئيس عبد الناصر.

إن الروس يلحون عليه، ثم إنه قد يرى فى انضمام الاتحاد السوفيتى إلى العالم الآسيوى الأفريقى - قوة مضافة.

ولكنى أختلف.

إن قلب روسيا فى أوربا وليس فى آسيا.

ثم إن روسيا تنتمى إلى العالم المتقدم، وهى جزء من «المدينة العالمية»، وأما نحن فإننا «الريف العالمى»، وهناك تناقض لاشك فيه بين «المدينة العالمية» التى ينتمى إليها المتقدمون، وبين «الريف العالمى» الذى ننتمى نحن إليه.

أمانيهم غير أمانينا، ومشاكلهم تختلف عن مشاكلنا.

أكاد أرى فى إلحاحهم أيضًا أنهم يريدون ان يحجبوا دور الصين، وهذا منطق القوى الكبرى.

هم يتصورون أن الصين فى وسط القوى الآسيوية الأفريقية ربما يكون لها دور خاص، ويتصورون أنهم إذا حضروا فإنهم سوف يحجبون دور الصين.

وهذا منطق سياسة القوة، ونحن لا نعتمده، ونعتبر الصين على قدم المساواة مع أى دولة آسيوية وأفريقية، لأن أمانينا ومشاكلنا واحدة.

أخشى أن كل ما سوف يحققونه هو عرقلة تقدم الحركة الآسيوية الأفريقية».

كان ذلك سنة ١٩٦٥.

ومن يومها:

* ذهب الرئيس الأمريكى إلى الصين، حاملاً معه اعترافه بوجودها وحقيقتها وقوتها.

* واضطرت الولايات المتحدة إلى الانسحاب من تورطها العسكرى فى فيتنام أمام حرب، ربما لم تنهزم فيها عسكريًا، ولكنها لم تستطع قطعًا أن تنتصر.

* ثم إن الحركة الآسيوية الأفريقية نامت تمامًا من وقتها.

وإذن، كان شواين لاى على حق... أنصفه التاريخ تمامًا عندما أكد صدق رؤيته.

وهذه المرة كنت أتساءل: «ماذا فعلت به الأيام؟».

ماذا فعلت به الأزمة - الثورة الثقافية كما قلت - وقد كان فى خضمها يحاول وسط البركان الهادر أن يحافظ على كل ما يمكن الحفاظ عليه:

* صورة الصين أمام العالم الخارجي.

* إنتاج الصين حتى لا يتأثر بعد حد معين.

* عناصر فى الصين لا يمكن تعويضها مهما كان الأمر، وفى مقدمة هذه العناصر علماء الصواريخ وعلماء الذرة وغيرهما من فروع التكنولوجيا المتقدمة، وأعتقد أنه حافظ عليهم جميعًا من حمم البركان الذى فجرته الثورة الثقافية، وقلب الصين كلها رأسًا على عقب.

ثم ماذا فعلت به الانتصارات:

* ذهاب نيكسون إليه، وقبل ذلك دخول الصين إلى مكانها الطبيعى فى الأمم المتحدة وإلى احتلال مقعدها الدائم فى مجلس الأمن، ووقوف دول العالم طابورًا ممتدًا فى انتظار دورها لتقدم اعترافها بوجود وحقيقة وقوة الصين.

* انتهاء الحرب الفيتنامية بالطريقة التى كان يتصورها منذ وقت مبكر، وحين كان كثيرون من زعماء آسيا يعتقدون أن الولايات المتحدة لن تخرج من الهند الصينية إلا وقد حققت أغراضها كاملة، لأنها كقوة أعظم فى هذا العالم، لا تملك ترف التراجع.

* ثم ظل الصين الذى يعود إلى آسيا ويصل إلى أفريقيا.

* * *

ولعلى أعترف أننى قلت لنفسى:

«إنه مهما كانت الحالة التى سأجده عليها، فإن شواين لاى قد أدى دوره، ويكفيه أنه آخر الباقين من جيل العمالقة.

إن «ماوتسى تونج» ارتفع إلى مكانة أخرى، وأصبح ضوءًا يشع من بعيد.

وأما هو «شواين لاى» فإنه ما زال وسط الساحة.

ولقد شهد العالم منذ الحرب العالمية الثانية جيلين من العمالقة:

* جيل الذين قادوا الحرب العالمية إلى النصر ضد الفاشية: روزفلت، وتشرشل، وستالين، وماوتسى تونج، وشواين لاى، وديجول.

* ثم جيل ظهر بعد ذلك الجيل الأول، وكان أبرز عمالقته: عبد الناصر، ونهرو، وخروشوف، وتيتو، وأيزنهاور، وكنيدى.

ولقد ذهب الكل... ومن لم يذهب ابتعد، وبقى شواين لاى وسط الصراعات والأزمات، والمفاوضات والتسويات، يشارك فى تشكيل مختلف، وصفه هو فى حديثنا بعد ذلك بقوله:

- تسألنى كيف أرى المتغيرات فى الدنيا؟

انقسامات جديدة ... تحالفات جديدة ... فوضى فى كل مكان.

هذا هو رأيى!».

* * *

ولم يكن وصول «شواين لاى» إلى مصاف الجيل الأول من العمالقة وصحبته بعد ذلك للجيل الثانى من العمالقة، ثم بقاؤه وحيدًا بعد الجيلين، مصادفة أو مغامرة.

لقد جاء لأسرة أرستقراطية، ولا تزال ملامح وجهه وحركات يديه تشير إلى عراقة أصل لم يطغ عليها تاريخه الثورى الحافل.

بدأ يدرس فى جو الفوران والتراجع الذى صاحب الثورة على أسرة مانشو سنة ١٩١١، وأصبح متمردًا، ودخل السجن لستة شهور وهو بعد طالب فى الجامعة، ثم سافر إلى باريس، فإذا هو لا يستكمل دراسته، وإنما يواصل تمرده، وإذا هو يشارك فى إنشاء فرع للحزب الشيوعى الصينى فى أوربا، ويتصل بماوتسى تونج، وكان ماوتسى تونج حزينًا وقتها، لأن الحلفاء الذين كانوا يريدون مشاركة الصين معهم فى الحرب. كانوا يريدون أيادى عاملة فى خدمة مجهودهم الحربى، ولا يريدون جنودًا للقتال، لأن الصينى فى رأيهم لا يصلح للحرب.

وكان ماوتسى تونج يبعث إلى شواين لاى يقول:

- «إننا نبعث بكتائب من الصينيين، ولكننا لا نريدهم أن يتحولوا فى أوربا إلى خدم أو طهاة، وإنما نريدهم كتائب قتال».

وعاد شواين لاى إلى الصين يشترك فى انتفاضات بعد انتفاضات، نشأت كلها من خيبة أمل الصين فى الحصول على حقها الشرعى فى مؤتمر فرساى للصلح.

وأفلت «شواين لاى» مرات من الموت بأعجوبة.

وتزوج، وشبح الموت يطارده، برفيقة كفاح هى «تنج ينج تشاو».

وفى فترة من الفترات أصبح رئيسًا للقسم السياسى فى كلية «وامبا» العسكرية التى كان يديرها فى ذلك الوقت «شيانج كاى شيك».

واختلف معه، وحارب ضده، وكان يقود مجموعة جيش بأكمله.

ثم كان رفيقًا لماوتسى تونج فى الزحف الطويل إلى كهوف ينان، وبرز فى ذلك الوقت، باعتباره الوجه الدولى البارز للثورة الصينية.

وحينما تمرد الماريشال «شانج هو سين ليانج» على سياسة «شيانج كاى شيك»، التى أراد بها أن يصفى الثورة الصينية أولاً، ثم يستدير إلى مقاومة الغزو اليابانى للصين ـ ثانيًا ـ فإن الماريشال ليانج قبض على «شيانج كاى شيك»، وطلب أن يأتى «شواين لاى» لمفاوضته وإقناعه بإقامة جبهة وطنية صينية تتجمع لمواجهة الغزو اليابانى أولاً، ثم تصفى خلافاتها الداخلية فيما بعد.

ونجح «شواين لاى»، وعاد مرة أخرى إلى قيادة مجموعة جيش ضد اليابان، وفى تلك الفترة، استطاع «شواين لاى» أن يكسب للثورة الصينية صداقات لها قيمتها حتى فى الولايات المتحدة نفسها... أقنع جورج مارشال رئيس أركان حرب الجيش الأمريكى ووزير الخارجية الأمريكية فيما بعد... وأقنع أساتذة كبارًا مثل «أوين لاتيمور»... وأقنع صحفيين لهم شأن مثل «إدجارسنو».

ومن يومها ظل وجه الثورة الصينية البارز أمام العالم الخارجى.

وتولى رئاسة الوزراء بعد انتصار الثورة، وظل على مقعده من يومها، من

مؤتمر جنيف إلى مؤتمر باندونج، وحتى ذهب ريتشارد نيكسون بنفسه يدق باب الصين، بعد أكثر من عشرين ساعة من مفاوضات متصلة قضاها شواين لاى مع هنرى كيسنجر مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى.

* * *

وأعترف أننى تجاوزت فى طلباتى هذه المرة من شواين لاى.

طلبت أن أقابله، وقال لى «بنج هوا» وهو مدير الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية الصينية:

- «إنه سوف يقابلك».

وقلت:

- «إننى أريد وقتًا كافيًا معه».

وعاد «بنج هوا» يقول لى:

- «إنه سوف يعطيك كل الوقت الذى تطلبه».

وقلت:

- «لدى طلب آخر... أن معى فى هذه الرحلة إلى الشرق الأقصى مجموعة من رفاقى، وأريد إذنه لكى يحضروا المقابلة معى، فمن بين أهدافى فى هذه الرحلة أن أتيح الفرصة لشباب جديد يرى بنفسه ويتابع ليكون مستعدًا لأداء دوره فى أى وقت».

وعاد «بنج هوا» يقول لى:

- «إنه سوف يقابل المجموعة كلها، ما دام ذلك هو طلبك».

* * *

وجاء الموعد فى الساعة التاسعة مساء، أى فى نهاية يوم عمل حافل، والرجل ـ حتى لا ننسى ـ فى الرابعة والسبعين من عمره، وعليه مسئولية ثمانمائة مليون إنسان.

وهو لا ينسى هذه الحقيقة فى لحظة من اللحظات، وإنما يبقى الرقم الهائل معه طول وقته، وحتى حين يناقشه أحد فى استهلاك الفرد من اللحم فى الصين فإنه يقول:

ـ فى أى بلد من بلدان العالم فإن استهلاك الفرد من أى مادة من المواد مسألة محتملة، وأما فى الصين فعلى الذين يتكلمون أن يحسبوا بالأرقام، لأن الأرقام لها فى الصين دلالة خاصة، إذا زاد استهلاك الفرد من اللحم كيلو جرامًا واحدًا فى السنة فمعنى ذلك بالنسبة لنا ٨٠٠ مليون كيلو جرام!!».

وكان الموعد فى صالون ملحق بمكتبه فى قصر الشعب، الذى يواجه بوابة السلام الإلهى الشهيرة فى قلب بكين.

والمبنى جديد، أنيق، والغريب أن الذين بنوه بأيديهم هم موظفو رئاسة الوزراء ووزارة الخارجية، والأغرب أن شواين لاى شارك بيديه فى عملية البناء لكى يفرغ المبنى فى الموعد المقرر له وهو تسعة شهور.

وكنت أخلع معطفى بعد أن دخلت المبنى الدافىء، من برد بكين ليلتها، وكانت درجة الحرارة فيه ست عشرة درجة تحت الصفر، حينما لمحت شواين لاى بحلته الرمادية التقليدية يخرج من غرفة الصالون إلى البهو الخارجى لاستقبالنا وبجانبه مترجمته الخاصة «شين يويون».

وفوجئت به تمامًا يسألنى عن بعض شئونى الخاصة بالتفصيل.

وقلت ونحن بعد فى الردهة:

ـ «هل أستطيع أن أسألك كيف تجد الوقت لتتذكر هذا كله؟» وابتسم شواين لاى وقال:

ـ «سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد، ولكن عليك الآن أن تعرفنى برفاقك، وأن نقف معًا لصورة تذكارية».

* * *

بعدها مشينا إلى باب الصالون الملحق بمكتبه.

وكان ما يزال يتحدث...

سألنى:

ـ «هل يعقل أن يذهب جمال عبد الناصر من أيديكم وهو بعد دون الثانية والخمسين... إنكم لم تحسنوا المحافظة عليه... وتركتم الضغوط تعتصره».

وقلت:

ـ «هذا قضاء الله وقدره».

ولم يبد عليه أنه اقتنع، ولكنه واصل اسئلته على أى حال.

قال:

ـ «كيف حال أسرته وأولاده؟».

قلت:

ـ «بخير».

قال:

ـ «لقد حزنت لأن بعض الذين عملوا معه لم يستطيعوا أن يتعلموا منه».

قلت:

ـ «هذه هى الطبيعة البشرية وحكمها جائز على كل الناس وفى كل مكان».

وقال:

ـ «هذه أول زيارة لك فى الصين... إنك ذهبت إلى الاتحاد السوفيتى خمس عشرة مرة، ونحن نحصيها عليك».

وقلت:

- «إنك تدهشنى مرة أخرى... إننى شخصيًا لا أتذكر كم عدد زياراتى للاتحاد السوفيتى، ولم يخطر لى إحصاؤها».

وقال:

- «نحن أحصيناها، وعليك أن تعوض هذا الخلل فى الموازين».

كان الصالون الملحق بمكتبه هادئًا، لا حرس ولا سكرتارية، ولا أوراق، ولا تليفونات.

وكانت الجدران أنيقة، فى ألوان هادئة، عليها لوحات من أشجار وزهور كأنها قصائد شعر صينى رقيق تجمدت فى ألوان.

وكانت المقاعد مصفوفة فى نصف دائرة، وبين كل مقعدين منها مائدة صغيرة.

وأقبلت ثلاث فتيات بالفوط الساخنة التقليدية فى الصين.

وأخذ كل منا فوطة يمسح بها يديه.

وكنت أراقب شواين لاى.

لم يتغير فيه شىء: قوامه المنتصب... عيناه تلمعان فى ذكاء... يداه الرقيقتان تتحركان بالفوطة الساخنة فى أناقة... شعره مسه شيب خفيف.

وجاءت فناجين الشاى المغطاة... نوع الشاى الذى يفضله وهو النوع المسمى باسم «بئر التنين».

* * *

وعاد شواين لاى يتكلم:

- «تذكر أيام باندونج.

من بقى من الذين كانوا هناك؟».

وراح يستعرض بعض الأسماء ويقول:

- «عبد الناصر ونهرو ذهبا... آخرون اختفوا من على المسرح... هناك أيضًا من أخطأوا... هل تتذكر «أونو» - رئيس وزراء بورما وقتها - من سوء الحظ أنه يتعاون الآن مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ويعيش فى تايلاند ويتآمر على نظام «نى وين».

تغيرت الدنيا كثيرًا من أيام باندونج».

وعاد يقول:

- «فهمت أن لديك أشياء كثيرة تريد أن تسألنى فيها... سوف أتحدث معك، وسوف أترك لك تقدير ما ينبغى - أو ما لا ينبغى - نشره».

* * *

وبدأنا نتحدث، وكانت الساعة قد أصبحت التاسعة والربع.

وعندما وصلنا إلى الساعة الحادية عشرة والربع، قلت له:

- «لقد مضت علينا الآن ساعتان... وأنا أعرف أعباءك... فهل ترى أن نكتفى بهذا القدر وأتركك تستريح؟».

ونظر إلى ساعته، ثم نظر إلىّ وسألنى:

- «هل تعبت؟».

قلت:

- «أنا لم أتعب، ولكنى أخشى أن أثقل عليك».

قال:

- «ولا أنا تعبت... دعنا نستمر».

وامتد الحديث إلى الساعة الواحدة إلا ربعًا من الصباح.

الشرق أحمـــر

مُـناقشة ممتدة مَـع شـُواين لاى

أظننى استطعت أن أستنتج الموعد المحدد لمقابلتى مع «شواين لاى» رئيس وزراء الصين، من أول نظرة على برنامج زيارتى لبكين.

كان هذا اللقاء مع هذا الرجل الباقى من جيل العمالقة الأول، بين ما طلبت قبل أن أحمل حقائبى من القاهرة إلى شنغهاى، وكنت قد طلبت أيضًا أن تتاح لى الفرصة لكى أرى وأسمع كيف يعمل الحزب الصينى ويفكر، وكيف تعمل الحكومة الصينية وتفكر، وكيف يعمل الجيش الصينى ويفكر، وطلبت أن أقابل أساتذة فى الجامعات وصحفيين وكتابًا، وطلبت أن أزور معاهد حزبية وسياسية، وطلبت أن أشهد عمليات جراحية تجرى بطريقة الوخز بالإبر، وطلبت وطلبت وطلبت أشياء كثيرة، من دخول المدينة المحرمة فى بكين إلى النزول فى شبكة الخنادق المحفورة تحت العاصمة استعدادًا للحرب.

وأعترف أن جميع طلباتى أجيبت، ووجدتها كلها مكدسة على برنامج الزيارة، تملأ وقتى كله من السادسة صباحًا إلى منتصف الليل ... كل يوم!

طلب واحد لم أجده محددًا على البرنامج، وهو موعدى مع «شواين لاى».

وعندما دققت فى البرنامج وأعدت قراءته، ظننت أننى استنتجت الموعد المحدد، مع أنه لم يكن مدرجًا على صفحاته...

كانت هناك أمسية متروكة بغير تحديد. ولأننى حاولت أن أفهم أسلوب الرموز الصينية، فلقد طويت البرنامج ووضعته فى جيبى ولم أقل شيئًا..

ولم يضع استنتاجى، ولم يصطدم بالخطأ، فعند ظهر اليوم الذى كان مساؤه متروكًا بغير تحديد على البرنامج، جاءنى «شيانج شنج تسونج» نائب مدير قسم الصحافة الأجنبية بوزارة الخارجية يقول لى فى أدب صينى جم:

ـ هل أستطيع أن أطلب إليك أن تبقى بعد ظهر اليوم فى الفندق ولا تغادره... هناك رسالة هامة سوف تبلغ إليك بعد الظهر».

واحترمت أسلوب الرموز الصينية وقلت إننى سوف ألزم حجرتى فى فندق الشعوب، بشارع السلام السماوى فى بكين ولن أبرحها حتى أتلقى الرسالة.

وفى الساعة السادسة مساء دق التليفون فى غرفتى، وكان «شيانج شنج تسونج» هو الذى يتكلم ليقول:

ـ أردت أن أطمئن فقط إلى أنك فى غرفتك حتى نستطيع نقل الرسالة الهامة إليك فور تلقيها.. إنها لم تصل إلينا بعد ... ولكنها منتظرة فى أى وقت من الآن»...

وقلت:

ـ إننى فى غرفتى أنتظر».

ومرت ساعة ونصف الساعة، ودق التليفون مرة أخرى، وكان «شيانج شنج تسونج» هو الذى يتكلم مرة أخرى ليقول إنه قادم إلى غرفتى، وجاء «شيانج» وإذا هو يقول:

ـ إن لديك موعدًا هامًا هذه الليلة، ولعلك تكون مستعدًا... إننا سوف نتحرك من هنا بعد ساعة... فهل هذا يوافقك؟».

وقلت متخابثًا ـ أعترف بذلك ـ:

ـ مع من موعدى؟... إنك لم تخبرنى على وجه التحديد».

وبدا لى أننى خرجت على أسلوب الرموز الصينية، لأن جفون شيانج اختلجت بسرعة، ولكنه تمالك نفسه ليقول:

ـ إننى لم أخطر بذلك رسميًا... ولست مخولاً بعد أن أقول شيئًا محددًا»!

ولم تكن هناك فائدة فى متابعة الضغط...

وتركنى «شيانج» فى غرفتى ليعود بعد ساعة ويقول:

ـ سوف نتحرك من هنا فى ظرف ربع الساعة!»...

وقلت له متخابثًا مرة أخرى:

ـ إلى أين؟»

وفى هذه المرة كان شيانج مستعدًا... لم تختلج جفونه، وإنما قال بابتسامة صينية غامضة:

ـ سوف أقول لك ونحن فى السيارة».

وعندما ركبنا السيارة، ومضت بنا وسط أضواء شارع السلام السماوى فى اتجاه بوابة السلام السماوى وقصر الشعب الذى يواجهها، قال لى شيانج همسًا:

ـ موعدك مع الرئيس شواين لاى!».

* * *

لقد بدأ لقائى مع الرئيس شواين لاى ـ كما قلت فى مقال مسبق ـ فى الساعة التاسعة مساء.

وفى الساعة الحادية عشرة، أى بعد ساعتين، خشيت أن أكون أثقلت عليه، بعد يوم عمل حافل، وفى سن الرابعة والسبعين، وبمسئوليات تحمل على نفسها أعباء ثمانمائة مليون إنسان، وفى وسط ساحة دولية تقف فيها الصين قوة ضخمة وسط قوى ضخمة، وقلت له:

ـ هل ترى أن نكتفى بهذا القدر من الحديث وأتركك تستريح؟» ونظر إلى ساعته ثم نظر إلىّ وسألنى:

ـ هل تعبت؟».

قلت:

ـ أنا لم أتعب، ولكنى أخشى أن أثقل عليك؟».

قـال:

ـ ولا أنا تعبت... دعنا نستمر».

وامتد الحديث بعد ذلك إلى الساعة الواحدة إلا ربعًا من الصباح، أى أنه امتد بطول أربع ساعات إلا ربع الساعة.

* * *

كان الحديث حوارًا متصلاً، شمل قضايا قريبة وبعيدة، وطاف بغير قيود أو حدود على أبرز ظواهر العالم والعصر، وتعرض لشخصيات ذهبت وشخصيات مازالت على المسرح الدولى.

وأريد أن أضع بعض الملاحظات قبل أن أترك المجال للحوار نفسه وسياقه:

١ ـ إن الرئيس «شواين لاى» ترك لى ـ مشكورًا ـ تقدير ما يجوز أو لا يجوز نشره مما قال، وقد حاولت أن أفعل ذلك، وأتمنى ألا تكون أخطائى فيه فادحة، وإذا حدث ذلك فاللوم علىّ وحدى.

٢ ـ إنه كانت هناك قضايا خلافية لم نستطع خلال الحوار أن نتفق فيها على رأى واحد، ولكنى بغير إلحاح شرحت وجهة نظرى له ثم تركت له وجهة نظره تظهر فى مكانها من الحديث وبحجمها فيه لأن هذا حقه.

٣ ـ إن الرئيس شواين لاى كان حادًا فى كل ما يتعلق بالاتحاد السوفيتى، وهذه مسألة تتعلق برؤية الصين للصراع الدولى الواسع ولدور النزاع الصينى ـ السوفيتى فى هذا الصراع، ومن الواضح أن هذا النزاع عنصر أساسى فى تحريك سياسة الصين الخارجية.

وأنتقل بعد ذلك إلى محضر شبه كامل لمجرى الحديث.

كانت الدقائق العشر الأولى من الحديث مجاملات وذكريات، وكان الحديث يدور باللغة الإنجليزية، وتتولى ترجمته «شين يو يون» المترجمة الخاصة «لشواين لاى»، وكانت تجلس على يمينه، بينما كنت أجلس على يساره، وكان هو يتابع أسئلتى

بالإنجليزية ـ وهو يجيدها ـ ويتابع ترجمتها إلى الصينية، ثم يتابع ترجمة إجاباته إلىّ بالإنجليزية، وتدخل أكثر من مرة لتصحيح الترجمة برفق يلفت نظر «شين يو يون» إلى تعبير أكثر دقة، وأتهمها مرة وهو يبتسم، بأنها تغالب النعاس بصعوبة، وكانت «شين يو يون» تدافع عن يقظتها بغير خوف أو رهبة، وتصحح ترجمتها للأسئلة والإجابات وفق ملاحظات شواين لاى، وكانت كلها ـ للحق ـ بالغة الدقة والتحديد.

ووصلنا إلى صلب الحوار، وقد مضى على النحو التالى:

ـ سؤال: سيادة الرئيس، أريد أن أبدأ بسؤال عن الأزمة التى تعانيها حركة التحرر الوطنى...

أعتقد أنها تواجه أزمة بالفعل، لأن هناك متغيرات كثيرة فى العالم لم تؤقلم نفسها بعد عليها، ويخطر ببالى ـ وربما ببال غيرى كثيرين ـ أن استحكام النزاع الصينى السوفيتى يؤثر تأثيرًا سلبيًا فى حركة التحرر الوطنى، لأنه يحرمها من وحدة أقوى أصدقائها وهو الجهة المعادية للاستعمار وتماسكها.

إننا فى أزمة الشرق الأوسط نستطيع أن نلمح أثر ذلك فى الفارق بين ما واجهناه سنة ١٩٥٦ وما واجهناه سنة ١٩٦٧.

سنة ١٩٥٦، كانت هناك وحدة فى الجبهة المعادية للاستعمار، وكانت هذه الجبهة قوة مساندة لنا، ولقد أحسسنا سنة ١٩٦٧، أن هذه الجبهة لم تؤد دورها بالفاعلية المطلوبة، ويرى بعضنا أن انكسار هذه الجبهة بالنزاع الصينى السوفيتى ربما كان من ضمن الأسباب»...

* شواين لاى: هناك نقطة يجب ألا تغيب عنا، وهى أن نضال أى شعب، تحكمه بالدرجة الأولى الاستراتيجية التى يتبعها هذا الشعب نفسه لتحقيق أهداف نضاله، وكل ما عدا ذلك من الخارج يجىء كعوامل مساعدة.

فى سنة ١٩٥٦، كانت تجربتكم مجيدة، وكانت استراتيجيتكم فى رأيى ناجحة.

فى ذلك الوقت، فإن إيدن رئيس وزراء بريطانيا، وجى موليه هذا الفرنسى الذى كان يدعى الاشتراكية ارتكبا خطأ كبيرًا.

إن إيدن كان سياسيًا قديمًا، وقد أدهشنى أنه وقع فى الخطأ الذى وقع فيه، ولم يستطع إطلاقًا أن يقدر موقفه، ولا أن يجرى حساباته.

لقد أخفى كل شىء عن أمريكا، وكان يجب أن يعلم أن أمريكا سوف تعارضه.

والذى حدث أن خروشوف استغل هذا الوضع.

كان خروشوف قد عرف أن أمريكا لا توافق على الغزو، وكان يعرف أن الإنجليز والفرنسيين سوف يضطرون إلى الانسحاب، وهكذا فإن خروشوف أطلق - بالإنذار السوفيتى - ما يمكن أن نسميه - بحق - بندقية فارغة وتظاهر بأنه يساعدكم.

«سؤال: هل أستطيع أن أسألك كيف كان يمكن لخروشوف أن يعرف أن الإنجليز والفرنسيين سوف يضطرون إلى الانسحاب؟».

* شواين لاى: عرف ذلك من اتصالاتهم مع واشنطن... إن خروشوف بنفسه اعترف بذلك للرئيس ماوتسى تونج عندما التقى به فى موسكو سنة ١٩٥٧، بمناسبة مؤتمر الأحزاب الشيوعية العالمية الذى عقد فى العيد الأربعين للثورة السوفيتية.

أنت تعرف خروشوف شخصيًا.

وكلنا يعرف ماذا كان يمكن لخروشوف أن يقوله بعد نصف دستة من الكئوس؟

فى موسكو فى ذلك الوقت - سنة ١٩٥٧ - كان خروشوف هو الذى اعترف بذلك بنفسه وللرئيس ماو شخصيًا... قال له إننا لم نغامر فى السويس، وإنما كنا نعرف أن الولايات المتحدة سوف ترغم بريطانيا وفرنسا على الانسحاب.

ولكن ما هو أهم من ذلك كله هو أن عبد الناصر رسم استراتيجية سليمة فى السويس، واعتمد أولاً وأخيرًا على شعبه، وأنا زرت بور سعيد بنفسى وشاهدت المتحف التذكارى فى المدينة، وعرفت كيف أن الشعب المسلح هو الذى قام بالدور الرئيسى فى إحباط الغزو.

لو لم يكن الشعب قد وقف بقيادة عبد الناصر فى بور سعيد، فإن الخلاف بين واشنطن وبين لندن وباريس كان يفقد تأثيره.. وحتى بندقية خروشوف الفارغة كانت تفقد فرقعتها.

إن الاتحاد السوفيتى لم يستطع أن يعرف موقف أمريكا بالضبط سنة ١٩٦٧.

وأمريكا استفادت من ضعف الاتحاد السوفيتى، ولذلك كانت جرأتها أشد سنة ١٩٦٧، وكان ذلك شيئًا مؤسفًا...

للحق، فإن خروشوف كان يتكلم كثيرًا وبصوت عال.

وأما بريجينيف فإنه أقل جرأة وأكثر ضعفًا، ومع الأسف فإنه بدا أمام أمريكا وكأنه مثل الفأر.

(يتوقف الرئيس شواين لاى يستمع إلى الترجمة، ثم لا تعجبه ترجمة «شين يو يون» لما قاله ويتدخل بنفسه بالحديث بالإنجليزية قائلاً:

- أنا لم أقل مثل الفأر فقط...

أنا قلت إنه وقف مثل الفأر أمام القط).

واستطرد شواين لاى يقول:

- إن كثيرين تعلموا من التجربة التى دفعتم أنتم ثمنها سنة ١٩٦٧.

إن التجارب التى يمر بها قادة وشعوب، يستفيد منها آخرون: قادة وشعوبًا.

«نوردوم سيهانوك» مثلاً كان أكثر حذرًا بعد الدرس الذى تعلمه من تجربتكم سنة ١٩٦٧.

إن أمريكا قامت بتدبير انقلاب ضد «سيهانوك» فى كمبوديا... لاشك أن أمريكا دبرت هذا الانقلاب بواسطة مخابراتها المركزية، ولكنها رفضت أن تعترف بما دبرت.

إن «سيهانوك» كان فى موسكو وعرف الروس أن انقلابًا وقع فى كمبوديا،

ولكنهم لم يبلغوه بما وقع... أبلغوه فقط فى المطار وعند الطائرة... كانت أخبار الانقلاب ضده مذاعة فى العالم كله، ولكنهم لم يبلغوه فى وقتها، وربما قطعوا عنه الخطوط التليفونية لكى لا يقعوا فى حرج.

إن «سيهانوك» جاءنا فى بكين، ووضعنا تحت تصرفه كل إذاعتنا وكل صحافتنا ليذيع منها بياناته وأفكاره، وليوجه تعليماته إلى المقاتلين معه.

لقد أتحنا له الفرصة التى لم تتحها بريطانيا للجنرال ديجول فى الحرب العالمية الثانية.

كان الإنجليز يحبسون ديجول تقريبًا ويمنعونه من مخاطبة الفرنسيين.

نحن لم نعامل سيهانوك بهذه الطريقة، ليس لأنه صديق قديم لنا من أيام باندونج، ولكن لأنه رئيس دولة صغيرة حاول أن يعبر عن أمانى شعبه.

ولكن أمريكا خانته، وفرنسا لم تساعده، وروسيا رفضت أن تعترف به، ولهم الآن سفارة فى بنوم بنه، حيث حكومة أقامها انقلاب تم بمساعدة وتدبير المخابرات المركزية الأمريكية.

إن عبد الناصر أعطى اعترافه لسيهانوك برغم الأزمة التى كان فيها سنة ١٩٧٠...

كانت مصر من أوائل الدول التى اعترفت بسيهانوك، وأصبح سفيرهم فى ذلك الوقت فى القاهرة وهو «سارين شاك»، وزيرًا لخارجية كمبوديا الحرة مع سيهانوك.

«سؤال: سيادة الرئيس... معذرة إذا عدت إلى الإلحاح على سؤالى الأصلى عن الأزمة التى تعانيها حركة التحرر الوطنى...

بعد باندونج والسويس، كان هناك ازدهار فى حركة التحرر الوطنى.

ثم وقعت متغيرات كثيرة، يبدو لى أننا لم نستطع تحليلها بالسرعة الواجبة، ولا بالعمق الكافى.

ولقد كانت قمة الازدهار هى سنة ١٩٦٤، حينما شهدت القاهرة مؤتمرًا عربيًا على مستوى القمة فى يناير، ثم مؤتمرًا أفريقيًا على مستوى القمة فى يوليو، ثم مؤتمرًا عربيًا على مستوى القمة فى سبتمبر (عقد بالإسكندرية)، ثم مؤتمرًا لدول عدم الانحياز على مستوى القمة فى أكتوبر.

منذ ذلك الوقت تغيرت أشياء كثيرة.

انقضت ضربات الاستعمار والثورة المضادة واحدة بعد الأخرى، وسقطت قلاع أفريقيا قلعة بعد قلعة.

وظل التراجع معنا حتى وقعت مأساة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، لقد كانت أكثر من هزيمة لمصر... كانت هزيمة لحركة الثورة الوطنية كلها».

* شواين لاى: لقد تدخلت عوامل كثيرة...

هل تتذكر الأسباب التى أدت إلى عرقلة المؤتمر الأفريقى - الآسيوى الثانى، وكان مقررًا عقده فى الجزائر سنة ١٩٦٥؟

فى ذلك الوقت جئت عندكم فى القاهرة، وقضيت أكثر من عشرة أيام مع عبدالناصر، فى انتظار تذليل العقبات أمام المؤتمر... ولكن المؤتمر لم ينعقد.

لقد كنت أتابع جو القاهرة سنة ١٩٦٤، والفوران الذى كانت تشهده.

أتذكر أنكم قبضتم على «تشومبى» جلاد لومومبا فى الكونجو، بينما كان كل رؤساء الدول الأفريقية مجتمعين فى القاهرة، وقد استمر المؤتمر فى انعقاده وأصدر قراراته، رغم أن تشومبى رئيس وزراء الكونجو وقتها، وكان قادمًا لحضور المؤتمر، لم يدخل قاعته، وإنما بعث به عبد الناصر إلى السجن؟

(وقلت هنا:)

- إن تشومبى لم يوضع فى السجن، وإنما احتجز فى بيت ضيافة، وقد ذهبت إلى هناك ورأيته وتحدثت معه بنفسى، وكان فى حالة سيئة من خشيته على حياته، وخوفه من أن يحدث له شىء».

وقال شواين لاى:

- لابد أن ذلك كان منظرًا مسليًا... الصحفيون يرون أحيانًا مشاهد مثيرة لا يستطيع غيرهم أن يراها».

ثم استطرد شواين لاى:

- إن تشومبى على أى حال انتهى نهاية سيئة... اعتقل بعد ذلك فى الجزائر ومات فى السجن».

وعاد الرئيس شواين لاى إلى سياق الحديث الأصلى بعد هذا الاستطراد):

* شواين لاى - ما تقوله عن حركة التحرر الوطنى صحيح، علينا أن نذكر أن كل حركة إنسانية تشهد أوقات صعود كما تشهد أوقات هبوط... ربما تغيرت بعض الظروف كما تقول ولم تستطيعوا متابعتها ولكنى ألمح فى الفترة الأخيرة أن حركة التحرر الوطنى بدأت تنشط من جديد خصوصًا فى أفريقيا. إن مصر تستطيع أن تقوم بدور بارز فى حركة التحرر الوطنى، إنكم فعلتم ذلك دائمًا، وتستطيعون الاستمرار فيه الآن... دوركم هو دور القيادة ولابد أن تحملوا مسئولياتكم بكل ثقة.

واستطرد الرئيس شواين لاى مرة أخرى إلى نقطة فرعية قال لى:

- إن موبوتو رئيس الكونجو - زائير - موجود فى بكين الآن وقد فهمت أنك قابلته بالأمس».

وقلت:

- ذلك صحيح... إن الرئيس موبوتو عرف أننى فى بكين ودعانى إلى سهرة متأخرة معه كصحفى أفريقى»..

وبدا كأن شواين لاى قد تذكر شيئًا كان فى باله... وقال:

- لقد نسيت أن أسأل موبوتو عندما قابلته عن سبب احتفاظه بمستشار عسكرى إسرائيلى معه؟»..

وقلت لشواين لاى:

- إننى وجهت نفس هذا السؤال لموبوتو أمس».

وقال شواين لاى:

- كيف أجابك على سؤالك؟».

قلت:

- لقد روى لى قصته عندما كان قائدًا للجيش ثم وقع انقلاب تولى فيه السلطة، بعد تدهور الأحوال العامة فى الكونجو، وكانت بعض الدول الأفريقية وبينها مصر تؤيد خصمه جيزنجا خلفًا للومومبا وحينئذ. هكذا قال لى موبوتو - «لم يكن أمامى إلا أن أستعين بالإسرائيليين وأخذت نواة لواء مظلات وذهبنا للتدريب فى إسرائيل، ولقد عادوا جميعًا إلى الكونجو وهم يحملون معهم ذكرياتهم من إسرائيل وهكذا كانت البداية».

وقال شواين لاى:

- غريبة ... نحن أيضًا كنا نؤيد جيزنجا، وربما من ذلك ظل موبوتو حتى العام الماضى لا يعترف بالصين الشعبية وإنما يعترف «بشيانج كاى شيك» وما يسمونه بالصين الوطنية فى تايوان.

لكن موبوتو قطع علاقاته بشيانج كاى شيك فى العام الماضى وقدم اعترافه بالصين الشعبية وتحسنت علاقاته معنا حتى جاء هذه المرة لزيارتنا... لابد أن نشجع هذه الاتجاهات».

واستطرد شواين لاى:

- إننى سوف أقابل موبوتو مرة أخرى غدًا قبل سفره من بكين وسوف أكلمه فى موضوع صلته بإسرائيل».

وقلت:

- إن ذلك يمكن أن يكون مفيدًا».

واستطرد شواين لاى:

-إن إسرائيل فيما أرى تواجه موقفًا صعبًا فى أفريقيا... إن عيدى أمين فى أوغندة بدأ خطوة موفقة بطرد الإسرائيليين من بلاده».

واستدرك شواين لاى يقول:

-ما هى الدول الأفريقية التى تستعين بخبراء عسكريين من إسرائيل؟».

ورحنا نعد هذه الدول معًا.

وقال شواين لاى:

-لابد أن تتحركوا لمطاردة إسرائيل فى أفريقيا».

ثم استطرد شواين لاى يقول:

-نحن لم نعترف بإسرائيل ولم نجر معها أية اتصالات منذ قيامها بالرغم من أنهم حاولوا، وبالرغم من أنهم صوتوا هذه المرة الأخيرة تأييدًا لدخولنا إلى الأمم المتحدة».

ومضى شواين لاى وهو يشير بيده إلى «تشياو كوان هوا» نائب وزير خارجية الصين وكان رئيسًا لوفدها غير العادى إلى الأمم المتحدة بعد دخولها إلى المنظمة الدولية - وقال شواين لاى:

عندك هنا رئيس وفدنا فى الأمم المتحدة... إن مندوب إسرائيل حاول أن يقابله مرتين عندما كان فى نيويورك ولكنه رفض، وهذا هو موقفنا».

وقلت:

-إننى فهمت أن الإسرائيليين بعثوا إلى بكين برسل ورسائل من أجل إقامة علاقات معكم... أظن أن السياسى الفرنسى منديس فرانس حمل إليكم عندما زار بكين رسالة من تل أبيب... فهمت أيضًا أن بعض وزراء الخارجية من أوربا الغربية الذين زاروا الصين أخيرًا حملوا أيضًا رسائل من تل أبيب».

وقال شواين لاى:

-منديس فرانس تحدث فعلاً فى هذا الموضوع... ولكن أحدًا غيره لم يحمل إلينا رسائل... صحيح أن البعض حاولوا فتح الحديث فى الموضوع ولكننا قلنا لهم بوضوح إننا غير مهتمين».

ولاحت ابتسامة على وجه شواين لاى وقال:

-هل تعرف أنه لا يوجد فى الصين يهود على الإطلاق الآن؟».

قلت:

-أعرف ذلك».

وقال شواين لاى:

-كان فى الصين كلها اثنان من اليهود أحدهما اسمه «ساسون» والآخر اسمه «خاتون» وكانا فى شنغهاى يعملان بالتجارة وقد مات أحدهما ورحل الثانى، ونحن صادرنا أملاك الاثنين.

بيت ساسون فى شنغهاى هو مقر لجمعية الصداقة السوفيتية الصينية، وبيت خاتون أصبح بيت ضيافة».

واستطرد شواين لاى:

-هذان هما كل اليهود فى الصين ولم نعرف غيرهما».

واستدرك مرة أخرى:

-عندما قامت إسرائيل وتقدمت لعضوية الأمم المتحدة لم تكن الثورة قد انتصرت بعد فى الصين ولم نكن موجودين فى الأمم المتحدة... لو كنا موجودين لاعترضنا على دخول إسرائيل ولكن لسوء الحظ أن شيانج كاى شيك صوت بالموافقة».

وابتسم شواين لاى وهو يقول:

-الاتحاد السوفيتى أيضًا صوت بالموافقة!».

وحاولت أن أعود بالحديث مرة أخرى إلى مجراه الأصلى.

ـ «سؤال: سيادة الرئيس، قد تأذن لى أن أختلف معك فى تقييمك للنشاط البادى الآن فى حركة التحرر الوطنى.

إن حركة التحرر الوطنى فيما أرى مضروبة الآن.

ويبدو لى أن بعض ما نراه الآن فى أفريقيا مجرد واجهات براقة، أو هى جزر منعزلة.

سوف أكون صريحًا وأقول لك إن الدول الصغيرة لم تعد الآن تستطيع ممارسة دورها فى التأثير العالمى بأمان.

إن الدول الصغيرة لا تستطيع أن تمارس دورها فى هذا العالم منفردة.

الدول الصغيرة مثل الفرد العادى لابد أن يمارس دوره من خلال انتمائه واتصاله بغيره على أساس وحدة المصلحة.

الفرد العادى يؤدى دوره من خلال مجتمع... من خلال حزب... من خلال قبيلة أو أسرة... من خلال ناد فكرى أو سياسى - مثلاً.

الدول الصغيرة نفس الشىء... لابد لها من درع أو غطاء تمارس دورها من ورائه.

كانت لنا فى يوم من الأيام حركة التضامن الآسيوى الأفريقى..

كانت لنا فى يوم من الأيام حركة الدول غير المنحازة.

كنا نستطيع من وراء هذه الحركات أن نمارس أدوارًا تتعدى طاقة أى دولة واحدة بمفردها وكنا نستطيع أن نجعل رأينا مسموعًا فى الساحة الدولية.

الآن تعرضت كل هذه الدروع لأقسى الضربات.

أين حركة التضامن الآسيوى الأفريقى؟

أين حركة الدول غير المنحازة؟

لقد حدث شىء آخر أشد صعوبة وهو اتجاه الوفاق على القمة الدولية خصوصًا اتجاه الوفاق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

ونحن نعانى من أثر ذلك عمليًا فى منطقتنا... فى أزمة الشرق الأوسط.

وإذا كنا نتحدث عن حالة اللا سلم واللا حرب التى تمسك بخناق أمتنا العربية الآن فلعلى أقول لك إنها فى بعض جوانبها أثر من آثار المتغيرات الدولية الجديدة وأهمها الوفاق على القمة بين الكبار.

دعنى أذكرك - يا سيادة الرئيس - بأن الحرب الحديثة تحتاج إلى أسلحة متطورة، ومن هذه الناحية فإن أزمة الشرق الأوسط لا يمكن عزلها عن القوى العظمى فى عالمنا باعتبارها المنتج الوحيد للسلاح المتطور.

هكذا نرى أمامنا فى أزمة الشرق الأوسط مشكلتين:

الأولى - أن الغطاء أو الدرع الدولى الذى كنا نمارس من ورائه حركتنا العالمية مضروب.

الثانية - أن الوفاق على القمة يفرض على الأزمة عند القاعدة قيودًا مرهقه.

وهكذا ترى الشعوب التى تعيش صراعات أو أزمات ساخنة نفسها فى مأزق، ولست أقول بذلك إن الطرق مسدودة أمام مثل هذه الشعوب ولكن أقول إنها تواجه مواقف صعبة... بالغة الصعوبة؟».

* شواين لاى: الحقيقة أننى كنت أتحدث عن أفريقيا السوداء فى هذا الصدد.

هناك فى منطقتكم أفريقيا السوداء إلى الجنوب.

وهناك العالم العربى.

وأنتم فى مصر - واقعًا - تنتمون إلى العالم العربى، كما أنكم مرتبطون بأفريقيا... ألم تكن مصر أول بلد عربى يحصل على استقلاله. أو لم تكن أول بلد أفريقى يحصل على استقلاله؟

عندما كنا نتكلم فقد كنت أركز على أفريقيا السوداء وحركات التحرير فيها ورأيى أن هذه الحركات تتصاعد والموقف هناك يتحسن وهناك اتجاه ظاهر إلى الاتحاد والمقاومة.

فى الماضى كانت دول أفريقيا السوداء مختلفة فيما بينها حول قضية الحوار مع النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا... والآن يرفض أكبر عدد من هذه الدول فكرة الحوار.

فى الماضى كانت دول غرب القارة فى تعارض مع دول شرق القارة... وهذا الموقف انتهى الآن وحين حاول البرتغاليون غزو غينيا وقاوم سيكوتورى فإن أغلبية دول أفريقيا السوداء شرقًا وغربًا أدانت الغزو.

فى الماضى كان هناك عداء شديد بين زائير والكونجو برازافيل والآن تخف حدة هذا العداء.

قبل شهور كانت الحرب على وشك أن تنشب بين أوغندا وتانزانيا والآن وبوساطة دول أفريقية فإن التوتر على حدود البلدين أقل.

لجنة تصفية الاستعمار اجتمعت فى لوساكا ثم فى أديس أبابا واتجاه اللجنة طيب.

واللجنة التحضيرية لمؤتمر دول عدم الانحياز اجتمعت فى دار السلام ثم لوساكا، واجتمعت أخيرًا لجنة وزراء الخارجية فى جورج تاون فى جيانا.

وكان اجتماع جيانا أفضل من اجتماع لوساكا وكان اجتماع لوساكا أفضل من اجتماع دار السلام.

وأنتم أعضاء فى كل هذه المؤتمرات. أنتم مؤسسون فى كل هذه الحركات، فى حركة الوحدة الأفريقية وفى حركة عدم الانحياز.

* سؤال، قد نتناقش طويلاً حول هذا كله وحول قيمته العملية فى ظروف العالم المتغيرة ومع ذلك فدعنى أركز على أزمة الشرق الأوسط ؟

* شواين لاى: إن هناك الآن اتفاقًا حول مشكلة فيتنام، ولكم أن تتذكروا أن الحرب هناك استمرت طويلاً، وقد كتبت عدة مرات فى هذا الشأن للرئيس جمال عبدالناصر وقلت له: «ليس أمامكم إلا أن تعتمدوا على أنفسكم... وعلى أصدقائكم أن يساعدوكم».

ومن سوء الحظ أننا بعيدون عنكم.

هناك مثل صينى يقول: «إن الماء الذى يأتى من مكان بعيد لا يستطيع أن يشارك فى إخماد الحريق القريب».

كان يجب على الاتحاد السوفيتى وهو قريب منكم أن يقدم لكم ما تحتاجون.

إننا لا نبيع السلاح ولكن نقدم ما لدينا منه لأصدقائنا الذين يقاتلون هكذا فعلنا مع الذين يقاتلون فى فيتنام ولاوس وكمبوديا.

لم نفعل مثل ما فعل «شيلوك» فى قصة «شكسبير» عن «تاجر البندقية» الذى يتقاضى دينه من لحم مدينه الحى.

كان ذلك جائزًا فى القرن السادس عشر ولكننا الآن فى نهاية القرن العشرين.

نحن لا نتصور أن الدولة التى ولد فيها لينين تبيع السلاح للذين يقاتلون دفاعًا عن حريتهم.

نحن نعرف على أى حال ماذا واجهتم مع الروس لأننا عشنا نفس المشكلة معهم من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٦٣، ومع ذلك إننى أتحدث عن الماضى.

دعنا نتحدث عن ظروفكم.

إننى زرت مصر وأعرف طبيعتها.

(تدخل شواين لاى عندما قالت المترجمة وهى تنقل عنه «إننى زرت مصر مرة وأعرف طبيعتها»).

وقال لها ضاحكًا:

ـ ماذا تقولين؟... أنت تغالطين فى الحساب... إننى لم أزر مصر مرة واحدة ولكن زرت مصر سبع مرات.

وكان هذا التدخل من شواين لاى بالإنجليزية.

وبعدها عاد إلى الصينية يواصل حديثه:)

* شواين لاى: طبيعة مصر وظروفها تجعل الحرب الشعبية معضلة ولكن تذكروا أن الحرب فى أى نوع من أنواعها ليست مسألة سهلة.

إن فيتنام لم تكن تواجه مشكلة سهلة.

لقد كانت لديهم فرصة الجبال والغابات والأنهار ولكننا نعرف أنه خلال الحرب العالمية الثانية قذف الألمان فوق بريطانيا بثمانين ألف طن من القنابل، وفى ١٠ سنوات فإن الأمريكيين قذفوا فيتنام بأربعة ملايين طن... أى أكثر مما تعرضت له بريطانيا فى حربها ضد الألمان بخمسة آلاف مرة.

وفى أواخر ديسمبر الماضى وفى عشرة أيام فقط ركز الأمريكيون ضربهم على فيتنام الشمالية وألقوا عليها أربعين ألف طن من القنابل... أى أن الفيتناميين تلقوا فى عشرة أيام فقط نصف ما تلقته بريطانيا طوال الحرب العالمية الثانية كلها... أربع سنوات.

كيف يمكن لأى بلد أن يجد طريقته فى القتال؟

ظروف كل بلد تختلف ولكن فى كل البلاد علينا أن نعتمد على حكمة الشعب وهو يستطيع أن يجد وسيلته فى القتال.

نحن لم نحارب مع الفيتناميين ولكن أعطيناهم الأسلحة.

ولقد قلت للرئيس الأمريكى نيكسون حين جاء إلى هنا:

ـ إذا واصلتم الحرب ضد فيتنام، فلدينا التزام بأن نواصل تزويدهم بالسلاح».

وكان من المستحيل أن نطلب من الفيتناميين ثمن ما أرسلنا إليهم من الأسلحة،

كنا نقدم لهم ما لدينا بدون ثمن وكنا نعتذر لهم بصدق لأن ما نرسله إليهم أقل من جهدهم البطولى، كما أنهم بتضحياتهم كانوا أسرع من جهدنا فى توصيل السلاح إليهم.

إننى قلت للرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون:

ـ لا يمكن أن يقوم بيننا تفاهم إلا على أساس تسوية مشكلة فيتنام أولاً».

وأسألك الآن:

ـ ماذا فعل الاتحاد السوفيتى لكم؟

إن أمريكا بعيدة ولكنها تعطى كل شىء لإسرائيل.

والاتحاد السوفيتى قريب ولكنه لا يقدم لكم ما فيه الكفاية ويتاجر فى السلاح.

(واستطرد شواين لاى فى نقطة فرعية... سأل:

ـ كم كان عدد اليهود فى فلسطين قبل وعد بلفور؟».

وقلت:

ـ كانوا سبعين ألفًا فقط».

وقال:

ـ والآن أصبحوا ثلاثة ملايين فى إسرائيل.

ثم قال شواين لاى:

ـ ليس لدى شىء ضد اليهود كيهود ولكننا ضد الصهيونية وابتسم ثم استطرد:

ـ كان ماركس من أصل يهودى... وأينشتين كان يهوديًا. واتصلت الابتسامة وهو يقول:

ـ كيسينجر أيضًا يهودى».

لكن هناك عددًا كبيرًا من اليهود ضمن عتاة الرأسمالية وهم قمة الخطر.

إن إسرائيل دولة لم تصنعها أحكام الطبيعة ولكنها دولة صنعتها حماقة الإنسان.

صنعها البريطانيون بوعد بلفور، ثم ساعدتها الولايات المتحدة، وفرنسا، والاتحاد السوفيتى أيضًا لم يكن بعيدًا، كان الاتحاد السوفيتى يستطيع أن يمنع قرارات التقسيم، وكان يستطيع أن يمنع دخول إسرائيل للأمم المتحدة.

الأمم المتحدة ليست لها حسنات كثيرة ... وقيام إسرائيل أكبر سيئاتها.

* سؤال: سيادة الرئيس، قد يكون مناسبًا أن أنتقل إلى نقطة أخرى... لقد وصلنا فى الحديث إلى الأمم المتحدة وأريد أن أسألك عن تصورك لدور الصين فيها.

إن الصين كانت قوة ثورية فوارة وكان مما ساعدها على ذلك أنها بقيت خارج الشرعية الدولية وكان هذا يعطيها مرونة أكثر فى الحركة.

والآن هل ستصبح الصين بعد دخولها الأمم المتحدة جزءًا من «المؤسسة الدولية»؟

ثم هناك مسألة أخرى.

إن الصين وهى خارج الأمم المتحدة كانت تطالب بتغييرات أساسية فى نظامها تجعلها أكثر اتساقًا مع ضرورات المستقبل وأكثر فاعلية، والآن والصين داخل الأمم المتحدة، وفى مقعد دائم العضوية فى مجلس الأمن فإن الكل يتساءل:

ماذا ستفعل الصين؟»

* شواين لاى: إن الأمم المتحدة يجب أن تمثل شعوب العالم كله على نفس المستوى، وفى الحقوق والواجبات مهما اختلفت أحجام الدول وقوتها وإذا كان لابد أن تصبح الأمم المتحدة ممثلاً حقيقيًا للشعوب وعلى هذا الأساس الذى أوضحته... إذن فإن نظامها لابد أن يتغير... هذا رأينا، ولكننا مازلنا بعد ندرس الموضوع.

إننا دخلنا الأمم المتحدة بطريقة لم نكن نتوقعها وفى وقت لم نكن مستعدين له.

كان تقديرنا ذلك الوقت أن مشروع قرار الولايات المتحدة الذى يعرقل دخولنا

فى الأمم المتحدة سوف تتم الموافقة عليه، كما كان تقديرنا أن المشروع الألبانى الذى يفتح أمامنا باب الأمم المتحدة سوف يسقط.

وكان كيسينجر - مستشار نيكسون - عندنا هنا فى بكين عندما كان التصويت جاريًا، وكان يبدو على ثقة من أن مشروع القرار الأمريكى سوف ينجح وأن مشروع القرار الألبانى سوف يسقط.

ولم يناقشنا فى ذلك، ونحن لم نناقشه.

وفى صباح يوم ٢٦ أكتوبر عام ١٩٧١ كان كيسنجر على وشك أن يركب طائرته بعد انتهاء زيارته لنا وسمعنا من الإذاعات العالمية ووكالات الأنباء أن مشروع القرار الأمريكى اليابانى سقط وأن مشروع القرار الألبانى هو الذى تمت الموافقة عليه وبهذا جرى طرد شيانج كاى شيك وأصبح الطريق مفتوحًا أمام دخول الصين بأغلبية أكثر من ثلثى أصوات الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة.

كان ذلك بعيدًا عن توقعاتنا وكان بعيدًا عن توقعات كيسنجر كانت النتيجة مفاجأة لنا وجلسنا نبحث كيف نتصرف.

هل نذهب..؟ أو ننتظر؟.

هل نضع شروطًا لدخولنا..؟ أو نتقدم على الفور لاحتلال مقعدنا؟.

وكان الرئيس ماوتسى تونج هو الذى حسم المناقشة حين سألنا جميعًا:

- من هم هؤلاء الذين تحدوا أمريكا وصوتوا لصالحنا أليسوا هم الدول الصغرى.. من العالم الثالث؟

وإذن كيف نستطيع أن نخذلهم ونتأخر عنهم ونتركهم ينتظرون».

وذهبنا إلى الأمم المتحدة وكنا خائفين من أكوام الورق التى سوف تنهال علينا وحاولنا أن نتعلم شيئًا عن الأمم المتحدة وراح وفدنا يسأل الدول الصديقة التى تعرف الأمم المتحدة وخباياها.. كان بين من سألناهم وقتها رياض وزير خارجيتكم.

هذا ما حدث.

والآن فإن الأمم المتحدة فى مفترق الطرق..

هل ستسيطر القوى العظمى على الأمم المتحدة أم أن المنظمة سوف تتطور لتصبح أممًا متحدة بكل الدول وعلى قدم المساواة؟».

* سؤال: سيادة الرئيس ألا يمكن اعتبار الصين واحدة من القوى الأعظم الآن وما هو فى رأيك تعريف القوة الأعظم؟».

* شواين لاى: أريد أن أعيد طرح السؤال عليك أنت... كيف تستطيع أن تضع تعريفًا للقوة الأعظم؟

* جواب: أنت الآن تحولنى من سائل إلى مسئول ومع ذلك فسوف أحاول الإجابة.

قد أضع مجموعة مواصفات لأى دولة تستحق وصف القوة الأعظم.

هناك فى رأيى أربع مواصفات وقد يكون هناك غيرها ولكن ما يخطر على بالى الآن أربع كما قلت أعدها لك على النحو التالى:

١ - مقعد دائم فى مجلس الأمن (والصين لها هذا المقعد).

٢ - قوة نووية رادعة (والصين لديها السلاح النووى).

٣ - إمكانية اقتصادية ضخمة (وهذا متوافر للصين).

٤ - قوة بحرية (وليس هذا بعيدًا عن متناول الصين).

هذا هو تصورى لمواصفات ما يمكن أن نسميه القوى الأعظم فى هذا العصر».

* شواين لاى: إننى أختلف معك.. القوة الأعظم «حالة»، وليست مجرد «مواصفات».

القوة الأعظم هى ممارسة سياسة القوة والذى يمارسها الآن طرفان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

وهما يريدان معًا أن يسيطرا على العالم.

لقد تحدث الأمريكان والروس عن نزع السلاح فهل نزعوا سلاحهم... لقد زادوا من فاعلية سلاحهم ولم ينزعوه!

إنهم يريدون نزع سلاحنا نحن وليس نزع سلاحهم.

إن الذين يريدون الدفاع عن أنفسهم هم الذين يحتاجون إلى زيادة قدراتهم، وأما الذين يقومون بالعدوان فإنهم الذين يجب نزع سلاحهم.

الدول الصغرى ليس لديها ما يكفيها للدفاع عن نفسها.

ولكن الدول الكبرى هى التى تزيد من تسليحها.

إنهم يعرفون أن الأسلحة النووية سوف يستحيل استخدامها بكثرة ما ينتج منها ومع ذلك فهم يزيدون من مخزونهم.

فى نفس اليوم الذى وقعوا فيه اتفاق الحد من إنتاج بعض الأسلحة النووية أعلنوا أنهم سوف يتوسعون فى إنتاج بعضها الآخر، هذا ما قاله ليرد الوزير الأمريكى الذى خرج من منصبه الآن.

لقد طالب بزيادة فى ميزانية إنتاج الأسلحة وحدد مطالبه بما لا يقل عن مائة بليون دولار.

كانت لديه الشجاعة على الأقل ليعترف بالحقيقة وهذا طيب لأنه يتيح لنا فرصة أن نعارضه وأن نكشف نواياه.

ولكن الاتحاد السوفيتى لا يفعل ذلك.

يدعى الاتحاد السوفيتى أن ميزانيته للسلاح ٢٠ بليون دولار ويقول إن هذا المبلغ يمثل عشرة فى المائة من ميزانيته... ومن الذى يستطيع تصديق هذا القول.

فى الاتحاد السوفيتى على أى حال رجل واحد قال الصدق وهو سوسلوف رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس السوفييت الأعلى.

إن سوسلوف قال: إن أمريكا تتصرف من موقع القوة، والاتحاد السوفيتى يتحتم عليه هو الآخر أن يتصرف من موقع القوة».

إننا أمام الأمم المتحدة كشفنا أساليب القوى العظمى وقام ممثل الاتحاد السوفيتى هناك جاكوب ماليك وصب اللعنات على رءوسنا وكان غاضبًا جدًا.

إنهم يتحدثون عن نزع السلاح النووى وفى نفس الوقت يزيدون إنتاجهم منه.

كيف يمكن لأحد أن يفعل ذلك.

يقول شيئًا ويتصرف بعكسه.

لكنهم يريدون إرهاب العالم والسيطرة عليه.

* سؤال: هل تتوقع أن يسير اتفاق باريس بشأن فيتنام فى طريق ناجح؟».

* شواين لاى: لابد أن ننتظر لنرى... إننا أحسسنا أن نيكسون يريد إنهاء الحرب ولكن تجار الأسلحة لهم صوت عال ونفوذ بعيد.

إن أمريكا وضعت تحت تصرف حكومة فيتنام الجنوبية ٢٦٠٠ طائرة.

لماذا؟.

ومن فى العالم يملك هذا العدد من الطائرات؟

هل لديكم أنتم هذا العدد من الطائرات؟

- جواب: سيادة الرئيس... أتمنى لو كان لدينا هذا العدد».

* شواين لاى: إنها طائرات حديثة ولا أستبعد أن يذهب الإسرائيليون إلى سايجون الآن ليتدربوا عليها.

* سؤال: سيادة الرئيس... إننا جميعًا نتحدث عن متغيرات وقعت فى هذا العالم وفى هذا العصر فهل أستطيع أن أسألكم عن أهم هذه المتغيرات فى رأيكم؟».

* شواين لاى: هذه قصة طويلة ولكى أجعلها قصيرة فإنى أكتفى بأن أصف لك نتائجها كما نراها من هنا.

هناك الآن فى العالم انقسامات جديدة، وهناك تحالفات جديدة، وهناك فوضى (أو تفاعلات عنيفة) فى كل مكان.

إن أحوال العالم لن تهدأ.

إن الشعوب تتمنى ذلك... ونحن نتمناه وأنتم تتمنونه... كل الشعوب تريد السلام ولكن السلام لن يأتى بهذه البساطة.

السلام لن يجىء لمجرد أننا نريده.

ولكن السلام يمكن أن يجىء إذا استطعنا أن نحميه.

إن حماية السلام لن تتحقق بمجرد الخوف من الحرب.

بالعكس نحن نعتقد أن مجرد الخوف من الحرب عامل يجرى استغلاله ضد السلام.

هذه هى نقطة ضعفهم الرئيسية فى الاتحاد السوفيتى.

عندما يسمعون كلمة الحرب يخافون، وقد استغلت الولايات المتحدة هذا الخوف من جانبهم ولعبت عليه.

لماذا لا نجد أمريكا خائفة... ولماذا يخاف الاتحاد السوفيتى بدعوى حرصه على السلام؟

إنهم يدعون أحيانًا أمام الكل أنهم لو تحركوا بقوة فإن الحرب العالمية الثالثة سوف تنشب... لا تصدق أن الحرب العالمية الثالثة سوف تنشب!

إن الحرب العالمية الثالثة قد تنشب على الأعصاب وتسقط المواقع بدعوى الخوف على السلام.

إن الروس يقولون أحيانًا إن الأمريكيين يغامرون وأما نحن - هم أقصد - فهم ضد المغامرة.

هذا ليس صحيحًا.

عندما وضعوا الصواريخ على القواعد فى كوبا سنة ١٩٦٢ ألم تكن هذه مغامرة؟

لقد كانت مغامرة.

وعندما اكتشفها كيندى سنة ١٩٦٢ فإنهم انتقلوا بسرعة من المغامرة إلى الهرب.

لقد فقدوا ثوريتهم!

* سؤال: سيادة الرئيس... هناك موضوع هو من شئون الصين الداخلية، وهو خاص بالثورة الثقافية، وكان بعض رفاقى الذين جاءوا معى إلى هنا يتناقشون حوله، وتساؤلهم هو: كيف يمكن أن تقوم ثورة ثانية فى بلد تحكمه الطبقة العاملة فعلاً؟

* شواين لاى: هذه قضية مهمة... وأريد أن أشرحها بالتفصيل.

... عندما قدم ماركس نظريته، كان يرى بضرورة استيلاء البروليتاريا على السلطة لإزالة الاستغلال، وكان رأيه أن تطور الصناعة هو الذى سيعطى المناخ الأنسب لهذه الثورة البروليتارية.

وشهد ماركس بعينيه تجربة كميونة باريس، وكيف قامت، وكيف انهارت، وكتب عدة مقالات يلخص فيها التجربة.

إن ماركس لم يعش ليرى ما يحدث فى القرن العشرين، حيث تسيطر الإمبريالية بالصورة التى رأيناها فيه، وحيث استطاعت هذه الإمبريالية أن تثير حربين عالميتين فى قرن واحد قسمت بهما العالم.

لكن لينين عاش جزءًا من هذه القصة، وكانت مؤلفاته عن الاستعمار من روائع الفكر الإنسانى، ونظرياته مازالت سليمة، وقد مات مبكرًا ولم يشهد عملية التطبيق، خصوصًا أن الحرب الأهلية شغلته فى السنوات الأولى بعد نجاح ثورة أكتوبر السوفيتية.

وانتقلت المسئولية إلى ستالين، وستالين كان ماركسيًا عظيمًا، وكانت رؤيته نفاذة، برغم أخطاء وقع فيها ولا يمكن إنكارها، ولكننا لا نستطيع أن نتركها لكى تطمس تاريخه كله.

إن ستالين أكد أنه يمكن فى دولة واحدة بناء قاعدة للاشتراكية، وفعلاً فإنه فعل ذلك ونجح فيه، ومعيار نجاحه هو صمود الاتحاد السوفيتى فى الحرب العالمية الثانية ضد الفاشية، وبدون هذا الصمود فإنه كان مستحيلاً إنقاذ أوربا.

إن أوربا كانت فى حالة يرثى لها، وكان هتلر قد جرد بريطانيا من سلاحها، وإن كان قد وقع فى الخطأ من وجهة نظره حين لم يعبر القنال الإنجليزى ويحتل بريطانيا التى لم يكن لديها ما تدافع به عن نفسها... كان أنتونى إيدن فى ذلك الوقت وزيرًا للجيش، وقد قال لى بنفسه عندما قابلته فى مؤتمر جنيف سنة ١٩٥٤: «إن بريطانيا لم يكن لديها شىء تدافع به عن نفسها، وإنهم جمعوا بعض بقايا السلاح القديم ليقفوا به على الشواطىء، ولو أن هتلر بعث بفرقتين من فرق المظلات لاستسلمت بريطانيا».

إن الاتحاد السوفيتى كان لفترة طويلة هو القوة الوحيدة التى اشتبكت مع الفاشية فى أوربا، وتغلغل الجيش الألمانى حتى وصل إلى ستالينجراد وموسكو ولينينجراد، ولكن خسائر هذا الجيش الألمانى كانت عالية، وكانت الحرب على الجبهة الشرقية تعتصر قواه، وكانت هى التى لعبت الدور الرئيسى فى هزيمته النهائية.

إن الأوربيين جميعًا يعترفون بذلك، وقد ناقشناهم فيه.

والأمريكيون لا ينكرونه.

لهذا فإننا نقدر دور ستالين، ولهذا فإننا نضع صورته جنبًا إلى جنب مع صور ماركس وإنجلز.

إننى سمعت أنكم تساءلتم: لماذا نضع صورة ستالين... ضمن الصورة التى نرفعها، وهذا هو السبب... والبانيا أيضًا تفعل نفس الشىء.

لا يمكن إنكار دور ستالين.

وقلت إن ستالين كانت له أخطاء.

بين أخطائه فى رأينا دستور سنة ١٩٣٦.

إنه أخطأ حين تصور عدم وجود خطر من عودة الطبقات إلى الاتحاد السوفيتى، وتصور أن الصراع الطبقى قد أمكن حله فى إطار الدولة السوفيتية.

وهذا خطأ فادح.

هناك خطر العودة إلى الطبقية.

وهناك صراع طبقى فى الاتحاد السوفيتى، لأن هناك فئة مميزة.

ولقد تنبهنا نحن فى الثورة الصينية إلى هذا الخطأ، وكان الفضل للرئيس ماوتسى تونج.

وأتذكر عشية تحرير بكين أن الرئيس ماو جمعنا وقدم إلينا تقريرًا مهمًا، ضمنه بعض ملاحظاته على المرحلة الجديدة التى كان علينا أن نواجهها.

قال الرئيس ماو فى ذلك الوقت:

ـلقد كنا حتى الآن نحارب ونناضل فى الريف وسط الفلاحين ونعيش حياتهم، ولكننا الآن سوف ندخل إلى المدن الكبرى ونتسلم السلطة، وهناك خطر فادح من المغريات التى يمكن أن تقابلنا... إن الصراع بين الرأسمالية والطبقة العاملة سوف يكون حادًا فى المدن... وإذا جلسنا على قمة السلطة وسمحنا لأنفسنا بامتيازاتها، فإننا قد نجد أنفسنا ننحاز إلى الرأسمالية ضد الاشتراكية».

إن نجاح الثورة لا يعنى أن المتناقضات قد تم حلها، لأن هذه المتناقضات قد تطوق الثوار أنفسهم، وبالتالى تنحرف الثورة.

خذ الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، لقد أقاموا ديمقراطية.

ولكن نابليون جاء بعد سنوات وقضى على الديمقراطية.

وخذ حركة الاستقلال الامريكى، وخذ الحرب الأهلية الأمريكية، لقد سقطت كل القيم التى حارب من أجلها الثوار، وانتهى الأمر إلى إقطاع واحتكار.

وإذن لا يمكن أن نقول بأن نجاح الثورة الاشتراكية فى بلد وإقامة السلطة الثورية فيه، كفيل بمفرده بحماية الثورة.

ليس ذلك صحيحًا، لأننا سوف نجد أمامنا طبقة جديدة تتولى الإدارة وتحصل لنفسها على امتيازات غير مشروعة.

أليس ذلك ما حدث فى الاتحاد السوفيتى؟

إن ذلك سوف يؤدى إلى تحريف بعيد الخطر يتجاوز حد الامتيازات ويصل لكى يصبح منطقًا يسعى إلى السيطرة فى المجتمع وفى العالم.

هل يمكن أن تتصور أنه بعد خمسين سنة من الثورة لا يزال الاتحاد السوفيتى عاجزًا عن حل مشكلة الزراعة.

إن لديهم صناعة، ولكنها صناعة ليست جيدة.

لديهم أسلحة نووية هائلة ومتقدمة، وهم يتنافسون على الفضاء، ولكن ما هو جدوى ذلك إذا لم تحل مشكلة الزراعة، وإذا عجزت الصناعة عن توفير مستوى جيد من الإنتاج لصالح الشعب؟

خطأ ستالين أنه قال فى دستور سنة ١٩٣٦، إن التناقضات الطبقية قد حلت، وهذا أعطى المجال لتحريفات خروشوف.

... الصراع الطبقى سوف يستمر.

... حركة المتناقضات هى حركة التقدم.

وقيمة أى عقيدة سياسية هى بمقدار رؤيتها لحركة المتناقضات فى المجتمع، وفى العالم، وفى توجيهها لصالح التقدم وقواه.

إن الثورة الثقافية فى الصين كانت عملية ضرورية لإزاحة الطبقة الجديدة،

واستطاعت أن تحرك ملايين الناس. كان التحرك من القيادة من فوق، ومن الشعب على القاعدة، واحتاجت إلى وقت طويل، وتعرضنا فيها لخسائر كبيرة، ولكن هذا ليس مهمًا.

عندما يجرى الإنسان عملية جراحية، فإنه يفقد بعض الدم، هذا ثمن ضرورى للشفاء، وبعد الشفاء، فإن الصحة تستطيع أن تعطى حياة أقوى وأنظف وقوة اندفاع تعوض ما ضاع.

لقد كان السؤال الذى أجبنا عليه هو:

- هل نعطى السلطة للبيروقراطية وامتيازاتها، أم نعطى السلطة للثورة وفكرها؟

وقد أعطينا السلطة للثورة وفكرها.

وقد فعلنا ذلك بقوة الجماهير التى دعاها الرئيس ماو إلى المشاركة فى الثورة بتوجيهاته الأربعة المشهورة:

* ارفعوا اللافتات والشعارات بأكبر الحروف.

* ادخلوا فى مناقشات عميقة وطويلة.

* اطرحوا كل المسائل بحرية.

* عبروا عن أفكاركم وقوموا بتقييمها علنًا.

وهذه المبادىء سوف توضع فى دستورنا الجديد.

دستور الصين الجديد سوف يعطى العمال حق الإضراب... لماذا لا يكون لهم حق الإضراب إذا أحسوا بأن الإدارة سيئة؟

إن الثورة لا تقف ضد هذا، ولكن الثورة المضادة هى التى تخافه.

ويجب أن تكون الحرية للشعب وليست لأعدائه.

ولقد مارسنا تحريك قوى الشعب كلها أثناء الثورة الثقافية، وكانت هذه القوى هى التى كشفت دور «ليو تشاو تشى» - رئيس الدولة - ولين بياو - قائد الجيش -.

إن الجماهير هى التى تحركت وكشفت.

صحيح أن النظام اختل بعض الوقت، وصحيح أنه كانت هناك عناصر سيئة تريد إثارة الاضطرابات بدون هدف ثورى، ولكن ذلك يمكن تجاوزه

إن بعض العناصر السيئة وصلت إلى حد أنها استولت على وزارة الخارجية نفسها سنة ١٩٦٧، واضطر الرئيس ماو بنفسه، واضطررت أنا أيضًا إلى التدخل.

وحدثت تجاوزات.

أحرقوا منزل القائم بالأعمال البريطانى.

وأوشكوا على الدخول فى مغامرة لاحتلال هونج كونج.

ولكن ذلك كله حوصر وصفى، وأصبحت المسائل الآن واضحة.

ونحن لا نقول لأحد إن الثورة الثقافية فى الصين نموذج قابل للتقليد فى أى مكان، وإنما نقول للآخرين هكذا رأينا المشكلة، وهكذا وضعنا الحل لها، وليس ضروريًا على الآخرين أن يتخذوا نفس الطريق، وإنما لهم دائمًا أن يشخصوا مشاكلهم، وأن يجدوا الحلول الملائمة لظروفهم، ولهم فى ذلك أن يدرسوا تجربة الآخرين.

لقد فهمت أنك اشتركت فى مناقشات كثيرة عن الثورة الثقافية؟».

* جواب: ذلك صحيح. لقد قلت إن اهتمامى هذه المرة سوف يكون بالناس وبالأفكار أكثر منه بزيارة المصانع والمنشآت.

كان رأيى أن التجربة الحقيقية هى فى الناس وأفكارهم، وأما المصانع والمنشآت فهى متماثلة فى العالم كله.

* سؤال: هل أستطيع أن أعود بك مرة أخرى إلى أزمة الشرق الأوسط؟».

* شواين لاى: لابد أن أعترف لك بتقصيرنا فى الاهتمام بأزمة الشرق الأوسط، لكنى أتصور أنه بعد حل مشكلة فيتنام، فإن الاهتمام سوف يتحول إلى الشرق الأوسط والبحر الأبيض.

ونحن نؤيد موقفكم، لكن تأييدنا لسوء الحظ ليست له الفاعلية المطلوبة.

إننى قرأت تعبيرًا كتبته فى مقالاتك عن «حالة اللاسلم واللاحرب» ونحن استخدمنا هذا التعبير بعد ذلك حتى فى الأمم المتحدة.

وأنتم فى موقف صعب بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، وهذا هو الذى يصنع حالة اللاسلم واللاحرب كما كتبت أنت عنها، ورأينا أن الموقف سوف يستمر إذا لم تكن هناك صيغة ملائمة لمواجهة الأزمة... وعليكم أن تدرسوا، وتدرسوا بعمق...

ونحن نرى أن البترول سوف يكون مسألة مهمة فى السنوات القادمة، وجزءًا كبيرًا والصراع سوف يدور عليه.

شىء طيب أن يكون لدى العرب بترول.

وشىء مؤسف أيضًا.

شىء طيب لأنه ثروة تستطيعون بها بناء أمتكم.

وشىء مؤسف لأن الصراع عليه عنيف.

أريد أن أسألك عن البترول العربى.

(وغاص الحديث فى مناقشة فرعية عن البترول العربى، أجبت فيها على كل سؤال وجهه إلىّ شواين لاى.

وساد الصمت بعض الوقت وشواين لاى يفكر فى الأرقام الفلكية لحسابات البترول العربى... وفجأة بدأ يسأل سؤالاً آخر).

* شواين لاى: أريد أن أسألك عن رأيك فيما ينبغى عمله لحل أزمة الشرق الأوسط؟

* جواب: سيادة الرئيس... فى الحقيقة أننى قلت رأيى باستمرار، ولم أتوقف عن قوله، رغم مشاكل كثيرة تعرضت لها.

لقد تصورت منذ البداية أن قوانين العالم والعصر لا تعطينا ولا تعطى لأى نزاع دولى آخر حلاً... إلا الحل السياسى الذى يدخل استعمال القوة المسلحة كعنصر من عناصره.

وهذا يختلف عن الحل الديبلوماسى الذى يبدأ وينتهى فى المحافل الديبلوماسية وحدها، كما أنه يختلف عن الحل العسكرى الذى يبدأ وينتهى فى ميدان القتال وحده.

وكان الحل السياسى فى رأيى يتركز فى عدة نقاط:

* جبهة داخلية متماسكة وقوية بثقتها بنفسها، وإيمانها بهدفها.

* أكبر حشد ممكن من طاقة الأمة العربية وإمكانيات العمل العربى المتاحة.

* انفتاح على العالم قادر على الحركة المرنة والمستنيرة، قادر على أن ينفع ويضر، يمنح ويمنع.

* استعداد بالقوة المسلحة، تهيئتها بالكامل واستخدامها عند اللزوم، وكنت منذ أول يوم أقول إن العدو الإسرائيلى لن يتحرك من المواقع التى يحتلها من أرضنا إلا إذا خلعناه منها بالقوة، أو تأكد أن لدينا من القوة - ومن قدرة استعمالها - ما يجعل ذلك ممكنًا.

إن آخرين اختلفوا معى، وربما كانوا أكثر تطرفًا، ولكن العصر كان فى رأيى عصر العقل والتخطيط البعيد المدى، وكانت خشيتى دائمًا أن تكون أكثر الآراء تطرفًا هى غطاء لأكثر المواقف استسلامًا».

* شواين لاى: إننى أفهم ما قلت، وإن كنت أريد أن أضغط بشدة على أول نقطة ذكرتها أنت، وهى الجبهة الداخلية المتماسكة والسليمة، هذه هى نقطة الارتكاز فى كل كفاح، وهى الأساس فى أى نجاح.

هناك شىء آخر يتصل بذلك، وهو روح السكان المدنيين إذا نشب القتال.

إن الروح المعنوية للسكان المدنيين مهمة، وأظنها فى تجربتنا متصلة بشيئين:

● حفر الخنادق لكى تشعر الجماهير أن لديها ملاجىء أمان من الخطر.

● تخزين المواد، وخصوصًا الحبوب.

كانت هذه هى استراتيجية الرئيس ماو.

إن سلامة جبهتكم الداخلية وتماسكها هو الذى يعطيكم إمكانية حشد الجهود العربية...

هناك مسألة أخرى وهى توحيد الفلسطينيين.

ونحن نعرف أن الحديث فى هذه القضايا سهل من بعيد، ولكنكم أنتم الذين تعيشون التجربة، واعتقادنا هو أنكم فى لحظة تاريخية تواجهون فيها مشكلة «شجاعة الاعتماد على النفس».

إن هناك عوامل إيجابية كثيرة لصالحكم.

هناك قواكم الذاتية الوطنية والعربية.

وهناك الموقف الدولى، وهو حافل بالمشاكل والمتناقضات، ويجب أن تستفيدوا من هذه المتناقضات لحل قضاياكم.

إن وزير خارجية الصين سوف يسافر فى جولة واسعة فى شهر مارس، وسوف يزور مصر خلالها، وسوف يكون مهما أن نسمع منكم وأن تسمعوا منا...

يظهر أننا سنعود إلى عصر الاعتماد على وزراء الخارجية، وسوف يزداد دورهم فى الفترة المقبلة... فى وقت من الأوقات كاد هذا الدور يتلاشى بكثرة اللقاءات على مستوى القمة.

فهمت أيضًا أنكم سوف تبعثون إلينا بوفد حكومى.

* جواب: إننى سمعت عن ذلك أيضًا وأعتقد أنه سيحدث»

* شواين لاى: أرجو أن تكون الأمور قد اتضحت أكثر على المسرح الدولى حين يجىء هذا الوفد.

وبهذه المناسبة: متى ستكون زيارتك القادمة للصين... إنك زرت الاتحاد السوفيتى خمس عشرة مرة، ونحن أحصيناها عليك، ولكنك لم تجئ إلى الصين قبل هذه المرة... لماذا رحلاتك كلها فى اتجاه واحد؟

* جواب: لم يكن ذلك مقصودًا... ولكنه حكم الظروف، وبالنسبة للصحفى، فإن الرياح تحمله دائمًا إلى حيث تجرى الحوادث.

وقال الرئيس شواين لاى، وابتسامة صينية غامضة على شفتيه وبريق يلمع فى عينيه، مع تلك الساعة المتأخرة من الليل:

- ... هناك رياح شرقية أيضًا!

الشرق أحمـــر

السّياسة الخارجيّة للصّــين

عندما تحدد موعد زيارة الرئيس ريتشارد نيكسون للصين، اقترح عليه مستشاره لشئون الأمن القومى «هنرى كيسنجر» أن يقابل بعض الشخصيات العالمية التى تعرف تاريخ وشخصية الصين، وتستطيع بهذه المعرفة أن تعطى للرئيس الأمريكى بعض المفاتيح لعلها تنفعه فى دخول أبواب مغلقة.

وكان من بين الذين اقترح «كيسنجر» على «نيكسون» أن يقابلهم، أديب فرنسا ومفكرها العظيم «أندريه مالرو»، وهو من دارسى الحضارة الصينية، فضلاً عن أنه استطاع توثيق صلات فكرية مع الثورة الصينية وواتته الفرصة لكى يقابل ويتحدث طويلاً مع «ماوتسى تونج»، قبل أن يبتعد هذا الرجل الأسطورى عن حياة كل يوم، ويتحول إلى ضوء يشع من بعيد ساريًا فى أفلاك النجوم.

ودعى «أندريه مالرو» فعلاً إلى عشاء فى البيت الأبيض مع «ريتشارد نيكسون»، وجلس الرئيس الأمريكى تلميذًا أمام أستاذ يتلقى عنه ويحاول أن يفهم.

وكان من بين ما قاله أندريه مالرو لريتشارد نيكسون فى تلك الليلة:

- إن أكبر خطأ يقع فيه أى طرف يتعامل مع الصين، هو أن يتصورها متلهفة على أى شىء.

إن الصين مثلاً ليست فى عجلة من أمرها بشأن حقها فى دخول الأمم المتحدة، كما أنها ليست متلهفة على شىء يغريها به الآخرون.

إن الصين بلد صبور.

بلد صبور جدًا.

لقد انتظرت عشرين سنة خارج الأمم المتحدة، وهى على استعداد لأن تنتظر عشرين سنة أخرى.

ولقد أنكرتم على ثورتها الاعتراف بها عشرين سنة، وهى على استعداد لأن تنتظر عشرين سنة أخرى.

الصين كما قلت لك بلد صبور... صبور جدًا».

* * *

وأتذكر أننى سمعت الرئيس السوفيتى إلكسى كوسيجين يروى، ويعيد رواية حوار دار بينه وبين ماوتسى تونج فى آخر زيارة قام بها للصين فى فبراير سنة ١٩٦٥.

كان إليكسى كوسيجين يقول:

- «إننى ذهبت إلى ماوتسى تونج أقترح عليه أن نناقش خلافاتنا حتى نستطيع تصفيتها»

وفوجئت «بماو» يقول لى:

- إننا نحتاج إلى عشرة آلاف سنة لكى نستطيع تصفية ما بيننا».

وقلت له:

- وإذا بذلنا جهدًا مكثفًا... ألا نستطيع أن نختصر هذه المدة المخيفة فى بعدها؟».

وسكت «ماو» قليلاً ثم قال لى (والمتحدث هنا هو كوسيجين):

- ربما لو بذلنا كل جهدنا... فإننا قد نتمكن بمعجزة من اختصار ألف سنة!».

وكان كوسيجين يضيف:

- ماذا نفعل؟... لقد جعلونى شخصيًا أشعر باليأس من إمكان تسوية نزاعنا معهم. ومن الذى سيعيش عشرة آلاف سنة؟... ومن الذى يريد أن يبذل كل جهده اليوم ليختصر ألف سنة تجىء بعد تسعة آلاف سنة؟.

وكيف يمكن أن نفهم أناسًا يفكرون على هذا النحو؟... وكيف نستطيع أن نتعامل معهم؟!».

* * *

وعندما خرجت من الصين راكبًا القطار الشهير فى كل القصص عن مغامرات الشرق - بين كانتون وهونج كونج، حرصت على أن ألتقى بعدد من الخبراء فى شئون الصين، الذين اتخذوا من هونج كونج قواعد يتسمعون فيها على ما يجرى فى ذلك البعد الشاسع أو يسترقون النظر عبر ما يسمونه ستار «البامبو».

وأظن أن «هونج كونج» تضم أكبر عدد من الخبراء فى شئون الصين والمتابعين لأمورها فلقد ظلت لسنوات طويلة أهم مراكز التنصت والمراقبة للتطورات، خصوصًا حينما كانت الصين مغلقة بالكامل أمام كل الزوار.

ولقد دعانى القنصل المصرى العام فى هونج كونج الاستاذ على برعى إلى فنجان شاى فى بيته مع عدد من هؤلاء الخبراء.

وفى شرفة مطلة من قمة جبل على المدينة التى تترامى وسط الخلجان الزرقاء، وتضىء أنوارها ببريق الألماس والياقوت والزمرد، قال لى أحدهم:

- هناك حقيقتان يجب ألا تنساهما عن الصين:

* **الأولى:** أن كل صينى يعتقد أن الصين هى مركز العالم، ولعلك تعرف أن الترجمة الحرفية فى الصينية لكلمة «الأجانب» تعنى بالضبط «البرابرة»!... وقد تتذكر خطاب الملك جورج الثانى ملك بريطانيا، حينما بعث إلى إمبراطور الصين «شين لونج» يعرب فيه عن رغبته فى إقامة علاقات تجارية بين بريطانيا والصين.

كان رد الإمبراطور الصينى بالحرف:

- إن الصين لديها كل ما تحتاج إليه، وهى ليست فى حاجة للتجارة مع البرابرة!».

* **الثانية:** هى أن كل صينى يعتقد أن الحق معه، وأن هذا الحق سوف يصل إليه مهما طال الزمن، والمهم بالنسبة له هو أن يعطى للتاريخ فرصة كاملة.

ولعلك تتذكر المثل الصينى الشائع الذى يقول:

ـ لا تنتقم... اجلس على حافة النهر وانتظر... وذات يوم سوف يجيء التيار حاملاً معه جثة عدوك !!».

* * *

وقد يكون غريبًا أن أبدأ حديثًا عن السياسة الخارجية للصين بهذه القصص الثلاث ودلالاتها وإشاراتها، ولكنى وجدتها معبرة أكثر من غيرها عن القسمات البارزة فى سياسة الصين تجاه العالم الخارجى:

١ ـ إن الصين صبورة، عملية جدًا فى صبرها، لا يستفزها شىء، ولا حتى عواطفها وشعورها.

(من ذلك مثلاً أنها تقبل حتى الآن بوجود قطعة منها وهى هونج كونج مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى، بينما هى قادرة على تحريرها بمجرد إبداء الرغبة فى ذلك.

خطاب واحد، من سطر واحد إلى الحاكم العام البريطانى فى هونج كونج، ويحمل الرجل حقائبه بعد أن يطوى فيها العلم البريطانى ويرحل).

وعندما سألتهم فى بكين:

ـ لماذا تقبل الصين بقوتها الراهنة، ومركزها الدولى الحالى، ببقاء جزء من ترابها خارج سيادتها؟».

كان ردهم ببساطة:

ـ هذا الأمر ليس مدرجًا الآن على جدول المهام العاجلة بالنسبة لنا».

وسألت نفس السؤال فى هونج كونج، ووجهته إلى المستشار السياسى للحاكم البريطانى العام فى المستعمرة، وكان رده:

ـ (هى الآن فيما يبدو لنا أنفع لهم.

ـ هى الطريق الأساسى لتجارتهم وكل ما يحصلون عليه من العملات الأجنبية.

ـ هى الآن معرض لكل منتجاتهم، يراها العالم دون أن يزعجهم بالذهاب إليهم.

ـ هى الآن ملتقى لكل منتجات العالم أمامهم، يرون عن طريقها كل ما يريدون رؤيته من منجزات التكنولوجيا الحديثة، دون أن يذهب مندوبو الشركات إليهم ويقيموا فوق أرضهم. وفى كل الأحوال فهم يعتقدون ـ وهذا صحيح ـ أنها تحت تصرفهم... حين يريدونها يحصلون عليها).

٢ ـ إن الصين تحسب بدقة خطواتها، وتتعلم فى هدوء من تجاربها وتجارب غيرها.

(من ذلك مثلاً أنها حرصت على البقاء بعيدًا عن الاشتراك المباشر فى حرب فيتنام التى دارت لأكثر من عشر سنوات على حدودها، وكان كثيرون يهاجمونها... وكان كثيرون يتهمونها، ولكنها لم تسمح لأحد بأن يستدرجها.

كانت تدرك أن الحرب المسلحة فى العصر الحديث محظور يجب تجنبه إلا فى حالة الضرورة القصوى... حالة الدفاع عن النفس فقط.

وعندما سألت فى بكين:

ـ ألم يكن صعبًا عليكم أن تمسكوا بأعصابكم إزاء التصاعد الأمريكى المستمر بالقرب منكم، وعلى مرأى ومسمع...؟».

كان الرد الذى قاله لى أحد كبار المسئولين الصينيين:

ـ لقد تعلمنا الدرس فى حرب كوريا.

فى حرب كوريا تدخلنا بأنفسنا فى القتال.

وعندما تدخلنا وجدنا أنفسنا فى اضطرار إلى انتظار العون من الاتحاد السوفيتى.

وكان العون يتأخر أحيانًا، وكنا نتمزق، ونعانى، وكنا أحيانًا نغضب ونستجدى ولكن كان علينا أن نتحمل، لأننا فى ميدان القتال، ولأن الأسلحة الحديثة تجيئنا من السوفييت.

الحكيم يتعلم الدرس من تجربة غيره.

والعاقل يتعلم الدرس من مرة واحدة.

وأما الذى يقع فى الفخ مرتين، فإنه ليس حكيمًا، وليس عاقلاً. وهكذا فإننا تعلمنا شيئًا مهمًا.

لا يكفى أن يكون فى يدنا ما نطلق به الطلقة الأولى فى الحرب، وإنما يجب أن يكون فى يدنا ما نطلق به الطلقة الأخيرة فى الحرب... ويجب أن يكون ذلك فى يدنا، وليس فى يد غيرنا، مهما كنا وكانوا).

٣ - إن الصين تفهم حركة التاريخ وتعتمد عليها.

وعندما يجىء إليها تيار التاريخ - مفاجأة أمام الآخرين - فإنه بالنسبة لها لا يكون مفاجأة...

عندما يجىء إليها تيار التاريخ - فجأة فى رأى آخرين - فإنها تفتح له الباب فى هدوء، وكأنه زائر جاء فى موعده.

(وكان ذلك بالتقريب هو التعبير الذى استعمله «ماوتسى تونج» فى تبرير دعوته للرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون، وكان قول ماوتسى تونج فى ذلك الوقت:

- إننا سمعنا طارقًا يدق باب الصين».

وسألناه:

- من الطارق؟».

وجاء الرد:

- ريتشارد نيكسون».

وفتحنا له الباب.

هكذا ذهب ريتشارد نيكسون رئيس الولايات المتحدة إلى الصين، حاملاً معه اعترافه.

وهكذا ذهب تاناكا رئيس وزراء اليابان إلى الصين حاملاً معه اعتذاره!).

* * *

والصبر ليس موقفًا سلبيًا، والاستفادة من التجربة يقظة مستمرة، كما أن انتظار تيار التاريخ لا يتحقق أثناء النوم!.

إن الصين خلال ذلك كله حققت وحدتها، وبنت نفسها، وعززت قوتها، حتى وصلت إلى مصاف القوى الأعظم فى هذا العصر.

شوط طويل طويل قطعته.

وكانت صيحة «ماوتسى تونج» الشهيرة تدفعها إلى العمل، وإلى مزيد من العمل، وكانت الصيحة الشهيرة هى قوله:

«كم من الأعمال الكبيرة تصرخ وتنادى من يتحمل بمسئولياتها.

أمسكوا بالساعة... أمسكوا باليوم!».

وتغير وضع الصين.

تغير كثيرًا منذ ذلك اليوم الذى جلس فيه «فرانكلين روزفلت» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب العالمية الثانية، يناقش مشاكل ما بعد الحرب، ويتحدث عن إنشاء الأمم المتحدة، ويناقش بعض مستشاريه فى الدول التى يكون لها حق العضوية الدائمة فى مجلس الأمن، وكان بعض هؤلاء المستشارين يرشحون الصين لمقعد دائم فى مجلس الأمن، ولم يكن روزفلت مقتنعًا...

ثم قال أخيرًا:

- أى مستقبل يمكن أن يكون للصين... وأى دور تستطيع أن تؤديه فى العالم الجديد؟

على كل حال سوف أوافق على أن يكون للصين مقعد دائم...

وسوف أوافق لغير الأسباب التى سمعتها منكم.

سوف أوافق حتى لا يقول العالم إن كل أصحاب المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن من الشعوب البيضاء، من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا.

سوف أعطى الصين مقعدًا دائمًا لمجرد أن يكون هناك مقعد دائم للملونين فى مجلس الأمن!».

تغير وضع الصين كثيرًا منذ ذلك الوقت.

وتغيرت الصورة كلها، إلى درجة لم تكن تخطر على البال، بفضل المقدرة على الصبر، والاستفادة من التجربة، والثقة بتيار التاريخ، وبناء القوة الذاتية.

* * *

وتنكر الصين حتى الآن، وبتواضع مثير، أنها أصبحت قوة عظمى.

لكن ما تراه العين لا تجدى الكلمة فى إنكاره!

والذى تراه العين هو أن العالم الآن فيه خمس من القوى الأعظم: الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى، فى المقدمة ووراءهما الصين، واليابان، ثم أوربا الغربية المتجهة إلى الوحدة.

وأخال أنهم فى الصين - برغم كل ما ينكرون - يدركون هذه الحقيقة الهائلة فى العالم المعاصر ويرسمون على أساسها:

* هم يدركون أن هذه القوى الخمس الأعظم على القمة العالمية، وإن تفاوتت الدرجات بينهم.

* وهم يدركون أن المستقبل المرئى - ما بين عشر سنوات وعشرين سنة - سوف يكون محكومًا بالتوازنات بين هذه القوى الخمس الأعظم.

* وهم يدركون استحالة الحرب العالمية على القمة بين الكبار، مع تسليمهم بأن التفاعلات لن تتوقف، خصوصًا فى العالم النامى.

* وهم يدركون أن هذه التفاعلات سوف تكون ميادين الصراع الصامت بين الكبار على النفوذ السياسى وعلى المصالح الاقتصادية.

* وهم يدركون أن هذه التفاعلات يجب أن تكون مضبوطة ومحكومة بما لا يؤدى إلى صدام مباشر بين الكبار.

* وهم يدركون من ذلك كله أن حالة التوازن يجب أن تراعى بحذر ودقة، لأن اختلال حركة الموازين قد يأتى بما لا يريده أحد، لأنه قد يفتح الباب لما لا يطيق تحمله أحد.

ولقد كان «شواين لاى» رئيس وزراء الصين بارعًا فى وصفه لشكل المتغيرات الجديدة فى العالم حين سألته عنها، وكان رده:

- تحالفات جديدة، وانقسامات جديدة، وفوضى - أو تفاعلات عنيفة - فيما عدا ذلك كله من بقية العالم!».

* * *

والآن كيف ترسم الصين وتمارس سياستها الخارجية تجاه غيرها من القوى الأعظم (تحالفات جديدة، وانقسامات جديدة)، ثم تجاه بقية العالم عدا الكبار (فوضى - أو تفاعلات عنيفة - فى كل مكان).

* * *

فى ظنى أن الصين، وبتشخيصها الحذر والدقيق لأحوال العالم المعاصر، تريد بالدرجة الأولى أن تكسب وقتًا تستكمل فيه بناء قوتها.

إن لديها قوة نووية، ولكن الولايات المتحدة لديها أكثر، والاتحاد السوفيتى لديه أكثر.

ثم إن طاقتها الاقتصادية تنمو، ولكن نمو اليابان أسرع، كما أن نمو أوربا الغربية أعمق... هذا فضلاً عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى اقتصاديًا.

لذلك تريد الصين أن تكسب وقتًا تحقق فيه المساواة الكاملة بينها وبين غيرها.

وتدرك الصين - فيما أتصور - أن حالة التوازن على القمة الدولية حالة طارئة،

مؤقتة، تفرضها ظروف تاريخية بعينها، ولكنها ـ أى حالة التوازن الراهنة ـ ليست دائمة.

وفى ذلك يقول ماوتسى تونج:

ـ إن بعض الناس يتصورون خطأ أن التوازن هو القاعدة، وأن اختلال التوازن هو الاستثناء وليس ذلك حقيقيًا، والحقيقى هو العكس.

خلل التوازن ـ بالصراع ـ هو القاعدة.

والتوازن ـ بتعادل القوى ـ هو الاستثناء.

حالة التوازن ثبات، وذلك معاد للحركة وهى قانون الوجود!

انظروا إلى القمر: ما هى المدة التى يتوازن فيها ويصبح بدرًا، أى دائرة كاملة تمامًا...؟

ليلة واحدة فى شهر!

وفى غير هذه الليلة، فإن خلل التوازن هو القاعدة».

هكذا تتصور الصين ـ فيما أظن ـ أن حالة التوازن الدولى الراهنة هى فرصتها لكسب الوقت ولتحقيق المساواة الكاملة مع غيرها من الكبار، وعلى هذا الأساس تمارس سياستها:

١ ـ عداؤها الأول موجه ضد الاتحاد السوفيتى، والأسباب كثيرة شرحتها من قبل، وأفاض فيها غيرى: صراع وطنيتين... نزاع حدود... خلاف عقائدى مستحكم، وخلاف العقائد أقسى وأعنف ما يكون عندما تنقسم العقيدة الواحدة، لأن الانقسام يتعدى درجة الاختلاف، ويصل إلى درجة الخيانة!

والمبارزات بين الصين والاتحاد السوفيتى مستمرة، وصلت إلى حد السلاح يومًا، ثم نزلت إلى تبادل الاتهامات الفلسفية، وتواضعت أحيانًا إلى لذعات السخرية.

وكنت أصعد سور الصين العظيم ذات يوم، وإلى جانبى «بنج هوا» مدير الصحافة الأجنبية بوزارة الخارجية الصينية، وهو من ألمع سفراء الصين...

وقال لى:

ـ لقد وصل بهم الحال يومًا ـ يقصد السوفييت ـ إلى درجة أن قالوا لنا إن حدود الصين الطبيعية يجب ألا تتعدى سور الصين العظيم!».

وقلت:

ـ وماذا كان ردكم؟».

قال:

ـ كان ردنا عليهم إذا كان ذلك صحيحًا فإن حدود روسيا الطبيعية يجب ألا تتعدى أسوار الكرملين!».

وأضاف «بنج هوا» بغير ابتسامة:

ـ سور الصين العظيم كان يحيط بدولة على أى حال... وأما سور الكرملين فليس فى داخله إلا قصر!!».

وكانت الصين فى يوم من الأيام تخشى ضربة إجهاض لقوتها الذرية النامية، تشترك فيها الولايات المتحدة وروسيا، تحت دعوى وقف «الخطر الأصفر» وقتل «التنين» قبل أن ينفث نيرانه، هكذا قالوا لى فى الصين.

ثم كانت الصين فى وقت من الأوقات تخشى ضربة إجهاض من روسيا وحدها لحل كل المشاكل دفعة واحدة، ولكى تكفى نفسها عناء حشد أربعين فرقة مدرعة طول الوقت على حدود الصين.

وكانت خشية الصين على أشدها أثناء تسوية مشكلة الأمن الأوربى، وقلقها من أن يطمئن الاتحاد السوفيتى إلى علاقاته فى الغرب، ومن ثم يتفرغ بالكامل إلى تسوية مشاكله فى الشرق!

وربما كان ذلك الاعتبار من أهم عوامل التقارب الصينى الامريكى.

٢ . إن العلاقات المتزايدة بين الولايات المتحدة والصين هى أغرب العلاقات بين القوى فى هذا العصر، وربما فى التاريخ.

عقائد مختلفة أشد الاختلاف.

حضارات متباعدة أشد التباعد.

مصالح متصارعة حتى الأمس القريب، حين كان الخط الأساسى الأول فى سياسة الولايات المتحدة هو حصر الصين واحتواؤها وإسقاط النظام الثورى فيها بأى وسيلة ولو بالقوة إذا سنحت لذلك فرصة مأمونة.

ومع ذلك فإن الأبواب لم تفتح فقط بين البلدين، وإنما تجرى الآن عملية إزالة الاسوار أيضًا.

ولقد عرفت على سبيل المثال أن الصحفى الأمريكى الشهير جوزيف ألسوب كان يزور الصين قبلى، وسألتهم فى بكين:

. كيف سمحتم له أن يجىء وقد بنى تاريخه الصحفى كله على العداء للثورة الصينية، وكان من أعنف الصقور فى الولايات المتحدة تحريضًا على غزو الصين؟».

وقلت:

. إن «ألسوب» صديقى، وأنا بالطبع لا أحرض عليه، كما أننى لا أحرض على أى رفيق فى مهنة القلم... ولكنى فقط أريد أن أفهم؟».

وكان الرد:

. إن الخط الجديد للرئيس ماو يقول:

«افتحوا كل الأبواب.

إن الذين كانوا أعداءنا قد يتخذون موقفًا أكثر اعتدالاً.

والذين كانوا معتدلين قد يصبحون أصدقاء.

والذين كانوا أصدقاء سوف يتأكد ويتقرر موقفهم معنا وتثبت رجاحة رأيهم».

وعلى وجه اليقين فإن أهداف كل من الصين والولايات المتحدة تبدو واضحة فى هذا التقارب.

* الصين تريد تعزيز موقفها تجاه الاتحاد السوفيتى بالتقارب مع الولايات المتحدة.

* والولايات المتحدة تريد أن تمارس لعبتها الدولية، خصوصًا فى آسيا، على الصراع بين الاتحاد السوفيتى والصين.

٣ - وتجاه اليابان، فإن سياسة الصين بالقطع تغيرت.

وأتذكر عندما قابلت الرئيس ماوتسى تونج فى موسكو فى نوفمبر سنة ١٩٥٧، وكانت هذه آخر زيارة له إليها، إنه قال ضمن ما قال خلال مناقشة طويلة فى قاعة المرمر بقصر الكرملين:

- إن الخطر المخيف فى العالم الآن هو عودة العسكرية اليابانية!

وأضاف ماو وقتها:

- وعودة العسكرية الألمانية».

ثم قال:

- إن الرأسماليين يبعثون إلى الحياة مرة أخرى بكل قوى العسكرية الفاشستية».

وفى هذه المرة فى بكين، فإننى لم أسمع أحدًا يشير إلى خطر العسكرية اليابانية، وتاريخها القريب مع الصين مشهور ومذكور.

وكان الاتحاد السوفيتى يتصور - فيما قدرت من بعيد - فى بداية سنة ١٩٧٢، أن بمقدوره أن يلعب على الخلفية التاريخية القريبة لعلاقات اليابان مع الصين، ولكن الصين تحركت فى نهاية العام بسرعة، واستقبل تاناكا رئيس وزراء

اليابان - فى بكين - استقبالاً حافلاً، نقلته الأقمار الصناعية طوال الوقت إلى طوكيو، وكان قادمًا فيما يقول الصينيون: ليقدم اعتذاره عن مساوئ العسكرية اليابانية.

ويبدو أن الاعتذار كان مقبولاً.

والأغرب أن «تاناكا» ذهب إلى الصين مستعدًا لدفع بلايين الدولارات على شكل تعويضات عن الماضى للصين، وإذا به يفاجأ بشواين لاى رئيس وزراء الصين يقول له:

- نحن لا نريد تعويضات... نريد أن نفتح صفحة جديدة فى علاقاتنا، وليذهب الماضى إلى النسيان».

وربما تعتقد الصين أن بمقدور إمكانياتها الذرية الحالية أن تردع اليابان، خصوصًا بقربها منها، وتعرضها كمجموعة جزر كثيفة لخطر داهم من أى تعرض ذرى... فضلاً عن أن تجربة هيروشيما مازالت فى أعماق الضمير اليابانى، كأنها كابوس داهم فى كل ليلة!.

٤ - وتحاول الصين أن تقفز عبر الاتحاد السوفيتى إلى أوربا الغربية، وتعتقد الصين أن ديجول كان ببصيرته التاريخية أول من اكتشف بوضوح، ودعا بأعلى صوت - إلى ضرورة فتح باب الشرعية الدولية أمامها.

وفضلاً عن ذلك، فإن الصين تعتقد أن أوربا الغربية الموحدة يمكن أن تساعدها فى حركتها المرنة، ودًا مع الولايات المتحدة وجفاء مع الاتحاد السوفيتى.

وأكثر من ذلك، فإن بعض العارفين بشئون الصين يرون أنها تعتقد أن أوربا الغربية الموحدة تملك قوة جذب خاصة بالنسبة لأوربا الشرقية الموالية للاتحاد السوفيتى.

ومن ثم فإن أوربا الغربية الموحدة تستطيع التأثير فى الاتحاد السوفيتى عندما تشد أوربا الشرقية إليها بأقرب مما هى الآن بالنسبة للاتحاد السوفيتى.

وقد تشعر الصين فى قرارة نفسها باحترام حضارى تجاه أوربا لا تستطيع قبوله بالنسبة للولايات المتحدة، أو بالنسبة للاتحاد السوفيتى.

وقد تشعر الصين أن التكنولوجيا الأوربية يمكن أن تصبح متاحة لها بحرية أكبر وأوسع.

....

....

ذلك كله فى فترة التوازن الدولى الحالى الاستثنائية - فى التقدير الصينى - والمؤقتة، وعبرها فإن الصين لابد أن تكون على قدم المساواة مع غيرها.. تكسب الآن وقتًا لكى تستعد للأوقات المتغيرة!

* * *

ونصل الآن إلى ما وراء القوى العظمى (إلى ما وراء التحالفات الجديدة والانقسامات الجديدة) ونتقدم إلى بقية العالم خارج هذا النطاق، خصوصًا العالم النامى (حيث الفوضى - والتفاعلات العنيفة - فى كل مكان).

وفى هذا المجال، فهم هناك للإنصاف لا يخدعون أحدًا.

يقولون وقد قالوها لى:

- اعتمدوا على قواكم الذاتية واستلهموا الحكمة من شعوبكم».

ويقولون وقد قالوها لى:

- إننا على استعداد لأن نساعدكم بما نستطيع، ولكن طاقاتنا مازالت محدودة، واهتماماتنا العملية فى حدود آسيا حتى الآن، والماء القادم من بعيد لا يطفىء الحريق القريب».

ويقولون وقد قالوها لى:

- ادرسوا بوعى متغيرات العالم واستخلصوا لأنفسكم منها ما تشاءون».

وتبقى فى مذكراتى صورة لوحة مكتوبة بالحروف الصينية وبخط ماوتسى تونج، رأيتها فى قيادة الفرقة ١٩٨، وقد دعانى قائدها لحضور مناورة عسكرية قامت بها فرقته.

وسألته: ماذا تقول هذه اللوحة ؟».

وقال لى:

- تحمل توجيهًا من ماوتسى تونج إلى الجيش الأحمر... تعلمه القتال وتعلمه السياسة، وفيها يقول ماو:

«احملوا السلاح دفاعًا عن حدودكم، وتأملوا فى نفس الوقت أحوال العالم وراء هذه الحدود... وافهموا».

الشرق أحمر

الإبَرُ والبَشَر

لا أعرف ماذا هو تمامًا، ولكنى رأيته فى أكثر من مكان فى الصين!

ولست أستطيع أن أجد الوصف الدقيق له، لأنه «حالة» أكثر منه «شيئًا» محددًا.

وقد أسميه «حالة عودة الروح إلى أمة»، أو «حالة شعور أمة بأنها عثرت على نفسها»، أو «حالة إحساس أمة بدورها»...

واحدة من هذه الحالات، أو ربما مزيج منها جميعًا!

* * *

وقلت إننى رأيت هذه الحالة فى أكثر من مكان فى الصين.

ولعلى أقول إن أكثر مكان رأيت فيه هذه الحالة بشكل حى ومثير، كان هو «مستشفى السلام» فى بكين، ذات صباح باكر، هبطت درجة الحرارة فيه إلى عشرين درجة تحت الصفر.

وفى الليلة السابقة اتصل بى «بنج هوا» مدير الصحافة الأجنبية فى وزارة الخارجية يقول لى:

- إنك طلبت أن تشاهد عملية جراحية تتم تحت تأثير الوخز بالإبر؟».

وقلت:

- نعم، ولكن أحد مساعديك وهو «شيانج شينج تسونج»، ذكر لى أنَّ هذه العمليات لا تجرى كل يوم، لأن الأمر يتوقف على استجابة المرضى، وبعضهم لا يزال يتردد».

وقال «بنج هوا»

ـ الحظ معك فيما يبدو، لأن هناك غدًا ثلاث عمليات جراحية سوف تجرى تحت تأثير الوخز بالإبر، وسوف تجرى كلها صباح الغد فى مستشفى السلام، وتستطيع أن تشاهدها جميعًا إذا استيقظت فى الوقت المناسب».

وقلت:

ـ إننى سوف أكون فى مستشفى السلام مع الفجر إذا اقتضى الأمر، لأننى أريدأن أرى بعينى».

* * *

كل المستشفيات فى بكين تحمل أسماء لها رنين: «مستشفى السلام»... «مستشفى الصداقة»... «مستشفى المحبة بين الشعوب»... إلى آخره!

وعلى باب مستشفى السلام فى بكين، والرياح تهب فى الصباح الباكر بقسوة، ولسعاتها أشبه ما تكون بضربات سياط من ثلج، كان الدكتور «تشيانج وى هو سيون» واقفًا فى انتظارى يقدم نفسه، باعتباره: «نائب رئيس اللجنة الثورية فى المستشفى».

رجل تجاوز الخمسين، ملامحه صينية محددة التقاطيع، قامته منتصبة، حيويته ظاهرة لأول وهلة...

وأعترف ـ آسفًا ـ أننى لم أقدره حق قدره فى اللحظات الأولى للمقابلة.

قلت لنفسى:

ـ ماذا سيكون؟ نائب رئيس اللجنة الثورية فى مستشفى السلام... سيكون طبيبًا متسيسًا، أو سياسيًا متطببًا، وهذه أحسن الفروض... وسوف يكون ما أسمعه منه ترديدًا حماسيًا لنفس العبارات الإنشائية التى يزيدون ويعيدون فيها ـ أحيانًا ـ فى الصين، ومع ذلك فليقل كل ما يريد أن يقوله، وليكن الإصغاء إليه تدريبًا آخر فى الصبر، ولكن المهم بعد ذلك أن أرى ما أريد أن أراه»!

* * *

وذهبنا إلى غرفة الاستقبال، وجلست معه. أسمعه يتحدث عن مستشفاه، وفى البداية كان ما سمعت هو ما توقعت.

«كل المستشفى الكبير فى خدمة الجماهير... مسئولياته تتسع لعلاج قرابة سبعمائة ألف متردد عليه فى السنة، لأغراض متعددة، من الكشف السريع إلى العمليات الجراحية المعقدة... ثم تطبيق تعاليم ماوتسى تونج فى الطب»!.

ووجدت أننا وصلنا إلى العبارات الإنشائية بأسرع مما قدرت، وقررت ألا أسكت، وقلت:

ـ دكتور تشيانج... هل نتحدث فى الطب أم فى السياسة؟

أنت رجل علمى بوصفك طبيبًا، وبهذا الوصف فإننى أريدأن أسألك ما هو دخل تعاليم «ماوتسى تونج» فى علاج الأمراض، وفى إجراء العمليات الجراحية؟».

وتوقعت أن يضيق «الدكتور تشيانج» بسؤالى المباشر على هذا النحو، ولكن الرجل للحق، ابتسم بهدوء وقال:

ـ إننى أتحدث عن الطب يا سيدى...

إن الرئيس ماو قال لنا:

«اخدموا الشعب، وعيشوا حياته، وتعلموا منه».

وهذا ما نحاول تطبيقه».

واستطرد الدكتور تشيانج:

ـ إننى أعرف ما يمكن أن يكون قد خطر على فكرك وأنت تسمعنى... مثل ذلك فكرت فيه أنا أيضًا فى يوم من الأيام، عندما قررت العودة من الولايات المتحدة الأمريكية، لكى أعمل وأعيش فى الصين».

وسألته مندهشًا:

ـ ماذا كنت تفعل فى الولايات المتحدة الأمريكية؟».

ورد الدكتور تشيانج:

- إن أسرتى كانت تقيم هناك فى كاليفورنيا، وقد درست الطب شخصيًا فى جامعتها، وحصلت من هناك على درجة الدكتوراه فى طب الأطفال، وعرضوا علىّ أن أعمل أستاذًا لطب الأطفال فى جامعة كاليفورنيا وقبلت لفترة، ولكننى أحسست بنداء الصين، وركبت باخرة من سان فرانسيسكو وعدت إلى وطنى، وكان ذلك فى بداية نجاح الثورة فى تحرير الصين».

وأمسكت بالفرصة وقلت:

- دكتور تشيانج، ألا نستطيع أن نتحدث بالإنجليزية، ونوفر الوقت الضائع فى الترجمة من الصينية وإليها...

إنك تثير فضولى فى أشياء كثيرة، وأتمنى أن يكون حديثى معك مباشرًا».

ورد بإنجليزية مدهشة:

- كما تشاء يا سيدى».

واستطرد:

- ولكن دعنى أقدم لك تمهيدًا سريعًا عن استخدام الوخز بالإبر وإجراء العمليات الجراحية تحت تأثيره... إن العمليات الثلاث التى ستشهدها سوف تبدأ بعد دقائق، ولابد أن ننتقل إلى مسرح العمليات، وهو من ثلاث غرف متصلة، وكل واحدة منها سوف تشهد عملية جراحية يجرى التخدير فيها بواسطة الوخز بالإبر.

كنت قد ذكرت أمامك قول الرئيس ماو:

«اخدموا الشعب، وعيشوا حياته، وتعلموا منه».

عندما نطبق ذلك فى الطب فسوف نأخذ الوخز بالإبر كنموذج عملى.

الوخز بالإبر فى الصين قديم.

وفيما عدا استخدام الوخز بالإبر فى علاج بعض الأمراض، فلقد ثبت أن الوخز بالإبر فى بعض مواضع الجسم يمنع الإحساس بالألم تمامًا.

إننا لم نستطع بالعلم الحديث أن نجد تفسيرًا كاملاً لذلك.

وكنا بين أحد أمرين:

أن نترك التجربة حتى نستطيع الوصول إلى أعماقها ونكشف كل خباياها.

أو أن نمارسها وفقًا للقواعد القديمة التى ثبت نجاحها، ثم ندرس ونحاول أن نستكشف من خلال الممارسة.

إذا كنا نريد أن نتعلم من الشعب، فإننا لا نستطيع أن نلقى إلى البحر بتجاربه.

علينا أن نمارس طبقًا لهذه التجارب.

وعلينا أن ندرس، وأن نزيد علمنا كل يوم بما ندرسه، حتى نصل إلى وضع القانون العلمى الذى يشرح ويسبب وينظم كل شىء بالنسبة للوخز بالإبر.

إن هناك آراء كثيرة.

بعض هذه الآراء يقول إن الإبر عندما تغوص فى أعصاب معينة تعزل إشارات الألم الصادرة من المخ.

وهناك آراء أخرى.

ولكن الثابت المجرب أمام عيوننا، هو أن الوخز بالإبر فى مواضع معينة يحقق عزل الألم بالكامل، ومن ثم تجرى العملية الجراحية لأى مريض وهو فى كامل وعيه وإدراكه، دون إحساس بالألم.

هذه مسألة مهمة لعدة أسباب:

* هناك مرضى لا تستطيع قلوبهم أن تتحمل وطأة أدوية التخدير المعروفة مضاعفاتها.

* هناك عمليات جراحية يتمنى فيها الجراح لو استطاع أن يحصل على تعاون المريض الواعى معه بينما هو يجرى له العملية الجراحية.

* هناك ظروف واجهناها كثيرًا، ولم تكن هناك الأدوية المخدرة الكافية بينما الإبر فى متناول أيدينا باستمرار.

هناك مشكلة واحدة فى إجراء العمليات تحت تأثير الوخز بالإبر، وهذه المشكلة هى أن المريض يكون أحيانًا فى حالة توتر نفسى لأنه يشعر بكل ما يجرى حوله ويراه بعينه، بينما ضرورات نجاح العملية الجراحية تقتضى أن يكون المريض مستريحًا تمامًا ومسترخيًا.

لكن المزايا فى كثير من الحالات تفوق المشاكل.

والمسألة فى النهاية تتوقف على رغبة المريض، ونحن لا نفرض عليه شيئًا.

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نجرب؟... لماذا لا تستمر التجربة حتى نتوصل إلى القانون؟... وإذا توصلنا إلى القانون العملى فى هذه المسألة فإن ذلك سوف يكون إسهامًا عالميًا فى فرع من أهم فروع الجراحة...

ألا توافقنى؟».

* * *

ولم ينتظر الدكتور تشيانج حتى أجيب عليه، ولعله لاحظ أننى كنت أفكر فيما يقول وأنتظر بفارغ صبر ما سوف أرى، ومن هنا فإنه استطرد:

- سوف نذهب الآن إلى قاعات العمليات... قبلها سوف نمر على غرفة التعقيم، وسوف أرجوك أن تخلع ملابسك وأن ترتدى ملابس طبية معقمة».

وسألنى فجأة:

- هل تخشى من منظر الدم»؟

وقلت:

- إننى كنت فى يوم من الأيام مراسلاً حربيًا، وأرجو ألا أكون قد نسيت ما تعلمت من معايشة المأساة الإنسانية العظمى: أعنى الحرب».

وقال دكتور تشيانج:

- إذا أحسست فى أى لحظة أنك لا تستطيع أن تتحمل، فلك أن تشير إلىّ، وسوف نخرج على الفور من غرف العمليات».

وتوجهنا عبر ممر طويل من قاعة الاستقبال إلى غرفة التعقيم، وكان كل شىء معدًا، بما فى ذلك ملابس طبية معقمة خرجنا بها فى اتجاه غرف العمليات الثلاث.

وهناك كانت لحظة البداية على وشك أن تجىء.

* * *

وطفت مع الدكتور تشيانج بالغرف الثلاث:

* على مائدة العمليات فى الغرفة الأولى مريضة اسمها «تينج يا فانج»، عمرها ٤٦ سنة، أظهر الفحص، كما كشفت الأشعة، عن وجود ورم فى بطنها يحتمل أن يكون خبيثًا.

وبعد خمس إبر تغرس فى الرأس والأنف، سوف يفتحون بطنها ويستأصلون الورم.

* على مائدة العمليات فى الغرفة الثانية مزارع شاب اسمه «لو يانج فى» عمره ٢٤ سنة، أظهر الفحص، كما كشفت الأشعة، عن وجود ورم فى غدة رقبته.

وبعد ثلاث إبر تغرس فى الأذن، فإنهم سوف يفتحون رقبته، على طول المسافة بين الأذنين، ثم يستأصلون الورم.

* على مائدة العمليات فى الغرفة الثالثة عامل فى مصنع من مصانع المعادن اسمه «ليانج لى»، وقد حدث له أثناء عمله أن طارت شظية معدنية واستقرت داخل قرنية العين.

وبعد ثلاث إبر تغرس فى رأسه، فإنهم سوف يفتحون قرنية العين ويحركون كتلة مغناطيسية مركبة على جهاز خاص ثم يجيئون بها أمام القرنية المفتوحة لتشد بجاذبيتها شظية المعدن المستقرة فيها.

* * *

ووقفت فى ركن من غرفة العمليات الأولى مع الدكتور تشيانج أرقب ما يجرى.

الإبر توضع فى مكانها بواسطة ممرضة مدربة.

المريضة تتكلم مع الممرضة.

يجىء الطبيب المكلف بإجراء الجراحة لها ويتحدث معها... البطن كله مكشوف، وإحدى الممرضات تجرى عليه بمادة مطهرة... الجراح يمسك مبضعه ومن حوله مساعدوه... ويمضى المبضع الحاد على البطن يشقه تمامًا... والمريضة تراقب ما يجرى وتتكلم وتبتسم... وأنا فى ذهول، لا أصدق ما أراه بعينى... ويهمس الدكتور تشيانج فى أذنى:

- هل ننتقل إلى قاعة العمليات الثانية... العملية التى تراها الآن سوف تستغرق ساعة؟».

وأنتقل إلى الغرفة الثانية معه، وهناك نفس المنظر: الجراح يفتح رقبة «لو يانج فى» وهو أيضًا يبتسم ويتكلم.

ونذهب إلى الغرفة الثالثة.

ثم نعود إلى حيث بدأنا... إلى حيث «تينج يا فانج»، وأجد الجراح يقول لها:

- «تينج يا فانج... إننا استأصلنا ورمًا كبيرًا من بطنك، ولكن هناك ورمًا آخر أصغر منه ما زال مختفيًا وسط الأمعاء، وأريد منك أن تساعدينى بأن تضغطى حتى يبرز هذا الورم المختفى».

وتبتسم «تينج يا فانج» وتروح تضغط بعضلات بطنها المفتوح.

وتضغط... وتضغط...

وفجأة يقفز وسط الدم ورم آخر صغير يستأصله الجراح بدوره.

وأقول للدكتور تشيانج:

- دعنا نذهب الآن من هنا».

* * *

ونذهب إلى غرفة التعقيم ونحن بعد بملابسنا الطبية، ولكننا نزيح الأقنعة عن أفواهنا وأنوفنا ونجلس لنتحدث.

وأقول صراحة لمن حولنا من المرافقين والمترجمين، إننى أريد أن أتحدث وحدى مع الدكتور تشيانج، وأريد أن يكون حديثى معه مباشرًا وصريحًا.

ويبتسم الدكتور تشيانج ويقول:

- إننى أتصور ما تفكر فيه، وسوف أحاول قدر ما أستطيع أن أشرح لك ما تريد أن تسمعه منى».

واستطرد:

- أظنك سوف تسألنى هل أنا باق هنا باختيارى، أم أن أحدًا يفرض علىّ الإقامة هنا.

سوف أقول لك بأمانة.

كان فى استطاعتى أن أبقى فى الولايات المتحدة.

إننى بعد أن عدت إلى الصين زرت الولايات المتحدة أكثر من مرة، وتلقيت عروضًا كثيرة للعمل بها، ولكنى اعتذرت.

كنت أشعر أن نداء الصين أقوى من أى نداء.

قد يقال لى إن مغريات الحياة المادية هناك كثيرة، ولكن صدقنى هى لا تعنى بالنسبة لنا هنا ما تعنيه بالنسبة لغيرنا.

إننى زرت عددًا من زملائى الأساتذة فى جامعة كاليفورنيا، ورأيت كيف يعيشون.

كل واحد منهم لديه بيت كبير.

ولديه سيارتان أو ثلاث.

وبعضهم لديه يخوت فى البحر.

أنا هنا أعيش فى غرفتين اثنتين.

ولا أملك سيارة، وإنما أملك دراجة.

وليس لدى يخت، وليس ذلك من أمانى.

لقد أحسست أن هناك شيئًا فى الصين يريد أن يعطى لشعبها حياة جديدة، واعتقدت أن علىّ واجب المشاركة فى صنع هذه الحياة.

لقد حاولت أن أطبق تعاليم ماو.

قال: «اخدموا الشعب»، وبذلت كل جهدى.

وقال: «وعيشوا حياته»، وتطوعت لمدة سنتين للعمل فى الريف مع فيلق من فيالق الإنتاج.

تسألنى أليس ذلك ضياعًا لوقتى كمتخصص؟ وأقول لك:

- إننى تعلمت الكثير من العمل فى الريف مع الفلاحين.

فهمت أشياء كثيرة كانت غائبة عنى.

أدركت كم كنا بعيدين عنهم، نشخص أمراضهم وكأننا فى السماء، ونصف لهم الدواء وكأننا وسط النجوم.

وهذا خطأ.

لا تستطيع أن تعالج أحدًا إلا إذا عشت حياته، إلا إذا فهمت جوانب هذه الحياة وزواياها، إلا إذا عرفت كيف يفكر، وكيف يشعر؟

أقول لك أيضًا إننى اكتشفت أشياء كثيرة.

تعلمت أكثر مما كنت أتصور عن الأعشاب الصينية وأثرها فى العلاج.

سألت نفسى:

- لماذا نضع ثقتنا كلها فى الأقراص بأشكالها المختلفة، وفى الكبسولات بألوانها

المتعددة ولماذا ننسى الطب التقليدى الذى جربته شعوبنا آلاف السنين ووجدت فيه شفاء؟

لماذا لا نبحث فيه؟ لماذا لا ندرس حوله؟

هل يدهشك لو قلت لك إن أكثر من ثلاثة أرباع الدواء الذى نصفه للمرضى فى الصين كلها هو الآن من الأعشاب الصينية؟

لقد اقتنعت هناك أيضًا بفكرة الرئيس ماو عن «الأطباء الحفاة».

لو حاولنا أن نخرج أطباء على أعلى درجات التخصص لكل مرض ولكل مريض فى الصين لعجزنا.

ولكننا نستطيع أن ننجح إذا استطعنا أن نجد لكل حاجة ما يلبيها تمامًا... لا أكثر ولا أقل.

معظم أمراض الريف صداع، ونزلات معوية، ونزلات برد.

ما هى الضرورة لأعلى درجات التخصص؟

إن الرئيس ماو اقترح أن ندرب من بين الفلاحين من يستطيعون علاج هذه الحالات، بحيث لا تزيد مدة التدريب على ستة شهور أو سنة على أكثر تقدير.

ولدينا الآن مئات الألوف ممن نسميهم الأطباء الحفاة.

هم ليسوا حفاة من الأحذية... ولكنهم حفاة من الشهادات العليا المتخصصة...

والريف لا يحتاج إلى أكثر من ذلك فى أمراضه العادية، وأى واحد من الأطباء الحفاة يستطيع أن يحول إلى أقرب مستشفى ما يرى أنه غير قادر على علاجه.

هناك الآن، كما قلت لك، مئات الألوف من الأطباء الحفاة على طول وعرض الريف الصينى. وهم يحملون عبء ثمانين فى المائة على الأقل من الخدمة الصحية لثمانمائة مليون إنسان فى الصين، ولك أن تتصور مقدار الجهد الذى كان لازمًا لو أخذنا

بالمنطق التقليدى، ولم نسمح بالممارسة الطبية على أى مستوى إلا لخريجى كليات الطب فى الجامعة».

واستطرد الدكتور تشيانج:

ـ تسألنى... أليس فى أعماقى صراع بين عالمين... عالم رأيته فى الولايات المتحدة، وعالم أعيشة هنا فى الصين؟

دعنى أعترف لك.

خطر لى ذلك فى البداية.

ولكن ذلك لم يطل أمده بالنسبة لى وعاد إلىّ استقرارى النفسى.

لا أحد يرغمنى على ما أفعله هنا.

لقد عشت فى أمريكا، ولكنى صينى.

وأنا هنا أعيش فى الصين... لا أعيش على أرض الصين فقط، ولكنى أشعر أننى أعيش حياة الصين.

حينما أركب الدراجة كل يوم من البيت إلى المستشفى، وأندفع بها وسط آلاف من راكبى الدراجات الذاهبين إلى أعمالهم فى الصباح الباكر، أشعر أننى جزء من كل... أشعر بالانتماء الحقيقى... انتماء قطرة إلى تيار متدفق: إن القطرة قادرة على أن تجد نفسها فى التيار المتدفق، كما أن التيار المتدفق قادر على أن يجد نفسه فى كل قطرة منه».

ويستطرد الدكتور تشيانج:

ـ تسألنى أيهما النداء الذى يشدنى أكثر...؟

نداء الثورة أو نداء الصين.

الحقيقة أننى لا أفرق بين الاثنين.

لو كانت الثورة بغير الصين لما شدتنى إليها بالوطنية.

ولو كانت الصين بغير الثورة لست أعرف كيف كان يمكن أن أقاوم وحدى، ربما كنت وجدت من السهل علىّ أن أقيم فى أمريكا.

هناك صلة ما بين الوطن... وبين القيم السائدة فى المجتمع الذى يعيش ويعمل على أرض هذا الوطن.

أليس هذا صحيحًا؟»

وقلت:

ـ دكتور تشيانج... ذلك صحيح إلى أبعد الحدود!»

* * *

ومضت دقيقة صمت... ولم أكن أعرف فيما يفكر هو، لكنى كنت أعرف أين كانت أفكارى.

وفتح باب غرفة التعقيم، ودخل أحد الأطباء يقول:

ـ ألا تريدون أن تروا المرضى بعد أن انتهت عملياتهم؟».

وقلت:

ـ هل سنضع مرة أخرى أقنعة التعقيم؟».

وقال الدكتور تشيانج:

ـ لا داعى لذلك الآن، لأنهم سوف يجيئون إلينا هنا فى طريقهم إلى أسرتهم فى عنابر المستشفى».

وبينما كنت لا أزال أنتظر معنى ذلك، إذا بالمريضة التى كان بطنها مفتوحًا منذ ساعة، جالسة على سرير فوق عجل تضحك وتتحدث.

وإذا ذلك الشاب الذى رأيت رقبته تقطع من الأذن إلى الأذن يمشى على قدميه ويهز يدى مصافحًا.

وإذا الثالث بضمادة على عينه، التى شهدت عملية جراحية معقدة، يمشى هو الآخر فى أعقابهما.

وقال الدكتور تشيانج:

ـ هذه أول تجربة ترى فيها الجراحة تحت تأثير الوخز بالإبر... على أى حال أنت أول زائر جاءنا إلى هذا المستشفى من مصر».

وقلت له:

ـ «دكتور تشيانج... أتمنى ألا أكون آخر زائر من مصر يجىء إليكم... وليس فقط لمجرد رؤية الوخز بالإبر!!».

غداء مع سيهانوك

إنسان: نصف ثائر ونصف فنان!

... القاء مع الأمير «نوردوم سيهانوك» رئيس دولة كمبوديا، تجربة «لطيفة» دائمًا.

وقد اخترت الوصف بعد جهد فى البحث.

لم أستعمل مثلاً فى وصف اللقاء مع سيهانوك أنه تجربة «خطيرة»، أو «مثيرة»، أو «كبيرة»، أو غير ذلك مما يخطر على البال تلقائيًا إزاء المقابلات مع شخصيات سياسية عالمية، ذلك لأن سيهانوك ليست لديه أخبار تقيم الناس وتقعدهم، وليست لديه أفكار لها القدرة على تغيير شكل الدنيا أو التأثير فيه.

وربما كان أصدق ما يمكن أن يقال عنه، إنه رجل أحب الحياة كثيرًا، وأحبه كثيرون فى هذه الحياة. وأتذكر أن جمال عبد الناصر كان من بين الذين يحبونه، وأتذكر أن نهرو قال لى عنه يومًا وصفًا لا أنساه... قال نهرو:

- إن سيهانوك فى اجتماعاتنا - كان يقصد اجتماعات الدول الآسيوية والأفريقية واجتماعات الدول غير المنحازة - مثل باقة زهور ملونة وبهيجة.

ربما نختلف فيها من حيث الفائدة.

ولكنها بالتأكيد تضيف إلى الجو وتضفى عليه لمسة خاصة».

وقال لى سيهانوك نفسه عندما لقيته أخيرًا فى بكين:

- إن ماوتسى تونج قال لى عندما قابلته مرة:

نوردوم... أنت أمير، وأنا لا أحب الأمراء، ولكن الغريب أننى أحبك واستمتع بالحديث معك أكثر مما أستمتع به مع بعض القادة الثوار أو الذين يدعون الثورية».

ويغرق سيهانوك فى الضحك كأنه رجل خلى البال يعيش ليأكل ويشرب ويغنى

ويرقص ويؤلف ألحانًا لموسيقى الجاز يسجلها على أسطوانات ويقدمها لأصدقائه، وإن كان قد تطور أخيرًا وألف سيمفونية فى تحية الرئيس ماوتسى تونج، أهدانى أسطوانة منها، أعترف أننى لم أسمعها حتى الآن.

ولسيهانوك ميزة أخرى، ذلك أن ظروفه أتاحت له أن يعيش وسط الكبار، وأن يلاحظ تصرفاتهم، وأن يسمع منهم، وبالتالى فهو ملىء بالحكايات والذكريات، ولأنه ذكى فإنه فى كثير من الأحيان يستطيع أن يقول ملاحظات نفاذة يمكن أن تكون لها قيمة تاريخية.

وقصته مثل قصة الهند الصينية ـ التى تنتمى كمبوديا إليها ـ مليئة بالمتناقضات:

* هى ـ الهند الصينية ـ تعيش تحت ظل الصين، ولكنها تحاول أن تحتفظ بتوازنها بقدر ما تسمح الظروف فى هذا العالم للمطحونين أن يحتفظوا بتوازنهم.

أصبحت فيتنام الشمالية مثلاً شيوعية.

وارتمت لاوس فى أحضان الولايات المتحدة الأمريكية.

وحاول سيهانوك فى كمبوديا أن يسلك طريق عدم الانحياز.

* والحرب فى الهند الصينية لم تنقطع، ولم يتوقف دوى الرصاص منذ قرابة الأربعين عامًا حتى اليوم.

ثورة ضد الفرنسيين أولاً... ثم مقاومة ضد اليابانيين... ثم عودة إلى الحرب ضد الفرنسيين عندما عادوا إلى الهند الصينية بعد هزيمة اليابان... ثم قتال ضد الولايات المتحدة منذ أخذت بالاستعمار الجديد دور الإمبراطوريات القديمة المنهارة.

* وشهدت الهند الصينية أبطالاً تاريخيين مثل «هو شى منه»، وشهدت شخصيات أسطورية مثل «الجنرال جياب» بطل ديان بيان فو، التى انهزم فيها الجيش الفرنسى العريق أمام عصابات الثوار نصف العراة تحت قيادة جياب، وشهدت أميرًا شيوعيًا يقود جيشًا من الحمر ضد أسرته هو الأمير «سوفانا فونج» قائد حركة «الباثيت لاو» فى لاوس، وشهدت عملاء للولايات المتحدة الامريكية مثل

الجنرال فان ثيو رئيس فيتنام الجنوبية، وشهدت أدوات للمخابرات المركزية الأمريكية مثل الماريشال «لون نول» الذى قام بانقلاب على سيهانوك واضطره أن يقود حركة تحرير كمبوديا من بكين.

* وعاشت الهند الصينية ملحمة بطولة مجيدة، تتمثل فى مقاومة الشعب الفيتنامى، وعاشت مذابح رهيبة، وأقرب التقديرات إلى الصدق تقول إن شعوب الهند الصينية فقدت فى حروبها المتصلة والمستمرة أكثر من أربعة ملايين قتيل، والغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية صرفت وحدها على هذه العملية من القتل المنظم ١٥٠ بليون دولار ـ أى ١٥٠ ألف ألف مليون دولار ـ وأغرب من ذلك أن هناك الآن خلافًا بين الولايات المتحدة الأمريكية وفيتنام الشمالية، حول المعونة التى يجب أن تقدمها الأولى للثانية، إسهامًا فى إعادة البناء والتعمير.

تعرض الولايات المتحدة بليونين ونصف بليون دولار، وتصر فيتنام الشمالية على أن أربعة بلايين دولار هو أقل ما تستطيع القبول به من الولايات المتحدة!

* * *

فى وسط هذا كله، كانت حياة «نوردوم سيهانوك» قصة متناقضات أخرى.

كان أبوه ملكًا على كمبوديا، وكان هو أميرًا شابًا يرأس وزارة كمبوديا.

واختار طريق عدم الانحياز، واتجه نحو الاشتراكية.

ومات الملك، وتنازل الأمير عن حقه فى العرش، وتقدم للانتخابات الشعبية، واختير رئيسًا للدولة.

ولم يكن فى حياته شىء كامل على الإطلاق.

كان نصف سياسى، ونصف شاعر، ونصف فنان.

وكان صديقًا للنخبة اللاهية اللاعبة فى العالم، وفى نفس الوقت كان صديقًا لكل الثوار الكبار فى عصره، من ماوتسى تونج، إلى شواين لاى، إلى نهرو، إلى عبدالناصر، إلى تيتو.

وكانت العواصف من حوله أقوى من طاقته، ويقول هو فى جملة بارعة، وصادقة، يقول وهو ما يزال يضحك من قلبه:

- إن مشاعرى تمزقت بين الذين أحبونى، وبين الذين خانونى.

خاننى الأمراء وأنا منهم... ووقف بجانبى الشيوعيون مع أننى من الأمراء!».

* * *

وكان لقاؤنا فى القصر الذى يقيم فيه فى بكين، وكان فى الأصل مقرًا لوزارة الخارجية الصينية، وبعد انتقال وزارة الخارجية الصينية منه إلى مبناها الجديد - الذى شارك موظفوها فى بنائه بأيديهم - فإن شواين لاى وضع القصر تحت تصرف سيهانوك عندما قرر الإقامة فى الصين ليقاتل ضد الانقلاب العسكرى الذى قاده ضده قريبه وصديقه «الماريشال لون نول» وكان سيهانوك نفسه قد اختاره رئيسًا للوزراء.

وبدأ لقاؤنا فى الثانية عشرة ظهرًا، واستمر حتى الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر، وتخلله غداء دعانى إليه سيهانوك على مائدة تملؤها الشموع والزهور، ويشعر الإنسان عليها أنه انتقل فجأة من الصين إلى الريفييرا الفرنسية، التى كانت مرتعًا لمغانى سيهانوك فى أيام خوال.

وكان كل شىء فى الطعام فرنسيًا من أول رشفة من حساء البويابيز - حساء السمك الشهير فى مارسيليا - إلى آخر قطرة من الشمبانيا التى كان سيهانوك يشربها مع غدائه.

ولعله وجد من الضرورى أن يقدم لى تفسيرًا فقال... ضاحكًا من قلبه مرة أخرى:

- هناك حدود لما تستطيع معدتى أن تتحمله من الأطباق الصينية... لهذا فإن معى طباخًا فرنسيًا».

ولم يتوقف طوال أربع ساعات ونصف الساعة عن الكلام، ومن قلبه، ولم

يتوقف أيضًا عن الضحك، ومن قلبه أيضًا، حتى وهو يتحدث عن الخيانة والخونة ويقسم الخونة إلى أنواع قائلاً:

- هناك نوعان من الخونة: خونة أقوياء مثل الجنرال ثيو فى سايجون (عاصمة فيتنام الجنوبية).

وخونة ضعفاء مثل الماريشال لون نول فى بنوم بنه (عاصمة كمبوديا).

الخونة الأقوياء تستطيع أن تجد فيهم شيئًا.

والخونة الضعفاء لا تستطيع أن تجد فيهم شيئًا...

الخونة الأقوياء مصيبة.

والخونة الضعفاء عار.

كنت أريد لكمبوديا على الأقل خائنًا قويًا نقول إنه مصيبة، ولكن المحزن أن الخائن الذى جاءنا كان ضعيفًا، وهذه إهانة لشعب كمبوديا ولى».

ويستطرد بحكمة نفاذة يقول:

- عندما نختار الأغبياء علينا أن ندفع الثمن... إننى أنا الذى اخترت لون نول رئيسًا لوزراء كمبوديا، وكنت أقول لنفسى إنه غبى ولا يستطيع أن يفعل إلا ما أقول له...

مشكلتنا عندما نختار الغبى أن غيرنا يقول له أيضًا.

إذا اخترت من أعتقد أنه سيكون ألعوبة فى يدى... فما هو ضمانى لئلا يكون الألعوبة فى يد غيرى... خصوصًا إذا لم تكن يدى هى الأقوى؟

من هنا تعلمت الدرس، ولكنى تعلمته بعد فوات الوقت... بعد الساعة الثانية عشرة مساء!».

ولقد اكتشف سيهانوك بعد أن انتهى لقاؤنا الطويل، أنه لم يقل لى أشياء كان

يريد أن يقولها، وهكذا تلقيت منه فى اليوم التالى خطابًا طويلاً بالفرنسية كتبه بخط يده، يضيف فيه ما غاب عنه ذكره أثناء اللقاء.

* * *

وكانت كمبوديا بالطبع بداية حديثة، ونحن بعد فى الصالون لم ننتقل إلى قاعة الطعام.

قال لى:

ـ إن قوات الجبهة الوطنية فى كمبوديا تسيطر الآن على ٨٥٪ من أراضيها، ونظام «لون نول» محاصر فى «بنوم بنه»، وبعض المدن الأخرى.

أراد «لون نول» بانقلابه على أن يكون ملكًا، فلم يصنع أكثر من أن حول نفسه إلى سجين.

الجبهة الوطنية للمقاومة الكمبودية تضم كل الشعب، حتى الشيوعيين، ولكنهم يدينون بالولاء لى وللملكية... أليس هذا غريبًا؟

لست أنا الذى أقول إن قواتى تسيطر على ٨٥٪ من أراضى كمبوديا، ولكن صحف أمريكا نفسها تعترف بذلك، وقد أعددت لك مجموعة من قصاصات هذه الصحف لكى تراها بنفسك شهادة على الحقيقة».

واستطرد سيهانوك:

ـ إن الاتفاق بشأن إنهاء الحرب فى فيتنام لن يحل مشكلة الهند الصينية... لن يحل مشكلة كمبوديا... نحن سنواصل القتال... والصين سوف تساعدنا، وقد وقعنا معهم اتفاق معونة عسكرية قبل أن يعلن توقيع اتفاق فيتنام فى باريس.

ولقد أرسلنا إلى كمبوديا... إلى المناطق المحررة، كميات هائلة من المعدات والذخائر، وحتى لو حاول الأمريكيون حصارنا، فإننا بما استطعنا تخزينه قبل اتفاق باريس، نستطيع مواصلة الحرب لمدة سنتين على الأقل.

لقد كنا نخسر ستين فى المائة من المواد الحربية التى ننقلها إلى كمبوديا بواسطة فيتنام الشمالية على طريق هو شى منه.

الغارات الأمريكية مخيفة.

والآلات الإلكترونية التى يستعملونها مروعة.

ولكن ذلك لن يوقفنا.

لا تتصور مقدار التضحيات التى تحملوها فى فيتنام الشمالية... تضحيات لا يتصورها عقل ولا قلب.

إن الوفاق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة كان عنصرًا مؤثرًا فيهم، لكنى أعرف قادة فيتنام الشمالية كلهم، وأعرف أنهم لن يتوقفوا قبل تحقيق وصية هو شى منه.

إننى حضرت جنازة هو شى منه فى هانوى، وعرفت بقصة وصيته.

كتبها قبل أن يموت بأيام، وكتبها بخط يده، وسلمها وهو على فراش الموت لهم جميعًا، وكانوا واقفين حول سريره.

إن الوصية تقول: «إن روحى لن تهجع فى الملكوت السماوى قبل أن تتحرر فيتنام كلها وتتوحد».

إن هذه الوصية سوف تظل دافعهم فى فيتنام حتى يحققوا له ما أراد».

* * *

ويستطرد سيهانوك:

ـ لا أثق فى الولايات المتحدة. فى يوم من الأيام كنت ضيفًا على كيندى فى البيت الأبيض... تصورت أننى أستطيع أن أثق فيه.

لكن الرئيس فى الولايات المتحدة ليس كل شىء.

هناك قوى و مصالح كلمتها نافذة حتى عليه... حتى على البيت الأبيض.

لا أعرف ماذا يريدون الآن فى الهند الصينية ... ماذا يريدون بفيتنام شمالاً وجنوبًا ... ماذا يريدون بلاوس ... ماذا يريدون بكمبوديا ؟

مخاوفى أن هدفهم هو تقسيم الهند الصينية إلى شظايا أكثر مما هى عليه الآن من شظايا.

قسموا فيتنام فى مؤتمر جنيف سنة ١٩٥٤، بين شمال وجنوب بدلاً من فيتنام واحدة، أصبح لدينا ٢ فيتنام.

ما أخشاه الآن هو أن نجد لدينا ٣ فيتنام.

فيتنام فى الجنوب فى سايجون، وفيتنام تحت الجبهة الوطنية فى المناطق المحررة فى الجنوب، وفيتنام فى الشمال فى هانوى.

ما أخشاه أنهم سوف يحاولون تقسيم لاوس إلى اثنتين.

ما أخشاه أنهم سوف يحاولون تقسيم كمبوديا إلى اثنتين!».

* * *

ويستطرد سيهانوك:

- أحيانًا أحار فى فهم السوفييت أيضًا.

إننى كنت فى الاتحاد السوفيتى حينما جاءت الأنباء الأولى عن بداية القلاقل التى وقعت فى كمبوديا وأدت إلى قيام الانقلاب علىّ.

كانت هناك مظاهرات ضد الفيتناميين الشماليين، بدعوى أنهم يدخلون أراضى كمبوديا، خصوصًا فى منطقة «هضبة الببغاء» وكنا نعرف ذلك دائمًا.

كانوا يجيئون إلى أراضينا لالتقاط أنفاسهم، ولم نكن نمانع فى ذلك بحكم حقوق النضال المشترك ... كنا نتغاضى عن ذلك، كما كانت المغرب وتونس تفعلان مع جيش التحرير الجزائرى وقت الحرب الجزائرية.

وكان الفيتناميون الشماليون يتصرفون بمنتهى الشرف.

كانوا يستريحون على أراضينا وفى وسط الغابات الكثيفة، ولا يضايقون أحدًا.

وكانوا يشترون بعض المؤن من قرانا ويدفعون ثمنها.

وكنا نبيع لهانوى كميات من الأدوية ضمن اتفاق تجارى معلن.

الأمريكيون بدأوا يثيرون ضجة حول ذلك.

و«لون نول» رئيس وزرائى وقتها سمع منهم - وقبض أيضًا - ونظم مظاهرات ضد الفيتناميين الشماليين ... كانت المظاهرات مدبرة، ليس فى هذا شك.

وسمعت أخبارها وأنا فى موسكو، وقال لى الرئيس بادجورنى:

- إن الضغوط عليك سوف تشتد من الأمريكيين وأصدقائهم فى كمبوديا.

وقلت له:

- إن الأمريكيين سبق لهم الكلام معى فى هذا الموضوع وأخبرتهم برأيى فيه ...

قلت لهم: «إننى لا أستطيع أن أمنع الفيتناميين وهم إخواننا من غابات يستريحون فيها ... وحتى لو أردت أن أمنعهم فليست لدى القدرة لتنفيذ ذلك ... كيف أستطيع أن أمنع التسلل داخل حدودى ... إن لديكم مليون جندى فى فيتنام ... نصف مليون أمريكى ونصف مليون فيتنامى جنوبى، فلماذا لا تستخدمونهم أنتم فى منع التسلل ... أنتم تعجزون عن ذلك وتطلبون منى أن أقوم بدور رجل البوليس فى خدمتكم ... وجيشى كله لا يزيد على ثلاثين ألفًا، فكيف أستطيع ؟».

وقال الرئيس بادجورنى:

- نحن نفهم موقفك ونقدره، ولكن المشكلة فى بعض معاونيك .... نحن نخشى أن يكون لون نول قد اتفق مع الأمريكيين ... ونريد أن تعرف أننا نعتمد عليك».

وفى اليوم التالى كرر لى كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى نفس الكلام ونحن على الغداء فى الكرملين، وبعد الغداء جلسنا معًا لفنجان قهوة، وقال لى كوسيجين بالحرف:

«يجب أن تمنع «لون نول» من طعن الثورة الفيتنامية فى ظهرها... إذا فعلوا ذلك فإننا لن نغفر لهم... إن الثورة الفيتنامية الآن فى موقف صعب، وهى أمام نقطة تاريخية فاصلة، وهم يعتمدون عليك، وقد ساعدتهم حتى الآن، وأثبت موقفك المعادى للاستعمار بطريقة واضحة.

إنك أديت دورك، ولابد أن تواصل أداءه لصالح حركة التحرر فى فيتنام، وسوف نعطيك كل تأييدنا الآن وفى المستقبل».

ويستطرد سيهانوك:

- بعد أن تركت كوسيجين، وجدت فى انتظارى برقية من شواين لاى رئيس وزراء الصين يقول فيها:

«إن التطورات الأخيرة فى كمبوديا، والحوادث ضد الفيتناميين تثير قلقنا، لأنها يمكن أن تؤثر فى موازين القوى بين الثورة الفيتنامية وبين قوى الاستعمار الأمريكى، وليس لدينا من نعتمد عليه فى تصحيح الأمور غيرك، وقد ساعدت الثورة الفيتنامية حتى الآن، ولابد أن تواصل دورك التاريخى».

وفى اليوم التالى كان مقررًا أن أسافر إلى بكين.

وحضرت اجتماعًا مع الزعماء السوفييت، حضره بريجنيف وكوسيجين. وقال لى كوسيجين:

- إن أصدقاءك الفيتناميين لهم ذاكرة قوية، ولن ينسوا إطلاقًا من يساعدهم، كما أنهم لن يغفروا لمن يخونهم فى اللحظات الحرجة، وهم يعتمدون عليك».

وتحدث بريجنيف فى نفس الاتجاه.

ثم كان مقررًا أن أذهب إلى المطار، وكان معى فى السيارة كوسيجين.

فى ذلك الوقت كان الانقلاب ضدى قد وقع فى بنوم بنه، ولكن أحدًا لم يخطرنى بشىء.

ونحن فى السيارة فقط قال لى كوسيجين:

- يظهر أن المجلس الوطنى فى بنوم بنه قد سحب الثقة منك تحت ضغط الجيش بقيادة الماريشال لون نول رئيس وزرائك».

وسألنى كوسيجين:

- ماذا يعنى هذا القرار»؟».

وصحت فى السيارة:

- يعنى انقلابًا ضدى... يعنى انقلابًا ضدى».

وقال لى كوسيجين بدهشة:

- إلى هذا الحد؟».

قلت:

- نعم... هذا ما يعنيه القرار».

وقال كوسيجين:

- وماذا تنوى أن تفعل؟».

- سوف أقاوم... سوف أقاتل».

وقال لى كوسيجين:

- إنك تستطيع أن تعتمد إلى أقصى حد على الاتحاد السوفيتى، ولك أن تثق فى مساعدتنا لك... سوف نساعدك دائمًا».

واستطرد كوسيجين:

- وأنت ذاهب الآن إلى بكين، وسوف تكتشف الصينيين على حقيقتهم... لقد كانوا يساعدونك وأنت فى الحكم فى بنوم بنه، وسترى الآن أنهم سوف يتخلون عنك».

وسكت سيهانوك. فقد جاء من يدعونا إلى مائدة الغداء.

وكان لا يزال شاردًا، وطبق حساء السمك يوضع أمامه، ثم تنبه فجأة وقال:

ـ هل تحب حساء السمك «البويابيز»، نحن نصنعه على طريقة مارسيليا... هناك شبه كبير بين مارسيليا والإسكندرية».

ويستطرد:

ـ تريدنى أن أعود إلى حيث كنت فى الحديث:

حسنًا... إن الصينيين اعترفوا بى وساعدونى... وحين طلبت من الروس أن ينفذوا ما وعدونى به، قالوا إنهم، لاعتبارات دولية لا يستطيعون قطع علاقاتهم مع بنوم بنه، وإذا كنت أريد أن أقيم علاقات دبلوماسية وسياسية معهم، فليكن ذلك عن طريق لجنة التضامن الآسيوى الأفريقى».

وبدا أن مزيجًا فوارًا من الغضب والحزن طغى على سيهانوك، فإذا هو يترك حساء السمك ويرفع يديه فى الهواء ويقول:

ـ تصور... يطلبون منى أن تكون علاقاتهم معى عن طريق لجنة التضامن الآسيوى الأفريقى...

أليست هذه إهانة؟».

* * *

وسألت سيهانوك عن معلوماته عن الأوضاع فى فيتنام الشمالية.

ظروف توقيع اتفاق باريس.

والعلاقات بين القيادات الفيتنامية الشمالية من السياسيين والعسكريين.

وعلاقاتهم مع الاتحاد السوفيتى والصين.

ونظرتهم إلى المستقبل.

وأشهد أن سيهانوك أجاب على كل ما سألته عنه بمقدرة وبصدق، وبمعلومات مباشرة لديه رآها بعينيه أو سمعها بأذنيه.

وكان سيهانوك يتحدث فى هذا كله لغير النشر، واحترمت رغبته.

* * *

وعاد سيهانوك إلى حديثه الأصلى:

ـ لا أفهم سياسة الوفاق بين الولايات المتحدة والصين.

لقد سمعت أن خروشوف حينما التقى بكيندى فى فيينا سنة ١٩٦١، عرض عليه أن تتعاون الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفيتى فى مواجهة الخطر الأصفر.

ولست أعرف: هل نحن الآن فى مواجهة صامتة بين البيض وبين الملونين، سواء كانوا صفرًا مثلنا، أو سمرًا مثلكم؟!

لا أتصور أن يكون الأمر كذلك!

وفى غيبة تفسير مقنع آخر، فإن لدىّ شكوكى.

تعال نتحدث قليلاً عن الشرق الأوسط... ماذا يجرى عندكم... لماذا تظل أجزاء من أراضيكم محتلة... لماذا لا يساعدكم هؤلاء الذين يجب أن يعرفوا أن الاستعمار لن يقف فى منتصف الطريق؟».

قلت له:

ـ الوضع فى الشرق الأوسط معقد... وأدوار القوى العظمى فيه مباشرة... ومع ذلك دعنا نتحدث فى أشياء أخرى غير الأزمات والصراعات».

وقال سيهانوك ضاحكًا من قلبه مرة أخرى:

ـ لك حق... حتى لا نصاب بسوء الهضم ونحن نأكل!».

* * *

وقلت لسيهانوك:

ـ إنك عرفت عددًا من شخصيات عالمنا المعاصر... وأريد أن أسألك: أيهم أثروا فيك... وكيف؟ ولماذا؟».

وابتسم سيهانوك... واتسعت الابتسامة على شفتيه، ورفع يديه مرة أخرى فى الهواء وقال:

ـ آه، هذا حديث شيق... أخف على الأعصاب... وعلى المعدة من أحاديث الأزمات والصراعات!».

واستطرد:

ـ لقد أعجبت بخمسة ممن قابلت:

ماوتسى تونج، وديجول، وعبد الناصر، وشواين لاى، وتيتو.

عرفت غيرهم كثيرين، وكنت أحبهم، لكنهم لم يؤثروا فىّ، كنت أعرف سوكارنو وأحبه، وقضينا ليالى كثيرة معًا نرقص ونغنى، لكن سوكارنو لم يكن جادًا».

واستطرد سيهانوك:

ـ ماوتسى تونج معلم عظيم، ميزته أنه يستطيع مخاطبة أعظم العقول، ويستطيع مخاطبة أبسط العقول، وفى الحالتين، فإنه يظل على مستواه الرفيع.

إنه يستطيع أن ينقل فلسفته إليك بأى لغة... بلغة الحكماء أو بلغة الفلاحين.

الغريب أنه شاعر، ولكنه واقعى أيضًا، ولديه ذاكرة تعى أدق التفاصيل.

وعندما كنت أسمعه يحدثنى مثلاً عن شئون كمبوديا، فقد كنت أدهش من إلمامه بالتفاصيل... كان يعرف ضباطًا فى جيشى بالاسم والرتبة، وأنا لا أستطيع تذكرهم.

ماوتسى تونج أيضًا إنسان حساس.

أتذكره يومًا وأنا أشكو إليه من خيانة أقرب الناس إلى وهو رئيس وزرائى «لون نول» يقول لى:

«خيانة الصديق مأساة إنسانية كاملة... أنا أيضًا أعرف الشعور بهذه المأساة... خاننى «ليو تشاو تشى» و«لين بياو»... الخيانة محنة، خصوصًا عندما تتعدى أشخاصنا كأصدقاء، وتصل إلى مبادئنا كأصحاب فكر واحد».

ويستطرد سيهانوك:

ـ ديجول كان عظيمًا فى رؤيته للتاريخ وللتطور.

بعض الناس كانوا يقولون إنه متعجرف، ولم ألمس ذلك منه.

بعد أن عرفته طويلاً، أدركت سره: ديجول كان خجولاً إلى أبعد حد، وكان حذرًا، ولم يكن يعطى ثقته المطلقة لأحد، وأظنه على حق.

عندما كنت أذهب إلى فرنسا كان يدعونى إلى بيته فى «كولومبى لى دوز إيجليز»، وكنا نقضى سهرات طويلة نتحدث وكنت معجبًا بزوجته، وكنت أناديها كما يسميها الفرنسيون «تانت إيفون» «العمة إيفون».

على فكرة ديجول كان مرحًا.

كان يتذكر كثيرًا من القصص والنوادر، وكان يرويها، ولكن بطريقته الخاصة، المتحفظة والهادئة.

وكانت «تانت إيفون» تمسك بتلابيبى أحيانًا حين تقرأ فى بعض المجلات أخبارًا عن أشياء لم أفعلها وتقول لى:

ـ هل فعلت ذلك... كيف ولديك زوجة جميلة مثل مونيك».

كان ديجول يعقدنى...

هو طويل جدًا... وأنا قصير جدًا.

ولكننا كنا نتفاهم جيدًا، لأننا نحن ـ الاثنين ـ من برج العقرب.

فى كل كلامه كنت تستطيع أن تلمس ثلاث نزعات تصل إلى حد المبادئ الثابتة:

ـ الكرامة... الاستقلال... الحساسية من السيطرة الأمريكية».

ويستطرد سيهانوك:

ـ عبد الناصر... كان رجلاً قويًا... ولقد كنت أعجب بالرجل فيه، بصرف النظر عن القوة... كان رجلاً... إنسانًا وكان إيمانه بحركة التحرر الوطنى يقينًا ثابتًا.

إن حركة التحرر الوطنى كلها معه شهدت أيامًا مجيدة.

كنا قوة فى وسط العالم، وكنا نستطيع أن نقف أمام الكبار ونتحدث إليهم، ولا نتركهم يتحدثون هم إلينا طوال الوقت.

وكان إحساسه الاجتماعى مرهفًا.

كان إحساسه ضد الفقر غاضبًا.

وكان ولاؤه للفقراء حادًا وقاطعًا.

وعندما كنا نجلس أحيانًا لنتحدث عن التطور الاجتماعى فى بلادنا، فإن خطه كان واضحًا دائمًا.

إننى التقيت معه أول مرة فى باندونج.

وهناك أحسست أن آماله إنسانية.

هذه أكبر هبة يعطيها الله لقائد تاريخى: أن تكون آماله إنسانية».

ويستطرد سيهانوك:

ـ شواين لاى عقلية منظمة بدرجة تجعلك تقف أمامه مبهورًا... أفكاره سهلة، ولكنها عميقة. أتذكره وهو يقول لى ناصحًا ذات مرة: «تستطيع أن تتعاون مع فرنسا بغير مخاوف... مع أمريكا خطر، ما زالوا أقوياء بدرجة تجعل صداقتهم خطرة».

ويستدرك سيهانوك:

ـ أطلت عليك... وسوف أختصر:

تيتو تجربة غنية متعددة الجوانب، يقظ لكل الاتجاهات والتطورات، يلمحها عن بعد ويراها بصفاء».

ويستطرد سيهانوك:

ـ عرفت غير هؤلاء كثيرين... كل من عاشوا فى عصرنا.

عرفت كيندى، كانت صحبته ممتعة.

زوجته جاكلين كانت رائعة... جاءت عندنا فى كمبوديا بعد اغتياله، وحاولنا بكل وسيلة ـ زوجتى مونيك وأنا ـ أن نجعلها تنسى».

ويتوقف سيهانوك قليلاً:

ـ لماذا تبتسم؟

لا ... إنها هى الأخرى تعقدنى مثل ديجول... أنا لا أحب امرأة أطول منى... وهى أطول منى كثيرًا».

ويستطرد سيهانوك:

ـ ولماذا أعجب بها... زوجتى مونيك أجمل منها... جاكلين فوق أنها طويلة، نحيلة أكثر من اللازم».

ويضحك بشدة ويغطى وجهه بيديه ويقول:

ـ يظهر أننى مثل العرب... لا أحب النحيلات... النحيلات يصلحن مانيكانات فى عروض الأزياء...

ومع ذلك فإن أى رجل لديه قلب لا يستطيع أن يمنع نفسه من تقديم الاحترام كله لمعجزة الجمال».

ونفخ سيهانوك بشفتيه على طريقة الفرنسيين عندما يريدون التعبير عن نفاد صبرهم وقال:

ـ ولكن هناك أناسًا لا يحسنون التعبير؟».

واستطرد:

ـ هل تذكر دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٦٠... الدورة التى حضرها زعماء العالم كله؟».

قلت:

ـ أذكرها فلقد تابعت أعمالها فى نيويورك صحفيًا، ورأيت مشاهدها العاصفة بما فيها مشهد خروشوف يخلع حذاءه ويدق به المائدة؟».

قال سيهانوك:

ـ بالضبط... هل تعرف ماذا فعل خروشوف معى فى هذه الدورة.

لقد التقينا وكانت معى زوجتى مونيك وقال لى:

ـ سوف أدعوك إلى زيارة موسكو لأن زوجتك جميلة، وإذا جئت بدونها فسوف أغلق الحدود».

واعتبرنا الأمر دعابة، ولكننا قبلنا الدعوة إلى موسكو، وذهبنا إليها وجلسنا فى أول موعد للمحادثات بيننا فى قاعة الاجتماعات الرئيسية فى الكرملين.

وإذا بخروشوف يسألنى:

ـ أين زوجتك... إنها أحسن سفير لكم».

ثم التفت إلى جروميكو وزير الخارجية السوفيتية وقال له:

ـ جروميكو أنت تتولى المحادثات مع الأمير سيهانوك وأما أنا فلن أتكلم إلا فى حضور الأميرة الجميلة».

واستطرد سيهانوك:

ـ بالطبع أنا لم أغضب وإنما ضحكت... لم أكن غيورًا من خروشوف ولكنى اندهشت... كيف يتصرف رجل مثله، فى سنه ومكانته على هذا النحو؟».

وقلت:

ـ إن خروشوف كان شخصية نادرة، لم يكن فى نظرى زعيمًا خارق المواهب ولكنه كان ولا يزال فى تقديرى إنسانًا يستحق دراسة عميقة وأظنه ظاهرة من الظواهر غير العادية التى لمعت على القمة الدولية فى أواخر الخمسينات وأوائل

الستينات... وفى وقت من الأوقات راودتنى فكرة وضع كتاب عنه لأن الظروف أتاحت لى أن أعرفه أكثر مما عرفه أى صحفى آخر ربما فى العالم.

ولست أعتقد أنه كان شريرًا ولكنى أعتقد حقيقة أن حيويته كانت متدفقة بأكثر مما تسمح به الأوضاع الرسمية لعمله ودوره».

وقال سيهانوك:

ـ مهما يكن... فلقد استغربت ما فعل وقتها!».

* * *

وقلت لسيهانوك والحوار يمتد ويمتد:

ـ قل لى... ماذا استفدت لحياتك المقبلة من درس الأزمة التى واجهتك؟».

وقال سيهانوك والجد يكسو ملامحه:

ـ لقد تعلمت درسًا... وسوف أقوله لك:

لا تعط ثقتك لغبى... ولا تعط ثقتك لضعيف.

تتصور أنك سوف تمسك به دائمًا... ولكن الحقيقة أن غيرك أيضًا سوف يمسك به ويأخذه منك!

هذه قصتى مع لون نول».

ويستطرد سيهانوك:

ـ بعض الجيوش فى آسيا غريبة... الجيوش فى الشرق الأوسط تختلف.

بعض الجيوش فى آسيا جزء من الثورة المضادة وهى مرتبطة بالاستعمار. جيوشكم جزء من قوى الثورة وهى مرتبطة بالنضال الشعبى».

وعاد سيهانوك مرة أخرى إلى لون نول:

ـ تصور أن عزيزنا... هذا الماريشال الأبله لا يؤمن بشىء إلا بالتنجيم والمنجمين،

ومن جو السحر يأخذ توجيهاته ويستلهم سياساته.

لا اعرف ربما استخدمت المخابرات المركزية الأمريكية وسيطًا من المنجمين يوحى إليه بتعليماتهم ويتصور الأحمق أنها من وحى النجوم!».

* * *

واقول لسيهانوك فى النهاية:

ـ وداعًا... وشكرًا».

ويقول بسرعة:

ـ لا... انتظر... لدى مجموعة من آخر ما سجلت من موسيقاى على أسطوانات... معظمها من موسيقى الجاز الخفيفة... أنا أحبها ... هل تحبها أنت أيضًا؟».

قلت:

ـ لسوء حظى فإن موسيقى القرن الثامن عشر والتاسع عشر هى التى مازالت تشدنى حتى الآن؟».

وقال سيهانوك:

ـ باخ... وموزار... وبيتهوفن وغيرهم عمالقة... لست منهم... أنا أريد أن أعبر بموسيقاى عن فرحة الحياة. وموسيقى الجاز بسرعتها وخفتها أحلى ما يعبر عن هذه الفرحة... ذلك رأيى...

ساعات مع موسيقاى تنسنى أزمات الحياة... أليس ضروريًا أن يكون لكل منا بيت يعيش فيه... وسحابة يصعد إليها ليحلق هناك مع فرحة الحياة وبعيدًا عن أزماتها؟!».

سهرة مع موبوتو
(فى بكين)

... ربما كان الجنرال «موبوتو» رئيس جمهورية زائير ـ الكونجو سابقًا ـ هو آخر سياسى توقعت أن أقابله فى «بكين» عاصمة الصين.

بالنسبة للأمير نوردوم سيهانوك كنت أتوقع، وكان اللقاء محددًا قبل أن أغادر القاهرة، وأما بالنسبة «لموبوتو» فقد كان ذلك خارج توقعاتى، مع أنى كنت أعرف من متابعة الأنباء أن الرئيس الأفريقى، وهو من أكبر ألغاز أفريقيا اليوم، سوف يصل إلى بكين فى نفس اليوم الذى أصل فيه إلى شنغهاى.

ووجدت نفسى بالمصادفات وحدها مدعوًا إلى حفل العشاء الذى أقامه الرئيس شواين لاى تكريمًا للجنرال موبوتو بعد ساعات من وصولى إلى بكين قادمًا من شنغهاى. وكان السبب أن «شواين لاى» علم أن ليلتى الأولى فى عاصمة الصين بلا برنامج، ومن ثم كان اقتراحه الذى نقل إلىّ هو:

«لماذا لا تحضر معنا هذا العشاء لموبوتو»؟

ولعله من باب الفضول وحده وجدتنى أقبل الدعوة وأذهب إلى قاعة الشعب فى رفقة السفير المصرى صلاح العبد الذى كان قادمًا لتوه من كوريا الشمالية لأنه كما يقول الدبلوماسيون هناك يرتدى ثلاث قبعات، فهو سفير مصر فى «بكين» وسفيرها فى «بيونج يانج»، وسفيرها فى «هانوى» فى نفس الوقت.

* * *

وهكذا كانت الفرصة متاحة أمامى بالمصادفات لكى التقى فى ليلتى الأولى فى بكين بكل السلك الدبلوماسى فيها وكل ممثلى الصحافة الأجنبية، وكان الموضوع الغالب على الأحاديث كلها بالطبع هو سياسة الصين تجاه أفريقيا ونقط التركيز فيها، والأهداف المقصودة وراءها، والأساليب المتبعة فى ممارستها، إلى آخره.

وكانت التساؤلات فى القاعة الفخمة المضيئة، التى تعكس عمارتها خطوط الحضارة الصينية القديمة مع لمسات حديثة، تدور حول نقطتين:

الأولى: هل أن الصين الآن باعتبارها واحدة من القوى العظمى - حتى وإن أنكرت - سوف تتبع سياسة واقعية شأنها شأن أى دولة عظمى تتعامل مع الأوضاع الراهنة فى أى بلد بصرف النظر عن المبدأ، أم أن الصين سوف تختار النقاء الثورى وتلتزم بالتعامل على المبدأ حتى وإن كان ما زال بعد غيبًا فى ضمير المستقبل؟

والثانية: هل الصين سوف تسمح لمقاييسها فى السلوك بأن تتسع بحيث تدارى وتسكت على ما لا تقبله أخلاقيًا فى سبيل مصالحها، أم أنها سوف تتمسك وتحافظ وليغضب من يريد أن يغضب خصوصًا من زوارها القادمين من العالم المتخلف - الذى نطلق عليه تأدبًا وصف العالم النامى؟

وكان رأيى أن الصين سوف تعثر بشكل ما على خط متوازن تتعامل به على الأمر الواقع دون أن تضحى فى سبيل ذلك بالنقاء سواء إزاء المبادئ الكبرى أو قواعد السلوك اليومى.

وكنت أقول إن استقبالها لموبوتو على هذا النحو دليل واقعية.

وما سمعته اليوم عن طرد عدد كبير من شباب تانزانيا لأنهم أساءوا التصرف خلقيًا دليل تمسك ومحافظة واضحة بصرف النظر عن مصالح الصين فى تانزانيا.

وكنت أقول:

- بشكل ما ... الصينيون أقدر من غيرهم على رسم خط التوازن، وبطريقة لا يلحقهم فيها غيرهم».

ثم كنت أشير إلى أن معظم القوى العظمى استخدمت فى إدارتها أجهزة مهمتها أن تقدم المتعة للراغبين فيها من زوار العالم المتخلف أو النامى أو حتى غير المتخلف والذى نما فعلا ... وهذه ظاهرة من أغرب ظواهر الواقعية - !- فى السياسة الدولية الجديدة حيث تنهار قواعد السلوك أمام امتيازات حقول البترول أو مزارع المطاط أو مناجم اليورانيوم أو عقود الصفقات المغرية!

وأعترف أنه حين دخل الجنرال موبوتو جنبًا إلى جنب مع الرئيس شواين لاى إلى قاعة الشعب الكبرى أننى كنت أراقب المنظر قائلاً لنفسى:

- هذا لقاء نقيضين على أشد ما يكون التناقض!».

وحين وجدت تجهيزات التليفزيون فى القاعة أكثر من العادة فقد كان الرد على تساؤلى هو:

- إن الجنرال موبوتو أمر بنقل كل الاحتفالات المقامة له فى الصين من ساعة وصوله إلى ساعة خروجه مباشرة إلى الكونجو، وإنه استأجر لذلك وقتًا فى قمر صناعى معلق فى فضاء المحيط الهندى لينقل من الشرق الأقصى إلى قلب أفريقيا على الهواء».

وكانت ملاحظتى بالعجب على ذلك:

- وهل تتحمل ميزانية أى بلد متخلف هذا الترف الإعلامى كله»؟!

ومهما يكن فلقد مضيت بالفضول فى متابعة وقائع الحفل حتى قرب نهايته وعند النهاية تلقيت المفاجأة!

ذلك أن سيدًا أفريقيًا مهيبًا تقدم إلى المائدة التى كنت أجلس عليها وقدم نفسه باعتباره المستشار الصحفى للرئيس موبوتو وقال لى:

- إن رئيسى قد عرف بالمصادفة أنك هنا، وكصحفى أفريقى فإنه سوف يقابلك، وقد حدد لذلك مساء غد فى الساعة التاسعة وسينتظرك فى قصر الضيافة الذى يقيم فيه».

وكانت هذه مجاملة رقيقة لابد من قبولها.

وفى نفس الوقت فقد كانت مشكلة عويصة لابد من التفكير فيها.

وكان أمامى قبل الموعد المحدد أربع وعشرون ساعة تكفى لإطالة التفكير.

ماذا أفعل مع الجنرال موبوتو؟ وماذا أقول له؟ وماذا أنقل عنه؟

* من ناحية فإن رأيى فى الرئيس موبوتو لم يكن مرضيًا له وفى أقل القليل فإن الرجل بالنسبة لى كان لغزًا محيرًا.

دوره فى نهاية لومومبا يثير الشكوك.

انقلابه سنة ١٩٦٥ يفتح السبيل لأقاويل كثيرة عن علاقته بالولايات المتحدة الأمريكية.

علاقته بالشركات الاحتكارية الدولية الكبرى فى الكونجو، وكلها تسعى وراء الألماس والنحاس والمطاط والقصدير والذهب واليورانيوم. يدور من حولها لغط شديد، ويصل اللغط إلى حد القول بأنه إذا كان فى العالم كله عشرة من الأغنياء الفادحى الغنى، فإن موبوتو بالقطع واحد منهم.

* ومن ناحية ثانية فلقد كنت ومازلت أعتقد أن ما نسمعه من بعيد دائمًا، ليس هو كل الحقيقة.

إن لدى الكثيرين منا نزعة تلقائية إلى وضع الآخرين فى قوالب، وتصنيفهم إلى أنواع، بل رصهم على رفوف، وذلك لكى نعفى أنفسنا من التفكير فى الظلال.

الأحكام القطعية دائمًا سهلة لأنها مريحة، والصعب باستمرار هو محاولة تبين درجات الظل فى كل شىء.

ومن أشهر أقوال ماوتسى تونج فى هذه النقطة:

-كل شىء هو فى الحقيقة شيئان...

الواحد فى الواقع اثنان.

الجمال فى القبح والقبح فى الجمال، الشر فى الخير والخير فى الشر، الظلام فى النور والنور فى الظلام...

هذه حركة المتناقضات وهى التى تصنع التطور وتدفع مسيرة التاريخ.

صراع الاثنين فى واحد»!

* ومن ناحية ثالثة، وفيما يتعلق بالجنرال موبوتو نفسه، فلقد كان فى ذاكرتى حديث جرى ذات يوم بين الرئيس جوليوس نيريرى رئيس جمهورية تانزانيا وبينى وكان موضوعه هو الجنرال موبوتو.

يومها كنت مع نيريرى على شرفة القصر الجمهورى المطلة على المحيط الهندى فى «دار السلام» وقال لى «نيريرى» بالإنجليزية المعجونة بلكنة هندية من تأثير المدرسين الهنود فى شرق أفريقيا، وبلكنة أفريقية من القارة ذاتها:

-إننى قابلت «موبوتو» أخيرًا... وكان ذلك اكتشافًا بالنسبة لى.

وجدته يتكلم بحماسة لا تقل عن حماسة من تعرف من قادة حركة التحرر الوطنى، ولما لم يكن فى استطاعتى أن أنسى كل ما سمعت عن ماضيه فإننى سألته. وأنا الكاثوليكى مثله:

موبوتو... هل أصبحت مثل القديس بطرس... بدأ شقيًا وانتهى تقيًا»؟

❋ ❋ ❋

لم يكن تفكيرى مقصورًا على شخص الجنرال موبوتو نفسه، بل إننى حاولت أيضًا أن أجعله يمتد إلى ظروف حركة التحرر الأفريقية ذاتها وما عاشته من انتصارات وهزائم، من أمجاد ومحن، وكان ذلك من منطق «أننا لا نستطيع أن نفكر فى الناس مجردين وإنما يتحتم علينا ونحن نفكر فى الناس أن نضعهم فى إطار الظروف».

«الناس والظروف معًا» وإلا كانت الأحكام فى الفراغ وهذا خطأ مع تجنب شد ذلك إلى أكثر مما يحتمل وإلا انتقلنا من النقيض إلى النقيض... وانزلقنا من الأحكام المطلقة إلى التبريرات المتعسفة وهذا خطر!

وقد كانت ظروف الحركة الأفريقية فى رأيى كما يلى:

١- إن الشعوب الأفريقية فى بعض من الأحيان خدعتها واجهة الاستقلال الوطنى، فإذا بها بعد إعلان الاستقلال الرسمى تنتقل من الاستعمار القديم إلى

الاستعمار الجديد... أى تحصل لنفسها على علم ونشيد ومقعد فى الأمم المتحدة ولكن ثرواتها تظل نهبًا للاحتكارات والشركات الأجنبية.

وكان اعتقادى ولا يزال أنه ليس هناك استقلال سياسى بدون استقلال اقتصادى، كما أنه ليس هناك تحرر وطنى بدون تحرر اجتماعى.

٢ - إن الجماعات التى قادت الحركة الوطنية نحو الاستقلال تحولت فى عديد من البلدان الأفريقية إلى طبقة جديدة فاحشة الغنى... أخذت لنفسها امتيازات السيد الأبيض أو بعضًا منها وتصور بذلك أنها حققت غايات الاستقلال الوطنى.

وكانت الحركة الأفريقية الوطنية فى الحقيقة تملك فرصة نادرة للتحول الاجتماعى العميق لأن المجتمع الأفريقى الأصيل كان مجتمعًا يكاد يكون بلا طبقات، تمسك بمقدراته كلها جماعات من البيض على القمة، وكانت إزاحة هذه الجماعات بامتيازاتها من على القمة فرصة نادرة لبداية اجتماعية جديدة، لكن هذه الفرصة ضاعت فى أفريقيا بصفة عامة.

٣ - نتيجة ذلك أن هناك خطرًا مخيفًا من الفساد أو الإفساد فى أفريقيا لأن الأعوان الذين جاءوا مع الزعامات الوطنية وتولوا المناصب من حولها جاءوا فى كثير من الأحيان وكل همهم أن يحصلوا لأنفسهم فى أسرع وقت على أكثر ما يمكن.

وكان شعار الكثيرين منهم كما وصفه لى ذات مرة سفير أجنبى فى غانا هو:

- جيبى... قبل وطنى!

٤ - إن جزءًا كبيرًا من المسئولية فى الواقع يقع على حقيقة أن معظم القوى الكبرى كانت تتعامل مع الحركات الوطنية، خصوصًا فى عصر الحرب الباردة، عن طريق الأجهزة الخفية... أجهزة المخابرات بالذات.

وهذه ظاهرة ما تزال ملحوظة فى أفريقيا حتى الآن، وقد أدت إلى كثير من مظاهر الانحراف السياسى والأخلاقى، كما أدت بطريق آخر إلى التعويض بأساليب من النفخ الصناعى... أى مبالغة فى مظاهر العظمة الفارغة... لإخفاء الفراغ الحقيقى

تحتها وللخداع والتضليل ولرسم صور زائفة يمكن تحت ستارها تحقيق المطالب القديمة بأساليب جديدة!

٥ - إن السياسة الأفريقية فى بعض البلدان لم تتخلص بعد من أغلال الماضى الأفريقى فى عصور ظلامه وبينها السحر مثلاً وكان نكروما برغم إسهامه البارز فى حركة التحرر الأفريقى من أشد المؤمنين بالسحر.

ولقد كان هناك من تمردوا على أغلال الماضى ولكنهم اشتهروا بذلك ومنهم سيكوتورى رئيس غينيا.

وأتذكر أن سيكوتورى دعانى إلى مقابلته فى الدار البيضاء - فى المغرب - وكانت مقرًا لمؤتمر أفريقى على مستوى القمة وقال لى:

- لماذا تنشر فى «الأهرام» ما يسىء إلى أفريقيا... لماذا نقع بأنفسنا فى المصيدة التى ينصبها لنا الاستعمار»؟

ودهشت وسألته:

- وهل فعلت ذلك»؟

وقال بفرنسيته الخطابية المتحمسة:

- نعم فعلته... فعلته عندما نشرت أن الناخبين فى الكاميرون ضاقوا ذرعًا بنائب بعثوا به إلى المجلس الوطنى ولم يحسن تمثيلهم فلما عاد إليهم ذات يوم أكلوه».

وقلت لسيكوتورى:

- إننى نشرت الواقعة وفى ظنى أنها صحيحة»!

وقال سيكوتورى بحدة:

- ليكن أنها صحيحة... فلماذا ننشرها»؟

* * *

كذلك كانت أفكارى وخواطرى عندما جاء موعدى المحدد مع الرئيس موبوتو فى قصر الضيافة الذى يقيم فيه فى بكين على حافة بحيرة صناعية رائعة الجمال.

وصعدت إلى الدور الثانى من القصر وإلى صالون صغير ملحق بغرفة مكتب كان مقررًا أن يكون لقاؤنا فيه.

ودخل «موبوتو».

كان يرتدى حلة داكنة من طراز وضع تصميمه بنفسه وفى تقديره أنه سيصبح الزى الرسمى لزائير، حلة بسيطة... سترة مفتوحة على أعلى الصدر وتحتها بنطلون، وحول الرقبة منديل معقود يغطى فتحة السترة حول الرقبة وينزل إلى الصدر.

وتوقعت لهجة عظمة كنت أخشاها، ولم أجدها فى الحقيقة.

قال موبوتو ببساطة:

ـ لم أكن أعرف أنك هنا... فى العشاء الذى أقامه شواين لاى لى... وعندما عرفت قلت إنه من الضرورى أن نتقابل».

واستطرد موبوتو:

ـ إننى قادم قبل قليل من موعد مع ماوتسى تونج... شخصية خرافية... هل قابلته من قبل»؟

قلت:

ـ نعم... وإعجابى به غير محدود».

واستطرد موبوتو:

ـ هؤلاء الناس فعلوا شيئًا عظيمًا... هم عمليون إلى أقصى حد وفى وسعنا أن ننقل ذلك منهم.

عندما أعود إلى زائير سوف ألغى استعمال ربطات العنق ـ الكرافتات ـ إنهم استغنوا عنها... هل تعرف كم وفروا فى ذلك كما علمت:

قدروا أنهم يحتاجون كل سنة إذا سمحوا بربطات العنق إلى ٣٠٠ مليون كرافتة ثمنها على الأقل ١٥٠ مليون جنيه، وبقرار واحد وفروها لأنهم اعتبروها فضولاً أو سخافة لا معنى لها... ثم هى مكلفة»!

واستطرد «موبوتو»:

ـ هل تعرف أننى كنت صحفيًا... وتحولت إلى ضابط... ثم أصبحت رئيس دولة».

قلت:

ـ «أعرف».

وقال:

ـ كنت تلميذًا فى المدرسة فى عصر الاحتلال البلجيكى وكنت أكتب مقالات للصحف واشتركت فى مظاهرة وطردونى من المدرسة، وكان العقاب للطلبة المطرودين أن يجندوا فى الخدمة العسكرية وهكذا وجدت نفسى فى الجيش دون قصد منى».

واستطرد:

ـ مازالت الصحافة هى حبى الأول».

وقلت:

ـ بالنسبة لى هى حبى الأول والأخير».

وقال موبوتو بلهجة يستطيع أن يتحكم فى نبراتها بشكل غريب، ارتفاعًا وانخفاضًا، ضيقًا واتساعًا، حرارة وبرودة:

ـ فيم تريد أن نتحدث معًا»؟

قلت:

ـ هناك أشياء كثيرة... هناك أشياء تهمك... وهناك أشياء تهمنى وسوف أبدأ بالأشياء التى تهمك وبعدها أصل إلى ما يهمنى».

واستطردت:

- إننى استمعت إلى خطابك فى حفل العشاء الذى أقامه لك شواين لاى ولفتت نظرى جملة تحدثت فيها عن سياسة الكونجو وعن «الأصالة» باعتبارها الطابع الأساسى لها».

وقاطعنى موبوتو:

- اسم بلادى لم يعد الكونجو... اسمها الآن «زائير» وذلك بمقتضى طابع الأصالة وتطبيقًا له».

وواصل حديثه:

- إن السؤال عن الأصالة authenticite` سؤال هام جدًا، ولن تستطيع أن تفهمنا إذا لم تفهم ما نعنيه «بالأصالة».

خذ اسم «الكونجو»...

هذا هو الاسم الذى أطلقه الاستعمار البلجيكى على بلادى.

إننى عدت إلى الاسم القديم قبل الاستعمار البلجيكى... سألت عنه حتى وجدته وقررنا العودة إليه.

كان اسمنا «زائير»... كان هذا هو اسم نهر الكونجو، وقد استعدنا الاسم القديم».

قلت:

- إن هنالك تفسيرات عديدة لهذا الاسم الجديد سمعت من بعض الناس أن الاسم أصله عربى، أطلقه الرحالة والتجار العرب على ذلك النهر وكان الاسم الأصلى «سعير» إشارة إلى شدة الحرارة وحرف الاسم كما حدث لأسماء عربية كثيرة فى أفريقيا إلى «زائير».

هل تتذكر «موديبوكيتا» زعيم مالى السابق؟

اسمه الاصلى «المؤدب بخيت» وقد حرف الاسم باللهجات الأفريقية فأصبح «موديبوكيتا».

هناك رأى آخر حول اسم زائير يقال بمقتضاه إن الذى أطلقه على النهر هو الرحالة البرتغالى «دييجو كاو» عندما رسا بسفينته عند مصبه فى محاولة من محاولات الوصول إلى الهند بالدوران حول أفريقيا».

وقال موبوتو:

- مهما كانت التفسيرات فإننا عدنا إلى الاسم الذى كان لنا قبل الاستعمار البلجيكى».

واستطرد:

- ومع ذلك فخذ اسمى السابق.

كان اسمى هو: «جوزيف ديزيريه موبوتو» «جوزيف» اسم أوربى... «ديزيريه» اسم أوربى... الاسم الأفريقى الوحيد الذى كان لى هو «موبوتو».

ولماذا نقبل هذا؟...

إننى عدت إلى اسم القبيلة التى جئت منها.

«موبوتو سيس سيكو كوكو أنجابندو وازابانجا».

(سيس تعنى الأرض - أنجانبدو منطقة فى زائير - سيكو تعنى المحارب المقدام الذى لا يخشى الهزيمة ويتحمل المصاعب ويتقدم حتى النصر - كوكو تعنى الفلفل الحراق).

واستطرد موبوتو:

- نعم «الأصالة»

إنها موضوع مهم لنا ودعنى أذكرك... أننى عندما أتحدث عن الأصالة لا أنادى بالعودة إليها retour ولكن بسرعة الالتجاء إليها Recours.

إذا لم نعد بسرعة إلى الأصالة الأفريقية وإذا لم نلتجئ إليها ونحتمى بها فإن شخصيتنا سوف تضيع نهائيًا.

لماذا يطلب منى أن أقبل كل شىء فرضه الاستعمار علينا كما هو؟... لست مطالبًا بذلك ولا أقبل!

لماذا يتحتم علىّ عندما أزور بومبيدو أن أرتدى الردنجوت والقميص المنشى والياقة العالية؟ ما علاقتى أنا بذلك؟

بومبيدو عندما يرتدى هذا الزى فهو على حق... أبوه كان يفعل ذلك ويرتدى هذه الملابس فى المناسبات الرسمية... ردنجوت... بونجور... فراك إلى آخر هذه الأزياء... لا شأن لى بها أنا... أنا الأفريقى؟

إننى أجدنى مطالبًا بأن أعود إلى ما كان فى بلادى... إلى ما كان يعرفه أبى وجدى وشعبى كله.

لست فرنسيًا ولست إنجليزيًا ولست أمريكيًا.

ولكننى من زائير...

وأريد عندما يصل أى وافد إلى زائير أن يشعر فعلاً أنه فى زائير ليس فى باريس ولا فى لندن ولا فى واشنطن.

ليس معنى ذلك أن أرفض المدنية وإنما معناه أن آخذ منها ما يناسبنى.

أنا أرتدى حذاء وقد قبلت ذلك بمحض اختيارى لأنه مفيد، ولأننى كرئيس دولة لا أستطيع أن أمشى حافيًا... لكننى عندما أفعل ذلك لا أقلد أحدًا وإنما آخذ من المدنية ما يناسبنى».

واستطرد موبوتو:

- سوف تسألنى كيف أطبق الأصالة فى السياسة... من السهل أن تتحدث عن الأصالة فى الأزياء وغيرها من مظاهر حياة كل يوم؟

سوف أقول لك:

إننا نعرف ما كنا عليه قبل سنة ١٩٦٠... كنا مستعمرة لبلجيكا... إننا نعرف ماذا كنا عليه من سنة ١٩٦٠ إلى سنة ١٩٦٥. كنا أضحوكة العالم.

المثل الحى للفوضى وللتخلف..

كنا موضع سخرية.

الآن تغير الوضع... إنهم كفوا عن الضحك منا.

لسنا مع اليمين... لسنا مع اليسار... لسنا فى الوسط!

تسألنى إذن: أين نحن؟

سوف أقول لك: حيث نحن واقعنا وما نريده بأنفسنا لأنفسنا لماذا أقبل هذه التقسيمات اليمين واليسار والوسط؟

الوطنية بمنطق الأصالة هى أن نكون أنفسنا..

نحن كل أرض زائير، ما فوقها وما تحتها.

كانوا يقولون لنا هذا ليس ملكًا لكم... أو هذا ليس بالكامل ملكًا لكم دائمًا أنتم شركاء معنا فيه، وقلنا لهم: ما فوق الأرض وما تحت الأرض هو ملك لنا.

هم لا يضحكون منا الآن لأننا لا نقلد أحدًا.

هم لا يضحكون منا الآن لأننا لسنا أضحوكة العالم بما كان لدينا من فوضى وضياع».

* * *

وتحمس موبوتو وهو يدق بيده على صدره ويقول:

«أخوك الذى يكلمك الآن هو موبوتو ابن هذا الشعب وابن هذه الدولة» منذ سبع سنوات لم يكن الأمر كذلك.

الآن لدينا حزب... لدينا حكومة... لدينا ثورة اجتماعية.

من قبل كانت هناك قبيلة فى الشمال، قبيلة فى الجنوب، قبيلة فى الشرق، قبيلة فى الغرب.

انتهى ذلك كله الآن.

نحن نتكلم نفس الكلام جميعنا ونغنى نفس الأغانى جميعنا.

لم أطلب من شعبى أن يقلد اليمين أو يقلد اليسار...

طلبت منهم ببساطة شيئًا واحدًا: كونوا أنفسكم.

وهكذا أصبحوا.

هل اتضحت أمامك معانى الأصالة الآن»؟

وقلت:

- إننى أحاول أن أفهم».

واستطرد موبوتو:

- إن كثيرين لم يفهمونى:

أنتم فى مصر لم تفهمونى.

هنا فى الصين أيضًا لم يفهمونى...

كنت الآن مع الرئيس ماو وتذكرنا معًا أيام كانوا وكنتم تؤيدون «جيزنجا» ضدى.

جيزنجا كان يدعى أنه خليفة لومومبا ولكنه لم يفعل شيئًا.

تأثيره الأدبى الآن «صفر».

ماذا فعل؟... ماذا كان يفعل؟... ماذا يفعل الآن؟

لماذا كنتم تؤيدونه؟

كان يلعب لم يكن حوله مؤيدون.

كان من حوله ٢٠ فتاة عارية وكان مشغولاً بتصويرهن، وكان من حوله عدد لا يحصى من زجاجات الويسكى والشمبانيا الفارغة.

لم أكن أفعل ذلك وإلا ما كنت انتصرت.

كنت أستطيع أن أقضى وقتى مع زوجتى.

لا أريد أن أتظاهر أو أفتخر ولكن رئيس الدولة يجب أن يكون رجل أخلاق.

كان هو يلعب... وكنت مشغولاً بتوجيه الدولة.

وكان يدعى الثورية... وكنت أحاول أن أفرض السلام على أرض زائير».

وقلت:

- ربما نتناقش طويلاً فى أمور كثيرة، ولكنى أسلم فعلاً أنك استطعت أن تفرض نوعًا من النظام والسلام فى الكونجو وذلك كان صعبًا، ليس فقط بحكم رواسب الماضى، ولكن الصعوبة كانت تجىء أيضًا من حقيقة أنه لم يكن هناك جهاز إدارى فى زائير، وسوف يمضى وقت طويل قبل أن يصبح ذلك ممكنًا فى عدد من بلاد أفريقيا».

واستطرد موبوتو يقول:

- إننى جعلت للنظام وللسلام هدفًا فى زائير. تذكر أننا نبنى الآن أكبر سد فى العالم سد «إنجا» وعندما ينتهى بكل مراحله سوف يصبح أكبر من سد أسوان.

هذه هى الكرامة الوطنية... الأصالة.

إننا أغنياء جدًا... ولكن ثرواتنا غير مستغلة لصالح شعبنا.

الأصالة أن تكون لنا الأرض وما عليها وما تحتها».

قـلـت:

- هناك شيء لم يتـضـح في ذهني حـتى الآن... مـا هو الفـارق بين الأصـالة والاستقلال؟

وقال موبوتو:

- الفارق كبير..

كلنا نقول إننا مستقلون في أفريقيا ولكن الاستقلال ليس كل شيء.. الأصالة هي كل شيء.

لنفرض أن معك تذكرة سفر إلى زائير...

عندما تصل هناك سوف تشعر أنك في زائير ولا تشعر أنك في باريس أو لندن أو بروكسل...

الناس يتكلمون باللغة الزائيرية.

الناس يتعاملون بالزائير (وحدة النقد الوطنية).

الناس لا ينتظرون مساعدة من أحد.

أمريكا عرضت علينا مساعدات لم نلمسها وأعدناها إليها.

أمريكا عرضت علينا أن تدفع لنا الغطاء اللازم للزائير (وحدة النقد الوطنية) في صندوق النقد الدولي... رفضنا وقلنا: نحن سندفع غطاء عملتنا.

أنا أزور الصين الآن ومعي طائرة خاصة في انتظاري.

لم أتلق برقية واحدة تقول لي إن الطائرات تأخرت.

إنهم يعرفون أن موبوتو يستطيع أن يحتفظ بطائرة ومع ذلك تستمر طائراتنا على خطوطها منتظمة.

أخوك الأفريقي الجالس معك الآن فعل ذلك... لا أتفاخر ولا أتباهي.

إنني أنهيت الخلافات في الكونجو، قضيت على الفوضى... وأخرجت المرتزقة... وأعدت الكرامة للكونجو.

كانوا يعطوننا معونة... رفضنا هذه المعونة... لا نريد صدقة من أحد لا حبوبًا ولا دجاجًا مجمدًا».

* * *

وقلت لموبوتو:

- هل أستطيع أن أنتقل إلى أشياء تهمني في حديثي معك»؟

وقال موبوتو:

- إنني أسمعك».

قـلـت:

- إن أفريقيا مهمة لنا إلى أقصى حد.

إن شمال أفريقيا العربي جزء لا يتجزأ من أفريقيا جنوب الصحراء كما يقولون إن الحرية في رأينا لا تتجزأ بخطوط وهمية.

والرخاء في رأينا لا يتجزأ بين الأسمر والأسود.

ثم إن هناك مشكلة أمن بالنسبة لنا وهي إسرائيل.

إسرائيل تعتبر أن أفريقيا رئة تتنفس منها برغم الحصار العربي، ولقد وجدت إسرائيل أبوابًا مفتوحة في أفريقيا، ونحن نعتبر أن ذلك خطر يتعدى أمننا وحدنا لأن إسرائيل في رأينا امتداد عنصري واستعماري.

ثم هل تسمح لي أن أسألك سؤالاً مباشرًا.

لماذا تحتفظ في الكونجو بمستشارين عسكريين من إسرائيل؟

إن أحدًا لا يختلف في أنك في الأوضاع الراهنة أقوى سياسي في وسط أفريقيا، ومن هنا فإن موقفك يهمنا».

وقال موبوتو:

- أنتم كنتم تقاطعوننى وتقدمون تأييدكم لجيزنجا، باعتباره خليفة للومومبا.

ماذا كان فى استطاعتى أن أفعله...

كنت وقتها قائدًا للجيش وكنا فى حاجة إلى التدريب.

إسرائيل عرضت علينا الفرصة وذهبنا...

ذهبت ومعى نواة لواء المظلات وهناك تدربنا ومن هناك جئنا ببعض المستشارين.

بعض زملائى عادوا من هناك متحمسين لإسرائيل.

والمستشارون الإسرائيليون كانوا وسطنا (بقى منهم الآن ١٢ فقط).

والسؤال الذى يجب أن نسأله هو: هل استطعنا بعد ذلك أن نقف مع إخواننا من أفريقيا أو أننا لم نستطع.

فى كل المؤتمرات الأفريقية وقفنا معكم كأفريقيين.

إننى كنت عضوًا فى بعثة الرؤساء الأفريقيين لدراسة مشكلة الشرق الأوسط، وجئت إلى مصر ثم ذهبت إلى إسرائيل... هل تابعت مهمة هذه اللجنة»؟

قلت له:

- نعم... وفى الحقيقة فإننى كنت متخوفًا... لقد كنت أخشى من هذه البعثة أن تحول أفريقيا من طرف أفريقى معنا... إلى طرف محايد يتوسط بيننا وبين إسرائيل»؟

وقال موبوتو:

- إننا قلنا لهم، قلنا لجولدا مائير ولديان ولإيبان إن أفريقيا لا تقبل باحتلال أرض أفريقية.

(بذلت جولدا مائير كل جهد فى وسعها للتأثير على الزعماء الأفريقيين لدرجة أنها بكت بالدموع أمامهم وهى تتذكر ما قاسته إسرائيل من اضطهاد العرب!!).

واستطرد موبوتو:

- عندما كان التصويت يجرى فى الأمم المتحدة على قرارها الأخير بشأن الشرق الأوسط اتصل بى وزير خارجيتى وقال لى:

«لقد تسلمنا الآن فى وزارة الخارجية خطابين لك... خطاب من السادات وخطاب من جولدا مائير وكل منهما يطلب صوتنا لنفسه.

وقلت لوزير خارجيتى:

- إن خطنا سوف يكون هو الخط الأفريقى... وصوتنا معكم».

واستطرد موبوتو:

- فى كل الظروف سوف نأخذ الخط الأفريقى، وذلك أيضًا بمقتضى منطلق الأصالة.

ومع ذلك أريد أن أسألك فى شىء.

إننى لا أعرف الرئيس القذافى ولكنك تعرفه، وهو يمارس سياسة نشطة فى أفريقيا ولكننا نختلف معه.

لماذا يدفع لبعض الدول الأفريقية لكى تقطع علاقاتها بإسرائيل»؟

وقلت:

- إننى لا أعتقد أن الرئيس القذافى دفع لأحد لكى يقطع علاقته بإسرائيل.

إن هناك دولاً أفريقية اكتشفت دور إسرائيل الحقيقى، أوغندا فعلت ذلك... وتشاد فعلت ذلك... والنيجر فعلت ذلك، ومالى فعلت ذلك، والكونجو برازافيل فعلت ذلك.

وهذه الدول بمحض إرادتها وبتجربتها الحرة اكتشفت أن إسرائيل لا تخدم أفريقيا بكل ما تقوم به وإنما تخدم الاستعمار.

هذه مسألة...

وأما أن يعرض القذافى على بعض هذه الدول مساعدات عربية فإنها مسألة أخرى...

هل تعترض إذا كان فى وسع دولة عربية أن تقدم معونة لدولة أفريقية؟

ولماذا نربط بين قطع العلاقات وبين المساعدة؟

إن إسرائيل هى التى تحاول الترويج لذلك لكى تمنع التيار الأفريقى الذى بدأ يكشف حقيقتها من أن يواصل اندفاعه بقوة».

وقال موبوتو:

- إن تومبالباى رئيس تشاد بعث إلىّ ليقول لى «إن القذافى يريد أن يراك»، وكنت أريد أن أذهب إلى ليبيا، ولكن لا أريد أن يقول شعبى إننى ذاهب إلى هناك لأحصل على معونة.

نحن لا نريد معونة... نحن أغنياء ولدينا مبادئنا».

قلت:

- وأنا أعرف أنك تقدم مساعدات لبعض الدول الأفريقية... وأسألك هل تقدم هذه المعونات لأحد كى يقطع علاقته بإسرائيل... إنك لم تطلب ذلك... فلماذا تتصوره فى القذافى»؟

وقال موبوتو:

- إننا سوف نحدد موقفنا من استمرار احتلال إسرائيل لأراض أفريقية على ضوء سياستنا الأفريقية... وعلى ضوء الأصالة فى زائير.

سوف ترى ذلك.

سوف تراه فى مؤتمر القمة الأفريقى القادم فى مايو فى أديس أبابا».

* * *

وسألنى موبوتو:

- لابد أن نشرب شيئًا معًا لتوثيق صداقتنا.

معى بيرة من زائير وهى نوع لا مثيل له فى العالم اسمها تيجر.

ومعى عصير أناناس من مزرعة كبيرة أملكها هناك مساحتها عشرة آلاف هكتار (خمسة وعشرون ألف فدان) وفيها مصنع التعليب الخاص بها».

واستطرد موبوتو:

- اشرب معى أى شىء تختار ولتحتفظ بآخر قطرة نلقيها على الأرض».

واستطرد:

- ذلك أيضًا تطبيق لمبدأ الأصالة، فهكذا كان أجدادنا يفعلون.

ألا تتذكر أننى فعلت ذلك فى العشاء الذى أقامه لى شواين لاى.

ألقيت آخر قطرة من مشروب «الموتاى» أيضًا.

لم ألقها على الأرض ولكنى ألقيتها فى طبق على المائدة حتى لا أترك بقعًا على السجادة الصينية التى كانت تحت أقدامنا».

وقلت له:

- رأيتك تفعل ذلك فعلاً... والآن فهمت»!

....

....

كانت الساعة فى بكين الواحدة بعد منتصف الليل.

وكانت الساعة فى زائير الواحدة بعد الظهر.

وكان أحد وزراء موبوتو على التليفون من كينشاسا يريد أن يتحدث إليه...

وقال موبوتو وهو يصافحنى مودعًا:

- فروق الوقت مذهلة».

عودة إلى بلاد الشمس المشرقة وحوار مع رئيس وزرائها

العِمـــلاق خائفٌ من قـوّتـه!

هذه المرة فى اليابان، طلبت - وقبل أن أصل إلى طوكيو - أن تتاح لى فرصة الحديث مع أربعة:

* تاناكا رئيس الوزراء الجديد

(لأنى قابلت كل رؤساء الوزارة فى اليابان فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية وتحدثت طويلاً معهم وهم: يوشيدا، وكانوا يسمونه «الرجل الواحد يوشيدا» فقد حمل على كتفيه وبمفرده مهمة قيادة اليابان بعد الهزيمة الساحقة فى الحرب - ثم «ساتو» وقد حمل على كتفيه بمساعدة مجموعة رجال الأعمال الأقوياء ومجموعة المديرين الأكفاء مهمة بناء المعجزة الاقتصادية لليابان - ثم جاء «تاناكا» فى أوقات متغيرة، وقرارات مازالت مثل قمم جبال فيوجياما ملفوفة بالسحب).

* أوهيرا وزير خارجية اليابان

(لأن اليابان سوف تكون مدعوة مهما قال الناس عنها ومهما قالت هى عن نفسها إلى تحديد دورها العالمى وإلى رفع الحجب عنها مع توازن عالمى أصبحت فيه، شاءت أو لم تشأ واحدة من القوى الأعظم فى هذا الزمان، بل إن كثيرين يرون أن القرن القادم، القرن الحادى والعشرين سوف يكون قرن اليابان).

* ناكاياما المشرف على توجيه عمليات الاقتصاد اليابانى فى العالم.

(لأن المعجزة اليابانية فى صميمها معجزة اقتصادية، والنمو الذى شهدته وتشهده نمو خرافى.

بلد نما ابتداء من سنة ١٩٥٠ بمعدل ١٠ فى المائة سنويًا وبالتراكم فإن معدل نموه يزداد بطريقة مخيفة:

كان الإنتاج القومى لليابان سنة ١٩٧٠ هو ٢٠٠ بليون دولار.

وسنة ١٩٧٥ سيصل الإنتاج القومى لليابان إلى ٤٠٠ بليون دولار.

وسنة ١٩٨٠ سيصل الإنتاج القومى لليابان إلى ٨٠٠ بليون دولار.

وهو حاليًا يوازى الإنتاج القومى لكل دول السوق الأوربية المشتركة بأسرها.

وهو فى سنوات قليلة سوف يتعادل مع الإنتاج القومى للولايات المتحدة الأمريكية نفسها.

وبعد ذلك... فإن السماء هى الحدود كما يقولون).

* كوبو مدير مؤسسة الدفاع اليابانى.

وهى البديل لوزارة الحربية أو وزارة الدفاع فى بلاد العالم الأخرى.

(لأن السؤال المعلق الكبير فى التوازن الدولى كله، وبالذات فى منطقة المحيط الهادى، حيث نقطة لقاء أو صدام أربع من القوى الأعظم فى هذا العصر: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين واليابان - سوف تكون هناك.

وكانت اليابان ممنوعة حتى الآن - رسميًا - من أن تتسلح بمقتضى صك الهزيمة الذى وقعته سنة ١٩٤٥ على ظهر حاملة الطائرات الأمريكية ميسورى التى دخلت شاهرة مدافعها فى خليج طوكيو.

ولكن زمنًا طويلاً مضى على ذلك اليوم.

ومع كل يوم - وبالمعجزة الاقتصادية - تغير كل شىء فى اليابان وطرحت الظروف الجديدة سؤالاً ملحًا على اليابان وعلى العالم وهو:

- هل يمكن لقوة اقتصادية عظمى أن تحمى مصالحها الهائلة بغير قوة مسلحة؟

وإذا أعيد تسليح اليابان... إذن فإلى أين؟)

....

....

كنت أريد أن أقابل هؤلاء الأربعة: تاناكا وأوهيرا وناكاياما وكوبو وقد قابلتهم جميعًا..

قابلت أيضًا غيرهم بالمصادفات أو بالضرورات، واستمعت وتحدثت، وناقشت وحاورت، وكنت أظن أننى هذه المرة سوف أصل إلى أعماق السر اليابانى، ولكن هذه المرة أيضًا خرجت والسر هناك لم آخذ مفاتيحه معى!

ولقد عشت هذه التجربة مع اليابان كثيرًا، ذلك أننى ذهبت إليها فى ربع القرن الأخير بمعدل مرة كل أربع سنوات، وكنت فى كل مرة أحاول بجد أن أفهم وأن أستوعب، وأظن - ربما متفائلاً - أننى فهمت واستوعبت أشياء عديدة، ولكنى أزداد اقتناعًا مرة بعد أخرى أن القاع مازال بعيدًا، وأن كل ما فعلته هو أننى لامست السطح أو لعلى خربشت بأظافرى تحت السطح قليلاً!

وفى كل مرة كانت تعود إلى ذاكرتى صورة زودنى بها الدكتور محمود فوزى وحملتها معى إلى اليابان فى أول مرة ذهبت إليها سنة ١٩٥١.

فى ذلك الوقت كان الدكتور محمود فوزى مندوب مصر الدائم فى مجلس الأمن، ولكن خبرته باليابان وإلمامه بتاريخها وحضارتها من تأثير ست سنوات قضاها فى شبابه قنصلاً عامًا فى يوكوهاما - كانت معروفة.

وتصادف وجوده مرة لمشاورات فى القاهرة وكنت أتأهب لسفرة الشرق الأقصى مراسلاً حربيًا فى كوريا، وذهبت إليه أسأله عن اليابان وأقول له إن اهتمامى بها كبير من أسباب عديدة، ثم إنها سوف تكون القاعدة الخلفية لعملى: أذهب إلى ميدان القتال فى كوريا ثم أعود إليها، ثم أذهب وأعود حتى تنقضى مهمتى...

ويومها قال لى الدكتور فوزى وكانت ابتسامته الغامضة عنده من وقتها:

- ليس لدى مفتاح لليابان أعطيه لك ويفتح لك بالمعرفة كل أبوابها... ولكنى سأعطيك صورة ولك أن تستخدمها كما تشاء».

واستطرد الدكتور فوزى يقول:

- عندما تذهب إلى طوكيو، حاول أن تزور أى حديقة يابانية، وجرب أن تقضى فيها وقتًا طويلاً تستكشف وتتأمل.

سوف يلفت نظرك شىء هو أنه ليست هناك بقعة واحدة فى أى حديقة يابانية تستطيع أن تقف عليها وترى منظرًا شاملاً للحديقة كلها (بانوراما).

مهما وقفت على مرتفع فى حديقة يابانية فإنك سوف ترى جزءًا منها ولن تراها كلها.

الوادى وراء التل مباشرة... والشلال المتدفق يندفع إلى الكهف ويخرج جدولاً هادئًا حيث لا تتوقع أن تراه... وحوض الزهر فى حضن كتلة الصخر.

الحديقة اليابانية مثال للشخصية اليابانية.

ليست هناك نقطة واحدة فيها تستطيع أن تعطيك الحقيقة كلها.

هذا ما لدى عن اليابان».

ولعلى اعتبرت يومها أن الدكتور محمود فوزى. وضع شبابى - وقتها - أمام عملية تعجيز.

ثم أجد بعد ربع قرن، وبعد زيارات متكررة ومتلاحقة لليابان، أنه كان صادقًا معى!

وأعترف أن «كاكوى تاناكا» رئيس وزراء اليابان لم يبهرنى كزعيم سياسى.

ليس كديجول مثلاً (رؤيته تاريخية نفاذة تعلقت بالقمم وكشفت كل السفوح والسهول أمامها).

ليس كخروشوف مثلاً (شخصية سياسية معقدة متنوعة الألوان والظلال سريعة الفعل ورد الفعل).

ليس حتى كسلفيه - وقد التقيت بهما قبله - «يوشيدا» ثم «ساتو».

ولقد ذهبت إلى مكتبه وأنا أعرف أنه كان مقاولاً كبيرًا، دخل السياسة من باب الأعمال وبنى موقفه السياسى على أساس التقارب مع الصين.

وكان سلفه «إيزاكو ساتو» هو الذى أفسح له الطريق عندما بدا أن التقارب مع الصين أصبح ضرورة حتمية أمام السياسة اليابانية بعد أن اكتشفت اليابان «بالصدمتين» - كما يقولون فى طوكيو - أنه أصبح محتمًا عليها أن تهز نفسها من النوم أو التظاهر به تحت مظلة الحماية الأمريكية والعلاقة الخاصة بين واشنطن وطوكيو.

وكانت الصدمتان هما:

* إخطار اليابان بقرار نيكسون أن يزور الصين ويسوى أموره معها، قبل إعلان النبأ للعالم كله بعشر دقائق.

* تخفيض سعر الدولار الأمريكى فى العام الماضى بنسبة ٨٪ قبل إعلان ذلك بدقيقة واحدة للعالم كله رغم علم واشنطن بأهمية ذلك القرار بالنسبة لليابان من عدة نواح بينها ما تحتفظ به اليابان من أرصدة هائلة من الدولار الأمريكى.

وقتها وبعد «الصدمتين» أدرك ساتو أن الوقت قد حان لكى يخلى الطريق لغيره، وعرف أن لديه قضية واحدة عليه أن يتحمل مسئوليتها مع الولايات المتحدة وهى قضية استعادة السيادة اليابانية على جزيرة أوكيناوا، ثم يجمع أوراقه ويذهب ويخلى الطريق لمن يستطيع أن يفتحه مع بكين خصوصًا أن شواين لاى رئيس وزراء الصين لم يكن على استعداد لإخفاء رأيه:

- لا يمكن أن يحدث تقارب صينى يابانى، مادام ساتو رئيسًا للوزراء فى طوكيو، لأنه كان شريكًا مع الولايات المتحدة فى سياسة احتواء الصين وعزلها فى آسيا».

والغريب أن ذلك لم يحدث غضبًا فى طوكيو، ولا خلق عنادًا، ذلك أن الطبيعة اليابانية عملية إلى أقصى حد برغم اعتدادها بنفسها فوق كل تصور!

وكان المنطق فى طوكيو:

«إذا كان التقارب مع الصين ضروريًا... وإذا كان محتمًا لتحقيق ذلك أن يذهب ساتو...

...إذن فليأت تاناكا ولنفتح الطريق من طوكيو إلى بكين».

وكان ساتو هو الذى مهد لتاناكا، وهذه أيضًا معجزة من معجزات تقسيم الأعمال وتوزيع الأدوار فى اليابان.

كأن اليابان كلها عائلة واحدة متماسكة، ملتزمة بمصلحة مشتركة، ولكل واحد من أفرادها وقته حسبما تتغير الأوقات... ووفق ما تقتضيه الضرورات فى الداخل والخارج... ولقد يقال إن ذلك منطق إقطاعى.

وقد يكون القول صحيحًا...

وربما أضفت إليه:

- أن اليابان فى الداخل هى أول تجربة فى العالم تقوم على الاقطاع الصناعى فى بنائها الداخلى... وذلك له انعكاساته على علاقاتها الدولية».

* * *

كان مقر رئيس وزراء اليابان تحت حراسة شديدة:

كان الحرس فى الحديقة على مسافات متقاربة، وكانت مسدساتهم معلقة فى أحزمة الوسط، وأيديهم ممسكة بأجهزة اللاسلكى يتلقون الأوامر ويعطون المعلومات.

وفهمت، عندما عرفت أن الموعد اللاحق لموعدى مع رئيس الوزراء هو موعد للسفير الأمريكى فى طوكيو تقرر أن يبحث فيه وضع معاهدة الأمن المشترك بين اليابان والولايات المتحدة.

وكان الخوف على السفير الأمريكى شديدًا ومن هنا الحراسة المشددة.

وتذكرت - مرة أخرى - كيف تغيرت الأزمنة.

تذكرت أيام رأيت اليابانيين كلهم فى شوارع طوكيو ينتحبون بكاء لأن الجنرال ماك آرثر قائد قوات الاحتلال الأمريكى بعد الحرب استدعى الإمبراطور هيروهيتو إلى مقره العسكرى فى مبنى داتيشى - الذى أصبح الآن بنكًا كبيرًا - لكى يبلغه ببعض رغبات قوات الاحتلال ويطلب إليه أن يكون مسئولاً شخصيًا عن تنفيذها.

وكانت هذه الإهانة للإمبراطور - سليل الشمس المشرقة - أكثر مما يحتمل بالنسبة لشعب اليابان، ولكن الشعب لم يكن يملك وقتها غير الركوع على طريق مسيرة الإمبراطور وغير ذرف الدموع بحرقة وفى صمت مخيف من كثرة ما هو معبأ بشحنات خطرة وإن كانت عاجزة.

ووقتها وطوال المقابلة مع الجنرال ماك آرثر لم يكن لدى الإمبراطور إلا أن يتلقى الأوامر، وربما كان يردد طوال الوقت كلمته المأثورة التى لا يسمع منه زواره غيرها وهى:

«أسودسكا»؟

وترجمتها الحرفية بالإنجليزية هى: Is that so

وأقرب ما يؤدى معناها بالعربية هو: «أهكذا؟!».

* * *

واستقبلنى «كاكوى تاناكا» رئيس وزراء اليابان فى غرفة صالون ملحق بمكتبه، ثم دخلنا معًا إلى قاعة المكتب، وكنت أدير البصر فيه حينما كانوا فى بداية المقابلة يقدمون لنا فناجين عتيقة من شاى اليابان الأخضر التقليدى.

غرفة المكتب بسيطة كما رأيتها من قبل.

زاد عليها بجانب المكتب علم يابانى ينسدل على قاعدة وسارية من الفضة.

زهور يابانية رقيقة وأنيقة على المكتب وعلى المائدة التى نجلس حولها.

صورة للإمبراطور والإمبراطورة معلقة فى ناحية.

فى مواجهتها لوحة من عمل الفنان التأثيرى المشهور «سيزان».

صورة لإدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا بتوقيعه على رف، وسألت «تاناكا» وقال لى:

ـ هو رئيس الوزراء الوحيد الذى زارنى منذ توليت منصبى وأهدانى صورته».

وبدأنا ندخل فى موضوع الحديث على مهل.

سألنى:

ـ قرأت أنك كنت فى الصين وأنك قضيت أربع ساعات مع شواين لاى»؟.

قلت:

ـ صحيح...».

قال:

ـ لابد أن درجة البرودة فى بكين كانت عالية».

قلت:

ـ كانت ما بين ست عشرة وثمانى عشرة تحت الصفر».

قال:

ـ برودة شديدة ... لكنى عندما ذهبت إلى الصين فى الخريف كان الجو دافئًا».

قلت ضاحكًا:

ـ كانت الثلوج تذوب ... ألم يكن ذلك هو القصد من زيارتك»؟

وبدا لى أننى فاجأته لأنه راح يشفط من فنجان الشاى الأخضر ساكتًا ينتظر على حذر خطواتى التالية!

* * *

قلت لتاناكا:

أريد فى البداية أن أسألك سؤالاً عامًا:

ذات مرة كنت مع كوف دى مورفيل رئيس وزراء فرنسا وكانت له نظرية فى شكل الصراع الدولى المقبل، مؤداها أن نقطة الصراع العالمى سوف تنتقل من أوربا ومن الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى، حيث تتقابل وجهًا لوجه على جانبى المحيط الهادى أربع من القوى الأعظم فى زماننا وهى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين واليابان.

هل توافق على هذه النظرية... هل تختلف معها... هل لك تحفظات عليها»؟.

وقال تاناكا وهو يلتقط آخر جملة قلتها:

ـ إننى أتحفظ عليها فيما يتعلق باليابان.

إن اليابان ليست بين القوى الأعظم.

إن قوتنا العسكرية محدودة أو محددة ونحن ملتزمون بذلك بسبب ما وقعنا عليه بعد الحرب العالمية الثانية.

هل يمكن أن تكون هناك قوة عظمى بدون جيش كبير؟.. وهل يمكن أن تكون هناك قوة عظمى بدون سلاح نووى...؟

إن اليابان ممنوعة من إنتاج السلاح النووى، ونحن من جانبنا نرغب فى ذلك ونتمسك به لأن لدينا عقدة من السلاح النووى... نحن البلد الوحيد الذى جرب أهواله، ولا نريد أن نفكر فيه.

ما نريده هو أن نواصل نمونا الاقتصادى، وما نريده هو أن نكون بعيدين عن الصراعات الدولية.

إننا نريد أن نقوى علاقاتنا مع دول العالم كلها.

ونحن لا نملك إلا جيشًا دفاعيًا صغيرًا، وذلك شىء منصوص عليه فى دستور

اليابان الذى يحدد ما يمكن أن نصرفه على الدفاع، بما لا يزيد على واحد فى المائة من إنتاجنا القومى.

ونحن نريد أن نكون قوة اقتصادية بغير لون سياسى... ونفعل ذلك حتى فيما نقدمه للدول الأخرى من المساعدات.

إن مساعداتنا للدول النامية هى الآن ٩٦ فى الألف من دخلنا القومى وسوف نرفع هذه النسبة ونزيد من مساعداتنا للدول النامية، ونعتقد أن هذا ضرورى... ونريد أن نقدم بغير شروط سياسية.

إن مساعدات الولايات المتحدة مثلاً لها لون سياسى.

ومساعدات الاتحاد السوفيتى لها لون سياسى أيضًا.

نحن نريد أن تكون مساعداتنا بلا لون سياسى...».

* * *

قلت لتاناكا:

-أرجوك ألا تتضايق من إلحاحى.

دعنى أضع أمامك الصورة كما أراها.

اليابان قوة اقتصادية هائلة... هى الآن قوة الإنتاج الثالثة فى العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

ونسبة النمو فى الولايات المتحدة لا تزيد على ٣ فى المائة سنويًا.

ونسبة النمو فى الاتحاد السوفيتى هى الآن فى حدود ٦ فى المائة سنويًا.

أنتم هنا لديكم نسبة نمو سنوية تتراوح ما بين عشرة وأربعة عشر فى المائة.

وكان هناك من يتصورون أن هذه النسبة سوف تتوقف عن الزيادة مع حقبة السبعينيات ولكن الزيادة مستمرة ومن الواضح أنها سوف تستمر مع السبعينيات والثمانينيات.

والنتيجة أن اليابان قد تتفوق فى أواخر هذا القرن من ناحية الإنتاج على الولايات المتحدة وعلى الاتحاد السوفيتى، هناك من يقدرون أنها فى نهاية القرن سوف تصل إلى حجم إنتاج سنوى قيمته ثمانية آلاف بليون دولار!

هى قوة اقتصادية مخيفة.

هذا جانب من الصورة.

الجانب الآخر هو أن المعجزة الاقتصادية اليابانية تعتمد أصلاً وأساسًا على مواد خام كلها من الخارج، كما أنها تعتمد أصلاً وأساسًا على أسواق كلها فى الخارج.

هذا جانب ثان

والجانب الثالث هو أن واردات اليابان من المواد الخام وصادرات اليابان من السلع الصناعية تذهب كلها عبر البحار الواسعة إلى مسافات طويلة... أى أن حياة اليابان كلها خطوط مواصلات.

وإذا وضعت هذه العناصر الثلاثة كلها معا فإننا نخرج بما يلى:

* بلد لديه قوة اقتصادية هائلة.. حالية ومستقبلة.

* بلد يعتمد على الخارج فى موارده الخام وفى صادراته.

* بلد يريد خطوط مواصلاته مفتوحة ذهابًا وإيابًا، خصوصا عبر مضايق ملقا.

وما أسأل عنه هو ما يلى:

-أولا-هل يستطيع بلد بهذا الوضع أن يستغنى عن وجود سياسة خارجية له...؟

أقصد هل يمكن أن تكون هناك قوة اقتصادية هائلة بغير تعبير سياسى عنها.

-وثانيا-هل يمكن لأى تعبير سياسى أى سياسة خارجية أن يستغنى عن عنصر القوة المسلحة خصوصا إذا كان-بإرادته أو على الرغم منه-فى مواجهة-أو على الأقل منافسة-مع قوى عظمى من حول هذه الجزر التى يعيش فيها؟

هذا هو سؤالى !»

واستطردت أقول لتاناكا:

- وقد تأذن لى أن أضيف عليه أنه حتى لو أخذنا بالنص الحالى فى الدستور، وهو النص الذى يحدد ما يمكن أن تصرفه اليابان على الدفاع، بما لا يزيد على واحد فى المائة من إنتاجها القومى فإن الرقم الذى سنجده أمامنا للدفاع.. رقم خيالى الآن. فى الوضع الحالى يمكنكم أن تخصصوا للدفاع - مع الالتزام بنص الدستور - ٢٥٠٠ مليون دولار سنويا، وسنة ١٩٧٥ يمكنكم أن تخصصوا للدفاع ٤٠٠٠ مليون دولار سنويا... وهكذا وهكذا مع استمرار زيادة الإنتاج القومى اليابانى، وعلى فرض الالتزام بنسبة مخصصات الدفاع المنصوص عليها فيه.

هل استطعت أو أوضح سؤالى أكثر؟».

* * *

وقال تاناكا:

- سوف أرد على سؤالك وأقول:

إن اليابان لن تكون الدولة التى ستحكم العالم؟»

وانتظرت أن يستطرد ولكنه سكت!

وقلت:

- إننى لم أشر من قريب أو بعيد لحكم العالم... ولا أتصور أن اليابان سوف تحكم العالم... ما أريد أن أقوله هو أن اليابان لا تستطيع ولا تملك أن تعيش بهذه القوة الاقتصادية الهائلة بدون سياسة خارجية... ثم إنه يصعب علىّ أن أتصور وجود سياسة خارجية بغير عضلات.

هذه هى المشكلة التى تحير العالم كله فيما يتعلق بالدور المحتمل، أو المنتظر لليابان؟»

وقال تاناكا:

- إننى أسلم أن إنتاج اليابان زادت معدلاته كثيرًا فى السنوات الأخيرة، ونحن قوة اقتصادية ضخمة بغير جدال، لكن علينا أن نتذكر أنه ما زالت أمامنا مشاكل كبرى فى داخل اليابان نفسها من أهمها رفع مستوى الخدمات الاجتماعية.

هناك مشكلة أخرى تشغلنى وقد ألفت عنها كتابًا قبل أن أتولى رئاسة الوزارة فى اليابان وهو عن مشكلة التلوث.

إننا بسبب تقدمنا الصناعى نواجه مشكلة تلوث خطيرة.

إننا نعرف ظروفنا.

نحن نعيش فى جزر يحيط بها البحر من كل النواحى.

إننا حفرنا الجبل بحثًا عن الطعام وحصدنا البحر لنفس السبب أيضًا.. أكلنا جذور الشجر، وأكلنا أعشاب الماء.

ثم اكتشفنا الصناعة وتعلمنا من أوربا وقلدناها فى بعض الأوقات، ولكننا الآن نملك تكنولوجيا يابانية قادرة على التطور والإبداع.

إن الصناعة أفادت وأضرت فى نفس الوقت.

بحارنا كلها تكاد تصبح مسمومة من كثرة ما نفرغه فيها من فضلات المصانع خصوصا من الكيماويات.

جبالنا وغاباتنا كلها تكاد تختنق من دخان المصانع.

مدننا مزدحمة ومرافقنا مثقلة بما عليها من أعباء.

بهذا الشكل فإننا على وشك أن نقتل الطبيعة عندنا.

والحلم الذى يراودنى هو استغلال قوة اليابان فى إعادة بناء اليابان.

كتابى كان عن ضرورة إعادة بناء اليابان كلها... إعادة تخطيطها...

إن دخلنا كبير ونحن لا نريد استخدامه فى التوسع أو التورط فى صراعات مع الآخرين، ولكننا نريد أن نستخدمه فى جعل هذه الجزر مكانا صحيا وجميلا للحياة فيه.

أليس هذا هدفا يستحق أن نعمل من أجله؟»

* * *

قلت لتاناكا:

ـ سيادة الرئيس... إننى لا أريد أن أكون عنيدا.. ولا أريد أن أتجاوز، ولكن الأمانة تفرض علىّ أن أقول لك إنك لم تجب عن سؤالى.

هل يمكن أن تكون هناك قوة اقتصادية بغير تعبير سياسى عنها... أى سياسة خارجية أو دور دولى سمه كما تشاء؟

ثم هل يمكن أن يكون هناك تعبير سياسى أو سياسة خارجية أو دور دولى بدون قوة ردع على الأقل؟

هل يمكن للقوة الاقتصادية أن تكون عزلاء؟

إن الصين على الشاطئ الآخر قوة ذرية.

والاتحاد السوفيتى، وبينكم وبينه مشكلة على جزر «الكوريل» قوة ذرية.

والولايات المتحدة على الناحية الأخرى من المحيط الهادى قوة ذرية.

هل يمكن وسط ذلك كله أن تكون اليابان بقوتها الاقتصادية الهائلة عارية من السلاح الذرى أو من سلاح يكفيها للدفاع عن نفسها ومصالحها؟»

وقال تاناكا:

ـ إننا لن نتخذ قرارًا بأن تكون لدينا قوة ذرية... نحن ممنوعون من ذلك دوليا ودستورنا يحرمه كما أننا لا نريده».

قلت:

ـ ولكن إمكانية صنع السلاح الذرى متوافرة لليابان فنيا واقتصاديا ولديكم محطات ذرية كثيرة».

قال تاناكا:

ـ كلها محطات ذرية للسلام.. لتوليد الطاقة».

قلت:

ـ ولكنها تستطيع أن تعطيكم كمية البلوتونيوم الكافية لإنتاج مخزون من القنابل الذرية، كما أن صنع الصواريخ ليس مشكلة أمامكم».

قال تاناكا:

ـ ولكننا لم نتخذ قرارًا بالتسلح النووى ولن نتخذه.

نحن نريد أن نعيش فى سلام».

قلت:

ـ هل تستطيع اليابان أن تعزل نفسها عما يجرى فى العالم.

إننى كنت مع شواين لاى قبل أيام وسألته عن أحوال العالم المتغيرة وكان رده المختصر والمفيد فى وصف أحوال العالم هو:

تحالفات جديدة... انقسامات جديدة... ثم فوضى ـ أو فوران ـ فى كل مكان».

هل تستطيع اليابان أن تعزل نفسها عن هذا العالم؟».

وقال تاناكا:

ـ لقد شهد العالم بعد الحرب العالمية الثانية صداما بين الشرق والغرب، ثم اكتشف الجميع أن الحرب العالمية مستحيلة لأنها بين القوى العظمى سوف تتحول إلى حرب ذرية وهذا ما لا يستطيع أن يتحمله أحد، من هنا فإن الكل اتجهوا إلى عصر جديد... عصر تسوية المنازعات عن طريق المفاوضات».

قـلت:

-إذا أذنت لى فإن العصر الجديد... عصر تسوية المنازعات عن طريق المفاوضات لم يقم على نزع السلاح ولكنه قام ويقوم على توازن القوى».

وقال تاناكا:

-ألا يمكن أن يحل التعاون محل التوازن... إننا ذهبنا إلى الصين وسوينا خلافاتنا القديمة معها عن رغبة فى التعاون؟».

قـلت:

-أن يحل التعاون محل التوازن فى حفظ السلام، فذلك أمل للبشرية ولكنه يقتضى أن يصبح الإنسان غير الإنسان...

ولست متشائما لأننى مؤمن بالإنسان... ولكن باعتباره إنسانا. فإن له فضائله وله مطامحه... وبفضائله ومطامحه... أى بمبادئه ومصالحه، فإن حياة الإنسان صراع متصل.

ومع ذلك فإنى أريد أن أسأل:

إنك ذهبت إلى الصين مستعدا للاستجابة لطلباتها بالتعويض عما أصابها من خسائر بسبب عدوان اليابان عليها... برغم ذلك فإن شواين لاى قال لك كما فهمت أن الصين لا تريد تعويضات من اليابان... كنت على استعداد لأن تدفع بلايين الدولارات وأعفوك من الدفع... لماذا؟».

قال تاناكا:

-إن شواين لاى قال لى إنه يريد صفحة جديدة فى العلاقات مع اليابان ولا يريد أن يفتح صفحة الماضى».

* * *

لم تكن هناك جدوى من الإلحاح وقلت لتاناكا:

-على ذكر الصين، إنكم هنا تمثلون تحديا تكنولوجيا هائلا.. والصين على الناحية الأخرى من البحر تمثل تحديا أيديولوجيا هائلا.

وفى ظنى أن هناك ملاءمات اجتماعية جاء وقتها فى اليابان إزاء قوة الجذب الكامنة فى التجربة الصينية».

وقال تاناكا:

-ذلك صحيح... إننا فى حاجة إلى عمل اجتماعى واسع وعميق لرفع مستوى الضمان الاجتماعى فى اليابان.

إن مستوى الدخل فى اليابان أصبح مماثلا لمستوى الدخل فى أوربا الغربية.

ولكن مستوى الضمان الاجتماعى فى اليابان لا يزيد على نصف ما هو متاح للفرد فى الدول الأوربية.

ولذلك لا بد من زيادة وتوسيع رقعة الضمان الاجتماعى.

هناك أيضا ما قلته لك من قبل عن إعادة تخطيط الجزر اليابانية لتكون أكثر صحة وأكثر جمالا.

لدينا خطة لذلك وقد اعتمدنا ما يكفى لتنفيذ ٣٠ فى المائة منها».

* * *

قلت لتاناكا:

-سؤال أخير عن الشرق الأوسط».

قـال:

-نحن نحاول أن نتبع سياسة متوازنة فى الأزمة».

قـلت:

-سيادة الرئيس... إن اليابان تحصل على ٨٥ فى المائة من البترول الذى تستعمله من الخليج العربى.

ولست أعرف ما هو المقصود بسياسة متوازنة، ولكن أعتقد أن اليابان مطالبة بحكم مصالحها مع المنطقة بدور نشيط فى صراعاتها».

....

....

وكان تحفظ تاناكا واضحا وإن كان وزير خارجيته أوهيرا قد اختار موقفا أقل تحفظا فى لقائى معه بعد ذلك إذ قال لى ونحن فى مكتبه بوزارة الخارجية ومعنا السفير صلاح حسن، سفير مصر الذى لا يهدأ نشاطه فى طوكيو:

- إن موقف اليابان من أزمة الشرق الأوسط هو رفض الاعتراف بالوضع الحالى الذى نشأ كنتيجة لاستخدام القوة العسكرية. ورأينا وموقفنا هو ضرورة العودة إلى الوضع الذى سبق استخدامها، ولكن تحقيق ذلك يجب أن يتم بغير حرب.

وإنه لمن المؤسف أن تتخذ بعض الدول العربية موقفا واقعيا، بينما تتخذ إسرائيل موقفا غير واقعى وترفض قبول التسوية السلمية العادلة».

ودخلنا بعدها فى مناقشة متشعبة عن أزمة الشرق الأوسط وتطوراتها واحتمالاتها.

ولقد غادرت طوكيو بعد خمسة أيام مزدحمة فيها وليست معى هذه المرة أيضا مفاتيح لكل الأبواب فى اليابان.

وربما لو أردت تلخيص ما خرجت به لقلت بما يلى:

١ - إن العملاق اليابانى يرى أبعاد قوته الحالية والمستقبلة وهو خائف منها إلى أبعد مدى... ربما أكثر من خوف الآخرين من هذه القوة.

ولعله بسبب ذلك فإن العملاق اليابانى لم يستقر بعد على قرار.

والعملاق اليابانى يحاول أن يقول لكل الناس صراحة إنه «حيوان اقتصادى»، لا تهمه السياسة من قريب أو بعيد، ولكنه مع ذلك يغضب إذا أحس بأن الآخرين غير

متنبهين لدوره المحتمل، وأظن أن اليابان كلها لم تستطع أن تنسى الجرح الذى أحست به ذات يوم عندما كان ديجول على موعد مع رئيس وزرائها ساتو، ونقل عن ديجول قوله: «ماذا سأقول له... إذا كان يصر على أنه ليس إلا بائع ترانزستور متجول»؟!

٢ - إن اليابان ما زالت فى أعماقها ممسوكة برواسب الماضى وهى تذكر بقسوة تجربة ضربها بالقنبلة الذرية وتدرك فى صميمها أنها ضربت فى الحقيقة بسبب الصراعات الدولية.

إن اليابان كانت قد قررت الاستسلام فعلا للحلفاء عندما سقط هتلر وانتحر فى أنقاض خنادق دار المستشارية فى برلين. وأبلغت اليابان رغبتها فى الاستسلام فى ذلك الوقت إلى روسيا، لكى تعرض طلبها على الولايات المتحدة ولكن روسيا «نامت» على الطلب لأنها بعد الفراغ من هتلر فى أوربا أرادت أن تسوى حسابات لها فى الشرق الأقصى وبعض هذه الحسابات كان مع اليابان.

وهكذا فإنها بدل أن تعرض استسلام اليابان على الولايات المتحدة بادرت إلى إعلان الحرب على اليابان.

وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة التى كانت قد كسرت كل أسرار الشفرة اليابانية كانت على علم برغبة اليابان فى الاستسلام، ومع ذلك فإنها ضربتها بغير ضرورة بأول قنبلة ذرية. وفى يقين اليابان أن ذلك حدث لإرهاب روسيا أكثر منه لإخضاع اليابان، وقد أثبتت وثائق الحرب العالمية الثانية أن بعض ذلك كان يجول فى فكر الرئيس الأمريكى هارى ترومان عندما اتخذ القرار بإلقاء القنبلة الذرية الأولى على هيروشيما.

٣ - إن تردد اليابان فى أن تتخذ لنفسها دورا دوليا لن يتأخر طويلا والأرجح أن يأتى فى فترة ما بين سنة ١٩٧٥ إلى سنة ١٩٨٠.

وتريد اليابان أن تفكر وأن تفكر بعمق قبل أن تختار.

وربما تريد أن تتأكد وتتأكد أيضا قبل أن تقدم على خطوة واحدة.

وقد يكون فى ضمير اليابان من تجربتها السابقة أنها اختارت على عجل فى الحرب العالمية الثانية وكان اختيارها قائما على تأكد من قوتها سبق وقته المناسب فى تلك الآونة.

٤ ـ أنه مهما كان من اختيار اليابان فإن اختيارها سوف يهز الدنيا كلها.

اختيارها سوف يؤثر فى أمريكا التى تحاول الآن أن تعتمد عليها كعنصر ثبات فى مواجهة متغيرات الصراع الصينى السوفيتى.

اختيارها سوف يؤثر فى روسيا التى تركز أنظارها على نزاعها مع الصين وتكره ما تراه من تقارب صينى يابانى.

ثم إن اختيارها سوف يؤثر فى الصين وهى الأخرى تركز على نزاعها مع الاتحاد السوفيتى وتشجع بكل وسيلة تقارب اليابان منها.

٥ ـ مع ذلك كله فإن اليابان سوف تؤخر قرارها أو اختيارها إلى أقصى حد ممكن وعندما تختار فإنها سوف تفعل ذلك بطريقة لا يتوقعها أحد.

إن تركيب السلطة فى اليابان غريب، وهو تركيب ثلاثى يتكون من مجموعة رجال الأعمال، والحزب الحاكم، وجهاز الدولة.

وهم فى اليابان يسمونها مجموعة «الصخرة» و«الورقة» و«المقص».

الصخرة هى رجال الأعمال وهم صلب الحقيقة فى اليابان.

الورقة هى جهاز الدولة وهى تستطيع أن تلف الصخرة وتغطيها.

والحزب الحاكم هو المقص، والصخرة تستطيع أن تكسره إذا ضربته، كما أنه بدوره يقدر أن يقص أطراف الورقة.

والمهم أن هذا التركيب الثلاثى فى السلطة يستطيع أن يكون عمليا بطريقة مخيفة، أى أنه يستطيع أن يلائم نفسه بسرعة مع الظروف وبشكل لا يخطر على بال الآخرين.

والمثل الواضح القريب لذلك أن اليابان انتقلت فى ثلاثة أيام من أكثر دولة مدججة بالسلاح، إلى أكثر دولة مسالمة.

كان لديها ثلاثة ملايين تحت السلاح فى الحرب العالمية الثانية وكانت تستطيع أن تجعل الولايات المتحدة تدفع ثمنا غاليا ودمويا لهزيمتها من جزيرة إلى جزيرة.

ولكنها بعد ثلاثة أيام من الاجتماعات تحت رئاسة الإمبراطور وجدت أنه لا جدوى من استمرار الحرب بعد انهيار ألمانيا وكان القرار هو: الاستسلام بلا قيد ولا شرط، ولتبدأ صفحة جديدة فى التاريخ حتى مع الهزيمة المطلقة... رغم أن أبرز ما يميز الشخصية اليابانية تقليديا هو أنها «لا تخاف من العقوبة ولكنها تخاف من العار».

وليس معنى ذلك أننى أقطع مسبقا برأى فى اتجاه القرار الذى ستتخذه اليابان ولكنى أقول إن اليابان قادرة على أى اختيار... وإذا وقع ذلك فإنه سيكون مفاجأة للدنيا كلها ليست مثلها مفاجأة.

....

....

ويبقى قول الكاتبة الأمريكية روث بندكت صحيحا من أنه بين أبرز مفاتيح الشخصية اليابانية ذلك «المزيج فى أعماقها بين زهرة الكريزانتيم الرقيقة والسيف اللامع القاطع!!».

البانجو باندو فى داكا

مأساة الطبيعة ومأساة الإنسان

لقد اخترت موقفى مع «بنجلاديش» منذ اللحظة الأولى التى انفجر فيها الصراع الدامى الرهيب الذى مزق شبه القارة الهندية وترك على سطحها وفى أعماقها جراحا غائرة لا أظنها تلتئم قبل زمان طويل!

كان موقفى مع «بنجلاديش».

ولم يكن ذلك يعنى انحيازا للهند، أو انحيازا ضد باكستان، ذلك لأن الانحياز لم يكن القضية المطروحة، وإنما القضية المطروحة كانت - ولا تزال - هى حرية ووحدة أمم شبه القارة الهندية، والمعادلة الصعبة التى تحكم النضال من أجل الهدفين: الحرية والوحدة.

ومؤدى هذه المعادلة الصعبة بين الاثنين فى كل مكان وزمان هى:

- أننا لا نستطيع باسم الحرية أن نمزق الوحدة.

* ولكننا لا نستطيع باسم الوحدة أن نقتل الحرية!

ولقد كان الفشل فى إدارة هذه المعادلة الصعبة هو الذى أدى إلى تقسيم شبه القارة الهندية.

كان هناك شىء واحد فى شبه القارة الهندية هو: الهند.

انقسم الواحد إلى اثنين فى شبه القارة الهندية: الهند وباكستان.

أصبح الاثنان ثلاثة فى شبه القارة الهندية: الهند وباكستان وبنجلاديش.

وغدا أو بعد غد، قد يشهد شبه القارة الهندية انقسامات أخرى، وهذا محتمل، لأن الفشل فى إدارة معادلة الحرية والوحدة مازال قائما، ولأن رواسب الماضى ثقيلة، ولأن الحاضر يجىء معه بتعقيدات كثيرة أظهرها اليوم فى شبه القارة الهندية، آثار

الصراع الصينى السوفيتى فى منطقة تقع جغرافيا وسياسيا وراء ظهر أو تحت بطن العملاقين: الاتحاد السوفيتى والصين.. إلى جانب الألعاب الخطرة التى تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية!

* * *

ولعلى كنت مهيأ للتعاطف مع شعب البنغال، قبل أن تنشأ حركة استقلال بنجلاديش - أمة البنغال - وتمر بتجربة العذاب التى عاشتها سنة ١٩٧١ وما زالت تعيشها إلى الآن.

وقد أحار فى تعليل الأسباب:

* لعل بعض التعاطف الذى كان كامنا جاء من قراءات مستمرة عن تاريخ الاستعمار الغربى فى آسيا، وكانت البنغال نموذجا من أشهر النماذج الشاهدة على جريمة الاستغلال البشع التى مارسها الاستعمار..

وقد نتذكر أن البنغال كانت أول مركز لنشاط شركة الهند الشرقية التى كانت فى الواقع أولى فصائل الاستعمار البريطانى على الشواطئ الشرقية لآسيا.

ويذكرنا كتاب «ستراتشى» الشهير عن «نهاية الإمبراطورية» بصور مروعة لما تعرضت له البنغال تحت حكم شركة الهند الشرقية، ويصف ستراتشى فى كتابه أن ما حدث للبنغال لم يكن مجرد استغلال وإنما كان نزحا منظما لكل شىء وجده البريطانيون على الأرض: الذهب وغيره من المعادن.. الكنوز التى أنتجتها حضارات ظهرت واندثرت... مصنوعات الحرير.. المحاصيل الزراعية. كل شىء يمكن نقله وضعته شركة الهند الشرقية على سفنها وأبحرت به إلى بريطانيا فى عملية نزح منظم للثروة، بغير حساب، ولعدة قرون.

* لعل بعض التعاطف الذى كان كامنا جاء من انبهار شاب بشخصية «رابندرانات طاغور» شاعر البنغال العظيم الذى خلد بكتاباته آلام الأرض وآلام الإنسان فى وطنه البعيد وغنى للغروب فى حزن عميق وغنى للشروق بقلب كسير.

وكتب فى أواخر القرن الماضى وكأنه يلمس من بعد مأساة الثلث الأخير من هذا القرن العشرين:

«إن بيتى صغير.

وما فقد منه هيهات أن يعود.

ولكن بيتك يا إلهى بلا حدود.

وحينما ذهبت أبحث عنها.. قادتنى إلى بابك خطاى».

* لعل بعض التعاطف الذى كان كامنا جاء من معرفة لاحقة برد الفعل الذى انطلق فى باكستان الشرقية - بنجلاديش الآن - ضد العدوان الثلاثى على مصر سنة ١٩٥٦.

يومها كانت هناك ثورة حقيقية ضد بريطانيا فى تلك البلاد النائية وأحرقت الجماهير قنصلية بريطانيا فى داكا ولم يبق مكتب لشركة بريطانية فى هذه العاصمة إلا أصابته الجماهير بغضبها، بينما كان هناك عشرات الألوف من المتطوعين يبحثون عن طريق يذهبون منه إلى مصر ليشاركوا فى كفاح شعبها.

وقد بذلت بريطانيا وقتها جهدًا خارقًا لكتمان ما حدث فى باكستان الشرقية، ولم تتضح بالنسبة لى صورته الحقيقية إلا بعد ذلك بثلاث سنوات وأثناء زيارة بالمصادفات وحدها إلى داكا عاصمة باكستان الشرقية وقتها وعاصمة بنجلاديش الآن.

* * *

وربما بغير التعاطف الكامن فإن الحقائق بدت لى واضحة فى حركة استقلال بنجلاديش، ومن هنا اخترت موقفى:

* هناك قومية ولغة فى باكستان الغربية، وهناك قومية ولغة أخرى فى باكستان الشرقية.

* هناك فاصل جغرافى بين الاثنتين بعرض ١٥٠٠ ميل - امتداد عرض الهند - والطريق الوحيد بين جناحى الدولة الباكستانية إما فوق الموج بالبواخر أو فوق السحب بالطائرات.

* هناك مظان وشواهد على وجود استغلال من الغرب للشرق ... وليس ذلك طعنًا فى باكستان، لأن الاثنين والعشرين أسرة التى تسيطر اقتصاديًا - أو كانت تسيطر اقتصاديًا - فى باكستان الغربية هى نفسها التى كانت تستغل فى باكستان الشرقية.

* هناك نوع السلطة التى بدأت تحكم فى باكستان بعد الانقلاب العسكرى الذى قاده الماريشال أيوب خان فى باكستان، وهى سلطة ضيقة الأفق لم تجد لديها للرد على الفكرة إلا وضعها فى السجن، ولم تعثر على شىء تواجه به الكلمة إلا طلقة الرصاص.

* * *

ثم طرأت على ذلك كله فى أواخر سنة ١٩٧٠ وأوائل سنة ١٩٧١ مأساتان يندر أن نجد لهما مثيلاً فى التاريخ:

* مأساة من صنع الطبيعة.

* ومأساة من صنع الإنسان.

كانت المأساة التى صنعتها الطبيعة هى إعصار ليلة ١٢ نوفمبر سنة ١٩٧٠.

فى تلك الليلة اكتسحت شواطئ باكستان الشرقية ثمان من موجات المد العالية تلاحقت وراء بعضها قادمة من المحيط بارتفاع عشرة أمتار، ثم انحسرت بعد أن سحبت نصف مليون إنسان تحولوا فى ساعات مروعة من بشر إلى جثث، وكانت بيوتهم وحقولهم من ورائهم خرابًا ودمارًا، وكان الدمار على أشده فى «نوخالى» و«خولنا» و«باتوخالى» و«شيتاجونج».

وكان المحزن أن أى نظام للأرصاد الجوية كان كفيلاً بالإنذار استعدادًا للمأساة لأن الأعاصير المجنونة كانت تتجمع فى المحيط قبل هجومها بأيام.

ولم يحدث إنذار للآمنين من الناس رغم أن المعلومات كانت متاحة، وكان الأكثر مدعاة للحزن أن جهود الإغاثة والإسعاف كانت قاصرة إلى حد لا يمكن تصوره.

لم تزد عن جولة لجنرال فوق المناطق المنكوبة راكبًا طائرة هليكوبتر ولعله هز رأسه تعبيرًا عن الأسف، ولكن قراره الأول بعد النزول من طائرته كان بمنع الصحفيين والمصورين من الذهاب إلى المناطق المنكوبة حتى لا يعرف أحد أبعاد المأساة.

* * *

وكانت المأساة الثانية من صنع الإنسان، ذلك أن انتخابات عامة جرت فى الباكستان غربًا وشرقًا بعد ذلك، وجرت تحت إشراف الحكم العسكرى، وكان لمأساة الطبيعة: الإعصار - وما حدث فيه دور بارز ساعد على إعطاء أغلبية كاسحة لحزب «عوامى ليج» الذى يرأسه الشيخ مجيب الرحمن - أو بانجو باندو ومعناها صديق البنغال كما يسمونه هناك، وكان من حق الشيخ مجيب أن يؤلف وزارة تحكم غرب باكستان وشرقها، ولكن السلطة العسكرية والمصالح المختفية وراءها رفضت قبول نتيجة ظهرت فى انتخابات جرت تحت إشرافها، ومن ثم فإنها قررت أن تقضى على الشيخ مجيب وحزبه وشعبه.

بدلاً من أن تسلمه السلطة اعتقلته.

وبدلاً من أن تقبل اختيار الجماهير حاولت قتل ممثليها الشرعيين.

وبدلاً من أن تفهم دواعى موقف شعب باكستان الشرقية واجهته بالحديد والنار وكانت مذبحة تختلف التقديرات حول ضحاياها ... تتواضع إلى نصف مليون قتيل وتتصاعد إلى ثلاثة ملايين قتيل، واعتقادى شخصيًا بعد كل ما رأيته فى بنجلاديش أن الحقيقة أقرب إلى التقدير المتواضع وهو نصف مليون قتيل خلال عشرة شهور أطبق فيها الظلام كالحًا وداميًا على بنجلاديش.

والرقم المتواضع نصف مليون قتيل ليس بسيطًا ولا هينًا وإنما هو مأساة كاملة لا يمكن قبولها ويستحيل تبريرها!

يصعب علىّ أن أجد قبولاً أو تبريرًا تحت دعوى أنها كانت مؤامرة على الباكستان لأن السلطة العسكرية الحاكمة فى غرب الباكستان كانت هى التى تقود الحوادث وليس غيرها.

ويصعب علىّ أن أجد قبولاً أو تبريرًا تحت دعوى أنها كانت مؤامرة على الإسلام لأن الإسلام باق فى شرق باكستان كما هو باق فى غربها!

❊ ❊ ❊

لم أكن قد قابلت الشيخ مجيب الرحمن زعيم بنجلاديش ورئيس وزرائها ـ من قبل، ولكن صورة «البانجو باندو» كانت فى كل مكان فى داكا تطل على الناس بابتسامة معبرة عن الألفة تعطى لصاحبها هذا الحق فى لقبه الشعبى «صديق البنغال».

وحاولت قبل موعدى المحدد معه فى بيته أن أسمع عنه ممن رأوه.

وكان آخر من سألته الدبلوماسى الألمانى «الدكتور ياسر» الذى كان فى وقت من الأوقات قائمًا بالأعمال لألمانيا الغربية فى القاهرة. وقد اصطدمت به مصادفة فى فندق «أنتر كونتننتال» الذى نزلت به فى داكا، ومن الغريب أنه كان قادمًا لتوه من مقابلة مع الشيخ مجيب الرحمن بعد توقيع اتفاق معونة اقتصادية بين ألمانيا وبنجلاديش.

وقال لى الدكتور ياسر:

ـ شخصية جذابة... وبالتأكيد فإن تأثيره على جماهير شعبه مذهل».

واستطرد الدكتور ياسر:

ـ ولكن المشاكل التى تواجهه عويصة وعلينا أن ننظر لنرى كيف تستطيع الجاذبية الشخصية أن تواجه المشاكل المستعصية».

وبدأ الدكتور ياسر ـ وهو مستشرق يجيد العربية ويتحدثها بطلاقة مع لكنة ألمانية بالطبع ـ يضحك ويقول:

ـ كان هناك مشهد فى مكتبه يستحق أن تراه.

بينما كنا نتحدث جاء ذكر مصر، وأشار إلى نسخة مذهبة من القرآن أفرد لها مكان الصدارة على مائدة بجانب مكتبه وقال لى:

ـ هذا القرآن جاءنى من مصر...

ونهضت من مكانى ورحت أتأمل المصحف وفتحت أول صفحة فيه وبدأت أقرأ فاتحة الكتاب بعربية فصحى.

وكان يجب أن ترى ملامح وجهه لحظتها.

كان فمه مفتوحًا من الدهشة...

وكان حاجباه معلقين ببوصة على الأقل فوق مكانهما الطبيعى من العجب!».

❊ ❊ ❊

وجاء موعدى مع «البانجو باندو الشيخ مجيب الرحمن» وذهبت إليه فى بيته... المقر الرسمى لرئيس الوزراء.

كان يرتدى قميصًا أبيض وتحته سروال بنغالى من نفس اللون، وفوق القميص صديرى مقفول بلا أكمام.

وكانت ابتسامته بعرض وجهه... وكان حديثه من القلب بغير تحفظات.

وقلت له:

ـ إننى لا أتصور كيف لم ألتق بك من قبل، ولك هذا الدور البارز فى آسيا، وأنا زائر دائم العودة إليها بانتظام»؟.

وقال الشيخ مجيب ضاحكًا:

ـ التفسير بسيط... لأنى كنت فى السجن معظم الوقت... كنت أخرج من السجن لأعود إليه وذلك حال بينى وبين لقاء أصدقاء كان يجب أن ألقاهم».

وأضاف الشيخ مجيب:

-لكن شعبى كان يعرف طول الوقت أين أنا. كما أننى كنت أعرف طول الوقت أين هو».

واستطرد:

-لكن وجدت الفرصة مرة ما بين سجن وسجن لأسافر إلى القاهرة وأزور مساجدها... وكان من آمالى أن أقابل جمال عبد الناصر ولكن الفرصة فاتتنى، وقد بكيت بحرقة عليه».

* * *

وواصل الشيخ مجيب كلامه:

-لقد خضنا نضالاً طويلاً وقاسيًا.

فى العصر الحديث ظللنا فى ثورات ضد البريطانيين لمائتى سنة، وكانت البنغال معقل كل ثورات الهند ضدهم.

وفى الخمس والعشرين سنة الأخيرة فقد كان نضالنا مع الأسف ضد السيطرة الباكستانية. لقد وجدنا الحلم الذى قاسينا لتحقيقه يتبخر من أول يوم بعد الاستقلال، ورأينا أنفسنا أمام حقيقة مؤلمة حاولنا أن نتناساها فى كثير من الأحيان ولكنها فى النهاية فرضت أحكامًا علينا.

قد تذكر أننا نحن -البنغاليين- أصحاب الدعوة إلى ضرورة استقلال المسلمين فى الهند، وفى مؤتمر لاهور سنة ١٩٤٠، فإننا نحن الذين قدمنا إلى الكونجرس اقتراح التقسيم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومنذ البداية كان رأينا وهذا موجود فى اقتراحنا الأصلى أن تكون هناك عدا الهند فى وسط قلب القارة دولة إسلامية لها جناحان لكل منهما استقلاله الذاتى فى الغرب وفى الشرق».

وتوقف البانجو باندو وقال:

-إنكم هناك فى الشرق الأوسط لا تعرفون شيئًا عن كفاحنا... لا تعرفون ظروفنا، لا تعرفون حقائقنا، بينما نحن نعرف عنكم كل شىء.

أنتم لا تعرفون ماذا فعلنا لكى نقنع الحكم فى باكستان بضرورة الاستقلال الذاتى لكل من جناحى الدولة الإسلامية فى باكستان، لقد ناضلنا وكانت لنا ثورات عارمة سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٢ وسنة ١٩٥٤ وسنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٦ وسنة ١٩٦٩ وسنة ١٩٧٠.

كان نضالنا مستمرًا.

إن هناك ١٥٠٠ ميل تفصل بين باكستان فى الغرب وما كان اسمه باكستان فى الشرق. وهو الآن بنجلاديش. ولم نكن نريد الانفصال الكامل وهم أيضًا لم يركزوا على وجود دولة واحدة.

إننا لم نكن سويًا فى دولة واحدة بل إنهم كانوا يعاملوننا على أساس أن نكون مصدرًا للمواد الخام لهم وسوقًا لتصريف منتجات مصانعهم.

لو عرفتم ما واجهناه منهم بعد ٢٥ مارس سنة ١٩٧١ لظلت الدموع فى عيونكم سنوات طويلة».

وبدا الأسى على ملامح الشيخ مجيب:

-لماذا يتردد العالم العربى الإسلامى فى الاعتراف بنا...

العالم كله اعترف بنا.

إلا إخواننا العرب المسلمين.

لماذا لم تعترفوا بنا؟

إن بنجلاديش مازالت أكبر دولة إسلامية من ناحية التعداد، ٧٥ مليون إنسان مسلم...

انفصلنا من الباكستان...

نعم انفصلنا...!

هل كان أمامنا سبيل آخر؟

ثم هل يمكن أن يكون انفصالنا عن الباكستان خطأ فى حق ديننا...؟

من قال ذلك؟

هل كان فى وسعنا أن نبقى دولة واحدة بعد مذبحة سنة ١٩٧١...؟

لقد قتلوا من شعبى ٣ ملايين، ٣ ملايين مسلم.

هل الجريمة هى أن أطالب بحق الحرية لشعبى... أو أن الجريمة هى قتل ٣ ملايين مسلم؟

أريد أن أسأل

إن عدد بناتنا اللاتى اعتدى عليهن ٢٠٠ ألف فتاة.

لدى ألوف من الأطفال غير الشرعيين.

هل ذلك هو الإسلام؟

هل يمكن لمسلمين أن يفعلوا ذلك... هل يمكن لمسلمين أن يقبلوه... كان فى استطاعتنا أن نبقى بعده دولة واحدة بصرف النظر عن تاريخ طويل سبق المذبحة.

إن التنمية فى باكستان الغربية قامت كلها على أساس استغلال موارد باكستان الشرقية.

هل هذا عدل؟

عندما كنت فى كراتشى ورأيت العمران فيها قلت لهم:

- هل كله من ثرواتنا ومع ذلك بورك لكم فيه... ولكن الوقت قد حان لتتركونا نفعل شيئًا لأنفسنا... أليس لنا الحق»؟.

* * *

وبدا الشيخ مجيب منفعلاً بحزن...

وواصل حديثه:

- قيل لى إن الرئيس ذو الفقار على بوتو - رئيس باكستان - حصل على وعد من بعض رؤساء الدول العربية التى زارها بأن يؤخروا اعترافهم ببنجلاديش حتى تعترف بها باكستان أولاً؟

لماذا تفعلون ذلك معنا؟

بالنسبة لنا أنتم مصدر الضياء... أرضكم مهبط القرآن.

بالنسبة لنا أنتم النضال الذى ألهمنا سنوات طويلة.

بالنسبة لنا أنتم الأقرب إلينا...

تتركون العالم كله يعترف بنا... وأنتم تنكرون علينا اعترافكم... والعالم كله حاول أن يتوسط بيننا وبين الباكستان لحل مشاكل معلقة وأنتم الأولى بالوساطة.

هل ستعود عجلة التاريخ إلى الوراء وتختفى بنجلاديش...؟ لن يحدث؟

هل كان أمامنا سبيل غير ما فعلنا؟ ضعوا أنفسكم مكاننا.

لم نكن نريد التعجيل بالانفصال... كنا نريد حقنا فى الحرية وفى التنمية، وأظهر شعبى إرادته فى انتخابات حرة، وكان يجب أن أصبح حاكم باكستان كلها بمقتضى الشرعية.

وتظاهر يحيى خان بأنه يتفاوض معنا على حل لأزمة دستورية لم نعرف لها سببا إلا أنهم لم يستطيعوا قبول إرادة الشعب، ومن جانبى فإننى لم أكن أريد أن أصبح حاكما لباكستان كلها... كان أملى أن أفعل شيئا لشعبى هنا وأن أخدمه وأضع ثقته بى فى مكانها..

بينما نحن نتفاوض وضعوا العراقيل بعد العراقيل وكانوا يحشدون قوات الجيش الباكستانى تحت قيادة الجنرال تيكا خان.

دعوت شعبى إلى المقاطعة.

لم يكن معقولا أن يتولى عمالنا تفريغ الأسلحة والذخائر التى جاءت بها البواخر إلى ميناء «شيتاجونج» لتستعمل ضدنا... ضدهم.

هل كان هذا عصيانا... أم أنه كان نوعا من الدفاع عن النفس؟

ظلوا يراوغون حتى ليلة ٢٥ مارس.

ونزل الجيش إلى الشوارع بمدافعه ودباباته وبدأت المذبحة.

قبضوا علىّ ونقلت إلى زنزانة سجن فى باكستان الغربية، وكنت أقدر ما سوف يحدث لشعبى ولكنى لم أتصور أن الأمور سوف تصل إلى هذا الحد..

هل تتصور ٣ ملايين قتيل فى عشرة شهور... رجال ونساء وأطفال.

هل تتصور هتك عرض ٢٠٠ ألف فتاة بعضهن انتحرن من العار وبعضهن همن على وجوههن فى المدن والقرى غير قادرات على العودة لأسرهن».

قلت للشيخ مجيب:

- ألا تعتقد أن هذه الأرقام مبالغ فيها؟

إن رقم الملايين الثلاثة يبدو بالنسبة لى مستحيلا... حتى لو لم يكن للجيش الباكستانى من هَم طوال هذه الشهور العشرة إلا القتل المنظم!».

وقال الشيخ مجيب:

- قدر كما تشاء...

نصف هذا الرقم لا يحتمل... ربعه لا يحتمل...

ثم دعنى أسألك:

- هل سمعت عن عملية القتل بالاختيار عندما أدرك الجيش الباكستانى أنه سوف يرغم على الاستسلام؟...

القصة معروفة فقد أخذوا كل أساتذة الجامعات... كل كبار الأطباء... كل مشاهير الكتاب... قتلوهم جميعا ووجدنا جثثهم فى حفرة ضخمة.

وكان قولهم:

«لن نترك لكم أحدًا يستطيع أن يسهم فى بناء بنجلاديش التى تتحدثون عنها».

طبيب قلب مشهور قتلوه وأخرجوا قلبه من صدره.

أحد أصدقائى وكان من أحسن كتاب البنغال - شرف الدين حسين - قتلوه أيضا بعد أن دمروا جريدته.

صديق آخر لى هو «فضل ربى» خلعوا عينيه بعد أن قتلوه.

من المستشفى أخذوا ٦٧ طبيبا وقتلوهم...

لماذا؟... لماذا؟».

وبدا انفعال البانجو باندو عارما وقلت له:

- إننى سمعت عن مذبحة الصفوة ورأيت آثارها وشواهدها ومازلت حائرا فى فهم الدوافع النفسية التى يمكن أن تؤدى بأخ إلى أن يفعل ذلك بأخيه»..

وقال الشيخ مجيب:

- ولا أنا أعرف.

ولكنى أسألك: هل ذلك من الإسلام فى شىء؟

لقد ذهبوا إلى قريتى وقبضوا على أبى وعمره أكثر من ثمانين سنة وقتلوا عددا من أفراد أسرتى أمامه... لماذا؟

ليست هناك أسرة فى بنجلاديش كلها لم تفقد واحدا من أفرادها فى هذه المذبحة... هل يعقل ذلك؟

لقد وجدنا ٢٠ مليونا من شعب بنجلاديش هاربين من بيوتهم يبحثون عن الأمان فى أى مكان.

كان لدينا ما بين عشرة إلى اثنى عشر مليون لاجئ عبروا الحدود إلى الهند.

لقد كان ذلك هو السبب الذى دفع الهند إلى التدخل.

ثم إننا دعوناهم... هناك روابط قديمة بين شعوبنا... هناك أفراد من شعب البنغال يعيشون فى الهند وإن كانت لهم ظروفهم الخاصة».

وتذكر الشيخ مجيب شيئا وقال:

ـ أكثر من ذلك

دمروا ٦٠٠ جسر على أنهارنا.

نسفوا كل عربات السكك الحديدية.

أحرقوا كل أوراق النقد.

سحبوا كل أرصدة العملات الأجنبية التى كانت هنا.

حتى الوثائق الرسمية فى دور السلطة والحكم اختفت حتى لا تعرف بنجلاديش لنفسها رأسا أو قدما.

أسألك لماذا؟

كل ذلك وأنتم هناك فى العالم العربى الإسلامى لا تفعلون إلا أن تجاملوا باكستان.

نحن لا نطالبكم بأن تقفوا ضدها... ولكن نطالبكم بأن تدرسوا الحقيقة وتجيئوا كإخوة لنا جميعا وتحكموا بيننا.

أنت لا تعرف مدى الجرح الذى نشعر به أحيانا من موقفكم معنا ... حتى فى بعض المسائل العادية».

قلت للشيخ مجيب:

ـ إننى سمعت من وزير خارجيتك عن مثال لذلك حين طلبتم من المملكة العربية

السعودية تصريحا خاصا لحجاجكم... لأنهم لا يعترفون بجوازات سفر بنجلاديش...

ردوا على طلبكم بالاعتذار وكان ردهم عن طريق الهند».

قال الشيخ مجيب:

ـ الأمثلة كثيرة.

ولابد أن أقول لكم إننى أحيانا لا أفهم، ولكنى دائما لا أيأس».

* * *

قلت للشيخ مجيب:

ـ إننى أريد أن أكون منصفا.

قد تذكر أنهم فى باكستان الغربية ثاروا هم أيضا على نفس الحكم الذى ارتكب هذه المذبحة».

وقال الشيخ مجيب بسرعة:

ـ لا إن الثورة عليه جاءت من حقيقة أنه فشل وانهزم فى الحرب».

قلت:

ـ إن التفرقة بين السببين قد تكون صعبة، وفى ظنى أن شعب الباكستان برغم أن حقيقة ما حدث لم تصل إليه كاملة واجه أزمة ضمير.

إن الرئيس بوتو قابلك بعد توليه السلطة وأصدر قرار الإفراج عنك».

وقال الشيخ مجيب:

ـ ذلك حدث، ولكن لا بد أن نسلم أنه لم يكن لديه سبيل آخر كان يعرف أن هناك ٩٢ ألف أسير باكستانى فى بنجلاديش وأن أى مساس بى سوف يعرضهم للخطر.

لقد قال لى بوتو عندما التقيت به إن لديه متاعب وإنه يريد وقتا للتغلب عليها، وإنه

يعرف من صميم قلبه أنه فقد بنجلاديش، وطلب منى أن أعطيه فرصة من الوقت ليرتب نفسه.

كان يريد أن يتفاوض معى، وقلت له: لا أتفاوض معك وأنا فى سجنك.

وصممت على أنه ليس فى استطاعتى أن أقول كلمة واحدة إلا بعد أن ألتقى بشعبى.

ولقد مضى وقت طويل، فلماذا لم يعترف ببنجلاديش؟».

قلت:

- لديه مشكلتان فيما أتصور مشكلة أسرى الحرب.. لديه عندك وعند الهند ٩٢ ألف أسير وكلهم أو معظمهم من السند والبنجاب وعائلاتهم تضغط عليه.

ثم إن هناك مشكلة محاكمة مجرمى الحرب كما تسمونهم وبينهم الجنرال نيازى.

ثم إن هناك أيضا قضايا اقتصادية لابد من تسويتها ومن أهمها قضية الديون الخارجية».

وقال الشيخ مجيب:

- إذا كان لم يعترف بنا فكيف أوافق على إطلاق سراح أسرى الحرب؟... هل نوافق على ذلك لكى تسهل عليه عملية إعادة بناء جيشه والعودة لقتالنا؟

ثم أليس عدلا أن نحاكم بعض من ارتكبوا جرائم ليس هناك ما يبررها؟

والقضية الاقتصادية كقضية الديون الخارجية، لماذا تقف عقبة ضد اعترافهم بنا؟

إن الهند وباكستان بعد أكثر من ربع قرن من انفصالهما مازالت بينهما قضايا معلقة من أيام وحدة كل الهند، ولكن هذه القضايا لم تمنع اعتراف كل منهما بالآخر وسيادته».

قلت للشيخ مجيب:

- إن موضوع المحاكمات قد يثير شجونا لا داعى لها... وقد يتعرض الرئيس بوتو لضغوط من الجيش الباكستانى بسببها... ثم إن هناك نقطة ما زال كثيرون يذكرونها من أيام محاكمة مجرمى الحرب من النازيين فى نورمبرج وهي أن الذين ارتكبوا فظاعات القتل بالجملة كانوا ينفذون أوامر صادرة إليهم من سلطات شرعية لا يملكون غير طاعتها».

وقال الشيخ مجيب:

- هل كان هتك الأعراض بالجملة أوامر من سلطة شرعية لا بد أن تطاع؟... هناك مذابح أستطيع أن أقبل مرغما هذا المنطق فيها... ولكن هناك تصرفات أخرى يستحيل علىّ فيها أن أقبل هذا المنطق».

قلت:

- النتيجة أن العلاقات بين باكستان وبنجلاديش حتى إذا توافرت النوايا الطيبة سوف تبقى دائما أسيرة للماضى.

ألا تستطيع أن تقفز إلى المستقبل؟».

قال الشيخ مجيب:

- هناك بالفعل أزمة ثقة، لكن هذه الأزمة لا بد لها من جسر... كنا نتصور العالم العربى والإسلامى جسرًا بيننا وبين باكستان نتغلب بواسطته على أزمة الثقة.

لكنكم تركتمونا وحدنا».

قلت:

- فى هذه النقطة لك الحق... إننى أشعر أن بنجلاديش تواجه مشاكل لا تحتمل.

هناك مشاكل اقتصادية... وهناك مشكلة الهيكل الاقتصادى الأساسى للبلاد وهو فى حاجة إلى إعادة بناء... وهناك مشاكل اجتماعية.

وكان العالم كله مهتما بإغاثتكم فى وقت من الأوقات لأن قضيتكم مست وجدانه

ولكنى أخشى أن اهتمام العالم الآن سيتحول إلى عملية إعادة تعمير وبناء فيتنام بعد أن انتهت الحرب فيها».

قال الشيخ مجيب :

ـ ذلك صحيح... ولكننا نملك موارد طائلة طبيعية وبشرية.

لدينا مشاكل طاحنة، لدينا أعلى نسبة كثافة للسكان فى العالم، ألف نسمة على الكيلومتر المربع الواحد، ولدينا فى نفس الوقت متوسط دخل للفرد مبالغ فى تواضعه [عشرون دولارا فى السنة]، ولكننا نستطيع بالعمل وبالتنظيم وبالوطنية البنغالية أن نتغلب عليها..

لكن ذلك ليس هو ما نريدكم فيه.

ما نريده منكم ليس المعونة المادية... نحن نريدكم بالقرب منا... صديقا فى جو موحش».

قلت :

ـ هل أسأل عن علاقتكم بالهند... إننى سمعت كثيرا عن نشاط تجار كلكتا فى تهريب الجوت من بنجلاديش أليس ذلك استغلالا... ألا تنشأ من هذا الاستغلال مضاعفات... ثم أسألك أيضا هل بقى جنود هنود فى بنجلاديش؟

هذه نقطة تثار دائما».

وقال الشيخ مجيب :

ـ علاقاتنا بالهند ممتازة ونحن لا نستطيع أن ننسى لهم ما قدموه لنا، ولكن العلاقات بيننا هى علاقات بين دولتين مستقلتين...

وإن تحدث مشاكل مثل ما تتحدث فيه عن تهريب الجوت فذلك محتمل ولكنه طبيعى ويجب أن يواجه فى حدوده.

وأما عن الجنود الهنود، فأمامك كل بنجلاديش، اذهب حيث تشاء، وإذا وجدت جنديا هنديا واحدا، فلك أن تعلن ذلك على العالم».

وشرد الشيخ مجيب ببصره إلى الحديقة عبر النافذة وراءنا وقال :

ـ كان لنا خطأ أساسى.

وهو أننا لم نخدم فى الجيش.

إن جنودنا البنغاليين كانوا دائما مصدر متاعب لضباطهم الإنجليز، لأن شعورهم الوطنى كان يجعلهم دائما فى صف الثورة.

وبدأوا يستغنون عن تجنيدهم فى الجيش، ويتجهون إلى البنجاب.

إن جنود البنجاب كانوا فى الجيش البريطانى، وحاربوا ضدكم : فى ثورة ١٩١٩ فى مصر... حاربوا فى السودان أيضا... فى الصومال.

حسنا... إننا لم نشترك فى هذا كله.

لكن النتيجة أنه بعد الاستقلال كان الجيش كله من البنجاب، ولم يكن لنا جيش من البنغال».

قلت :

ـ لا تعط كل هذه القيمة للقوة العسكرية... إن القوة العسكرية لها دورها، ولكن التجربة الإنسانية أرحب وأغنى».

قال الشيخ مجيب :

ـ أعرف... ولكنى أمام طرف لم يقرأ التاريخ».

قلت له :

ـ ماذا قرأت أنت فى التاريخ وماذا تعلمت منه؟».

قال :

ـ لقد قرأت شيئا من التاريخ ولكنى لا أتعلم منه».

قلت :

- إننى مندهش».

قال:

- إننى أتعلم من قلبى... قلبى هنا فى صدرى» [ودق على صدره].

واستطرد:

- قلبى هنا فى صدرى، وهو هنا يحب شعبى، وهذا مصدر ما أعلمه وما أتعلمه».

قلت:

- والصراعات المحيطة بك... الصراع الصينى السوفيتى... الصراع الصينى الهندى... المنطقة من حولك حافلة بالصراعات الكبرى».

قال:

- سندى الوحيد أمامها هو الوطنية البنغالية.

لا أريد أن أكون فى جيب أحد... أنا صديق للهند، وصديق للاتحاد السوفيتى، والولايات المتحدة تحاول أن تمد يد الصداقة لنا... وأنا عضو فى الكومنولث لكنى لا أريد أن ألعب لعبة القوى الكبرى».

قالت:

- ماهى أبرز مشاكلك... إننى سألت نهرو مرة عن مشاكله وقال لى: بعدد سكان الهند... لدى الآن ٣٦٠ مليون مشكلة [كان ذلك تعداد شعب الهند وقتها].

قال الشيخ مجيب:

- نهرو كان فيلسوفا... أنا رجل بسيط... عادى... مشكلتى هى إحساسى بعذاب شعبى».

قلت:

- هل أستطيع أن أحدثك عن شىء شعرت به...

لقد شعرت بأن هناك نزعات انتقام حبيسة فى قلوب كثيرين... إننى سمعت عن أعمال عنف تجرى خارج داكا... إن كثيرين نصحونى بألاّ أتجول بالليل فى داكا، لأن ذلك خطر.

إننى أخشى نتيجة لإحساس شعبك بالمأساة، أن تغوص فى أعماقه نزعات الانتقام».

قال الشيخ مجيب:

- أفهم ما تقول، لكن هذه مرحلة سوف تمر... ولابد أن تعرف أنها طبيعية».

قلت:

- أعرف...

وأتذكر شاعر البنغال العظيم «طاغور» يقول فى مشهد من مسرحيته الشهيرة «الملك والملكة»:

«وقع الموسيقى فى صليل السيوف».

فى المعارك الكبرى يتلاحم الخصوم الأبطال كما يتلاحم العشاق.

هذا هو الخلاص.

إن الانتقام أقوى نشوة من خمر الحب.

الانتقام هو الانطلاق والحرية.

إنه التحرر من أسر الرقة والحنان.

نار الحب مثل نار الحرب تضطرم، وتحيل ما حولها إلى حريق ورماد».

قال البانجو باندو:

- لو فتحنا جميعا قلوبنا لخرج كل الدخان والبخار المكتوم».

مَع إمبراطورة الهند

طريق الهند لم يفقد سره أو سحره بالنسبة لى، برغم أننى ذهبت عليه حتى الآن إحدى عشرة مرة.

وصحيح أن الهند ترزح على زائرها بشعور خاص لا يريح... وكان «الماريشال أرشيبالد ويفل» وهو من أبرز القادة العسكريين فى الحرب العالمية الثانية واختلف «تشرشل» معه فعينه نائبا للملك فى الهند - يقول فى وصف هذا الشعور:

- هناك شىء خاص لا تستطيع أن تفلت منه فى الهند، حينما تصل إليها تشعر أن يدًا خفية قد أمسكت بقبضتها على مؤخرة رقبتك... ثم يظل معك هذا الإحساس الغريب، لا يفارقك حتى تفارقها».

ذلك صحيح... شعرت وأشعر به دائمًا.

ولكن الصحيح أيضا أن هناك أشياء كثيرة تشدنى إلى الهند بجاذبية غلابة لا يقاوم تأثيرها:

تاريخها وحضاراتها، أديانها وفلسفاتها، مآسيها وصراعاتها، شعوبها وطوائفها، ملوكها ومهراجاتها وشعراؤها وعشاقها...

وذلك المزيج الغريب من الغنى الفادح والفقر القاتل، والسلام والاستسلام، والهدوء الظاهرى والعنف الكامن...

ثم تلك المشاهد واللوحات المثيرة للمعابد والآلهة والأساطير والصلوات الخائفة من إله الانتقام: شيفا وهو يبسط ظله القاتم على روح الهند كلها!

... لكن الهند الحديثة - برغم كل مشاكلها وأثقالها - فيها ما يستحق الإعجاب أيضا:

* هناك ذلك الأمل المستمر فى إمكان عمل «شىء ما» فى الهند تتغير به حياة خمسمائة مليون من البشر على أرضها ويصلون به إلى الخلاص أو بالقرب منه برغم أعباء قرون من التخلف والفقر والاستغلال والضياع فى بخور الغيبيات.

* هناك أن الجماعات التى قادت حركة الاستقلال الوطنى ما زالت هى التى تمسك بزمام التطور متمثلة فى زعامة جواهر لال نهرو، ثم أنديرا غاندى ابنة جواهر لال نهرو، وبرغم أزمات عمل وأزمات ضمير فإن هذه الجماعات ما زالت تمسك بأقدار الهند تقودها مع أن أسباب التشاؤم تكاد تغلب فى معظم الأحيان أى سبب للتفاؤل.

* هناك أن الجماعات الحاكمة أدركت - لأنها كانت متعلمة - أهمية وجود جهاز إدارى متماسك فى الهند، ومن هنا فإنها لم تضرب قمم هذا الجهاز ولم تكسر معنوياتها ولم تخلع قلبها من الخوف، وهكذا فإن قمم هذا الجهاز الإدارى أصبحت إلى جانب القيادة السياسية طرفا فى حوار مفيد، ويدًا قادرة على أن تساعد فى العمل بقدر ما يمكن أن تتاح للعمل فرصة فى ظروف الهند.

* هناك أيضا أن الجماعات الحاكمة، وهذا إسهام خاص لجواهر لال نهرو، فهمت لأنها مستنيرة بعض مطالب العصر، سواء استطاعت الهند أن تلحق بها فى الموعد المناسب أو لم تستطع - ومن هنا كان الاهتمام الكبير - إلى جانب التخطيط والتصنيع - ببعض فروع العلم وبالذات فى مجالات الذرة والفضاء... ولست أشك فى أن الهند قادرة علي صنع قنبلتها الذرية فى ظرف سنة واحدة من صدور القرار السياسى بذلك وإن كانت التكاليف تفرض على القيادة أن تفكر مرتين قبل القرار.

* هناك أخيرا تجربة الديمقراطية فى الهند، ولقد يقال الكثير عن مظاهر الفساد والاستغلال خصوصا بواسطة مليونيرات الهند «طاطا» و«برلا» وغيرهما، أو الضغط والقمع خصوصا من جانب حكومات الولايات فى الهند - ولكن الحقيقة التى تبقى برغم كل شىء هى أن الديمقراطية فى الهند ما زالت لها فرصة ثم إن عجلتها ما زالت تدور، رغم أن أنينها يكاد يسمع عاليا فى بعض الأوقات والظروف.

* * *

ومنذ عدة سنوات والسؤال الكبير المعلق فوق آسيا ووراءها هو:

- هل تسقط الهند؟».

وكان بعض خبراء السياسة والاجتماع فى العالم يرون أن طرح السؤال على هذا النحو فيه كثير من خداع النفس بالآمال الكاذبة، وكان رأيهم أن السؤال الذى يجب أن يطرح هو:

- متى تسقط الهند؟»

أى أن سقوط الهند فى رأيهم لم يكن يحتمل السؤال «بهل»، وإنما سقوطها حتمى، والشىء الوحيد المعلق فيه هو: «متى».

ومثل هذا السؤال «بهل» أو «بمتى» ليس مسألة بسيطة وإنما الإجابة عليه سوف تكون تغييرا واسع المدى فى الموازين الدولية، ذلك أن سقوط الهند على أى ناحية سوف يغير صورة آسيا كلها، وأى تغيير كبير فى صورة آسيا سوف يؤثر بدوره على الميزان العالمى كله.

ربما من هنا أن الولايات المتحدة الأمريكية مثلا اختارت سفراء لها فى دلهى من أساتذة العلوم السياسية والاقتصاد والاجتماع: «تشستر بولز» فى عصر «كيندى»، ثم «جالبريث» فى عصر «جونسون» وأخيرًا «موينيهان» فى عصر «نيكسون».

* * *

وذهبت للمرة الحادية عشرة على طريق الهند.

لم تكن الهند - خلافا لكل التوقعات - قد سقطت... أكثر من ذلك فإنها كانت قد حققت نجاحا استراتيجيا كبيرا.

كان لها عدوان:

- باكستان على الجناحين فى الغرب والشرق.

- والصين على رأسها تطل من فوق قمم جبال الهملايا.

واستطاعت الهند أن تصفى حساباتها مع باكستان، وساعدت على استقلال شرق باكستان عن غربها تحت اسم بنجلاديش، ثم تمكنت فى نفس الوقت من توجيه ضربة عسكرية إلى غرب الباكستان.

[وقد أتحفظ بسرعة إلى القول بأننى لا أنحاز مع الهند ضد باكستان فهذه الأخيرة لأسباب عديدة عزيزة علىّ، ولكن الواقع الطبيعى والسياسى شىءومشاعر الإعزاز مهما كانت أسبابها شىء آخر].

هكذا تخلصت الهند ـ التى كان سقوطها متوقعا ـ من كابوس الخطر الزاحف عليها من جبهتين... ولم تبق أمامها إلا جبهة واحدة الصين.

ولعبة التوازن الدولى تدفع الهند دفعا إلى وضع يعمق ويرسخ تناقضاتها مع الصين... ذلك شىء تريده الولايات المتحدة ويريده الاتحاد السوفيتى ـ ولكنى أشعر أن الهند فى صميمها تتمنى لو وجدت فرصة لتصفية نزاعها مع الصين، لأن الحكمة المترسبة فى أعماقها تهمس فى وجدانها صباح مساء بأنه لا سبيل أمها إلا سبيل الوفاق مع الصين، برغم غواية مساعدات تستطيع الحصول عليها من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى إذا استمر صراعها مع الصين..

وربما كان ذلك هو الخيار الخطير الذى يواجه صناع القرار السياسى فى الهند الآن!

* * *

ولقد كان أول الأسئلة التى أردت أن أحصل على إجابة لها هذه المرة فى الهند هو:

ـ «ماذا فعل الانتصار الاستراتيجى ـ ولا أسميه العسكرى ـ بروح الهند وإلى أى مدى أثر فيها وعليها؟».

وهكذا رجوتهم فى تحديد مواعيد مقابلات تمنيت لو أمكن ترتيبها قبل أن أصل إلى دلهى.

كانت لدى فيها ثمان وأربعين ساعة لا تزيد وقلت:

ـ إننى اريد أن أقابل رئيسة الوزراء أنديرا غاندى، وقائد جيشها وقت الحرب مع باكستان الفيلد ماريشال مانيكشو، ثم وزيرى الخارجية والتخطيط».

وكان ردهم من دلهى ـ رقيقًا وكريمًا ـ أن ما طلبت سوف يتم ترتيبه لكن لديهم بدورهم طلبات فى خلال ساعاتى الثمانى والأربعين فى دلهى.

كانوا يريدوننى لإلقاء محاضرة وإدارة حوار فى معهد الدراسات السياسية والاستراتيجية بجامعة جواهر لال نهرو فى موضوع يشغلهم وهو:

ـ أين ذهبت العلاقات التقليدية بين الهند ومصر، وأين الصحبة التى كانت تجمع البلدين على سياسة عدم الانحياز، وما هو مستقبل العلاقات ـ على هذا النحو ـ بينهم فى شبه القارة الهندية ـ قلب آسيا ـ وبيننا نحن هنا فى الشرق الأوسط ـ غرب آسيا على حد تعبيرهم»؟.

ثم كانوا يريدوننى لحوار مفتوح فى التليفزيون يذاع على محطات عموم الهند موضوعه هو:

ـ لماذا تقف الهند دائمًا إلى جانب الأمة العربية فى كل صراعاتها ولا تقف الأمة العربية مع الهند فى أى من صراعاتها»؟.

ولم يكن أمامى ـ راضيًا ـ غير أن أطيع!

* * *

ووصلت بى طائرة الليل قادمة من داكا إلى دلهى ـ ووجدت فى انتظارى على مطار «بالام» الصديق س. ك. سنج مستشار رئيسة الوزراء، وكان يحمل فى يده نسخة من برنامج ساعاتى فى دلهى.

وقال لى سنج:

ـ إنها ـ رئيسة الوزراء ـ سوف تكون أول من تقابله هنا... كان هذا رأيها، وبعد أن تراها فإنك سوف تستطيع استكمال الصورة التى تريدها بطريقة أفضل خصوصًا أن وقتك هذه المرة فى الهند محدود».

وأضاف سنج برقة دبلوماسى يمسك بما يريد على أطراف أصابعه

ـ هناك اقتراح آخر.

إننا غدًا سوف نحتفل بمرور ربع قرن على وفاة غاندى.

وسيبدأ الاحتفال من الصباح الباكر.

ومع أنك قادم فى الليل المتأخر فلقد ترى أن تكون معنا فى هذه المناسبة».

وأضاف سنج:

ـ إنها سوف تكون هناك ... وسوف تشترك فى الصلاة».

وقلت لسنج:

ـ إننى أذهب فى أى وقت وإلى أى مكان من أجل غاندى... ثم إننى أريد أن أرى إمبراطورة الهند وهى تصلى».

ونظر إلىّ سنج بفضول، وقلت:

ـ بعد انتصاركم فى السنة الماضية كانت صحافة الغرب تطلق على أنديرا غاندى وصف «إمبراطورة الهند» باعتبارها الشخصية الطاغية على شبه القارة الهندية».

ثم أضفت:

ـ هذا دور أريد أن أراها فيه... لقد رأيتها من قبل كثيرًا... رأيتها كابنة نهرو وكاتمة سره، ورأيتها وزيرة، ورأيتها خارج الحكم سيدة بيت تصب لضيوفها الشاى فى مكتبة بيتها، ورأيتها فى رئاسة الوزارة عندما تولتها بعد فوزها على موراجى ديساى...

هذه المرة أريد أن أراها فى دور إمبراطورة الهند... أريد أن أرى ماذا فعل الانتصار بها».

وقال سنج:

ـ إذن سوف أمر عليك لآخذك إلى احتفال ذكرى غاندى فى الساعة السادسة صباحًا... معنى ذلك أنك سوف تستيقظ فى الفجر».

* * *

كان البرد قارسًا على شاطىء نهر الجانج حيث ساحة غاندى.

نفس المكان الذى تلقى فيه القديس رصاصات قاتل عصر ذات يوم منذ خمس وعشرين سنة.

كانت الأشجار العالية عاجزة أمام الرياح الباردة.

وكانت السماء ملأى بسحب تمتص كل شعاع دفء تبعثه الشمس وتلفه فلا يظهر منه إلا خيوط ولمسات فى لون الورد.

وكان هناك آلاف هرعوا للصلاة من قبل الفجر.

وكان هناك عشرات يطوفون حول نصب الحجر المربع الذى يحمى رفات قديس الهند.

وكانت أوانى البخور الهندى تطلق دخانها للهواء معبقًا بروائح الهند ذاتها مختلطًا بأريج الزهر.

وكانت فرق المنشدين بالطبل والناى وآلات الوتر الوحيد على جانبى النصب الحجرى.

وطفت مع سنج حول النصب الحجرى.

ثم قادنى سنج إلى الصف الأول حيث وجدت نفسى جالسًا بجوار «جوبال سواراب باتاك» نائب رئيس جمهورية الهند وكان هناك على جانبه الآخر مكان خال... لإمبراطورة الهند عندما تجىء للصلاة على قديس الهند.

كنا جالسين على الأرض التى فرشها فوق الرخام سجاد نحيل، وكان صقيع الرخام ينفذ إلى أصابع أقدامنا التى خلعنا عنها الأحذية عند مدخل ساحة غاندى،

وطلب «باتاك» ـ نائب رئيس جمهورية الهند ـ بطانية يلف بها قدميه ولم أحسد أحدًا فى حياتى على غطاء، ولكنى ساعتها كنت أحسد «باتاك» على بطانيته.

وكانت مراسم الصلوات قد بدأت وبينها قراءة نص الجيتا ـ الكتاب المقدس للهندوس ـ من أوله إلى آخره وهو يستغرق بالترتيل أكثر من ساعتين.

وظهرت على المشهد حركة مفاجئة بدا منها أن إمبراطورة الهند فى الطريق.

ووصلت أنديرا غاندى وحدها بلا حرس ولا حاشية، ودخلت فى صمت تتربع فى مكانها وتخرج من حقيبة يدها نسخة من الجيتا ونظارة، ثم تروح ترتل بشفتيها وبغير صوت مسموع، وكان الترتيل لحظتها قد وصل إلى مقطع يقول:

«فلترحبوا بكل الكبرياء والسرور والألم.

بما قد يجىء إليكم من مغانم أو من خسائر.

ولتقابلوا ما تجىء به الأقدار من نصر أو هزيمة.

هكذا تكونون قد برئتم من الخطايا».

ومضت التراتيل بعدها ساعة ونصف الساعة.

الرياح والصقيع وأريج البخور وعطر الزهر والطبل والناى والوتر الوحيد.

ثم انتهى الاحتفال بذكرى القديس أخيرًا ونهضت الإمبراطورة ونهضنا جميعًا وقالت أنديرا غاندى وهى تبتسم:

ـ كان ذلك درسًا إجباريًا لك عن «الجيتا»!.

واستطردت تقول:

ـ سوف أعود الآن إلى البيت لأغير ملابسى ثم نلتقى فى مكتبى بعد ساعة.

* * *

ودخلت مكتبها فى مقر رئاسة الوزراء على حافة قصر «راشترا باتى بهافان»

وكانت قد خلعت السارى الرمادى الذى كانت ترتديه فى الصباح تحت معطف أسود، وارتدت ساريًا أبيض اللون بخيوط ذهبية دقيقة وفوقه «بلوفر» من الصوف الأحمر.

وجلست على مكتبها وجلست أمامها على الناحية الأخرى من المكتب.

وراحت تبحث فى درج المكتب عن علبة لحبوب مطهرة للزور، ودقت الجرس تطلب كوب ماء، ثم دست أنفها فى منديل وقالت بصوتها الرقيق:

ـ كان البرد قارسًا وقاسيًا هذا الصباح»!

وواصلت حديثها:

ـ أنت قادم هذه المرة لثمان وأربعين ساعة... هل تستطيع أن تسمى ذلك زيارة للهند»؟.

قلت:

ـ للإنصاف لا أستطيع... لا أستطيع أن أسميها زيارة ولكنى أستطيع أن أسميها عملية مراجعة... أظننى بشكل ما أعرف شيئًا عن الهند وهذه الزيارات السريعة تفيد فى شىء أساسى... إنها تضيف لمسات جديدة أخرج منها وكأننى ـ بتعبير صحفى ـ أحمل معى آخر طبعة لكتاب الهند!

وكانت تنظر ساكتة وقلت:

ـ منذ آخر مرة كنت فيها هنا حدث تطور كبير... الحرب فى شبه القارة الهندية... قيام بنجلاديش... انتصار على باكستان.

ولقد كنت أعرف ماذا فعلت المشاكل بالهند؟

وهذه المرة أريد أن أعرف ماذا فعل النصر بالهند؟

لست أخفى أننى أخشى على الشعوب دائمًا من أوهام القوة العسكرية... إننى أومن بالحرب العادلة، والحرب العادلة لا تكون إلا دفاعًا عن النفس، ولم يكن واضحًا تمامًا لى فى حربكم مع الباكستان أنها كانت دفاعًا عن النفس.

ولعلى واحد من الذين يعتقدون أن بناء التقدم يحتاج إلى السلام كما أن الحرب لا تبنى الحضارة ولعلها تؤدى إلى انهيارها.

هذه آراء لا أظنها غريبة عليك... كان أكبر الداعين إليها أقرب الناس إليك جواهر لال نهرو».

كان السؤال مشحونًا وكنت أعرف ذلك.

ولقد قصدته عن متابعة لشخصية أنديرا غاندى.

فيها - مثل ما كان فى شخصية نهرو - نوع من التباعد الفكرى يضاف إليه فى حالتها هى نوع من الخجل الطبيعى بتأثير حياتها فترة طويلة فى ظل عملاق عظيم تعلمت أن تجلس ساكتة تسمعه يتحدث إليها أو يتحدث إلى غيرها دون أن تتدخل. وليس هناك سبيل لإخراجها من هذا التباعد الفكرى إلى التفاعل الفكرى... إلا بجهد محسوب!

❋ ❋ ❋

وقالت أنديرا غاندى وقد بدا صوتها يعلو قليلاً وبحماسة:

- هناك أشياء كثيرة أريد أن أضعها فى مكانها.

نحن أولاً لم نهاجم باكستان... نحن لم ندخل فى حرب غير عادلة.

لقد وجدنا حدودنا فى الشرق تقع أمام زحف أكثر من عشرة ملايين لاجئ جاءوا إلينا من باكستان الشرقية بسبب المذابح التى وقعت هناك.

مجرد إطعامهم كان يحتاج إلى موارد تقصم ظهر الهند.

وفى الغرب كانوا هم الذين بدأوا بالهجوم على حدودنا تحت ظن أن ذلك الهجوم يخفف على جيشهم المحاصر فى الشرق فى بنجلاديش.

أما عن موقفنا نحن فدعنى أسألك:

- أى قوة فى التاريخ حققت انتصارًا كذلك الذى حققناه ثم انسحبت من الأرض التى احتلتها بعد شهور قليلة وبغير ضغط أو طلب من أحد؟!

قل لى أى قوة فى التاريخ فعلت مثل ما فعلنا»؟.

واستطردت أنديرا غاندى:

لم يكن الأمر بالنسبة لنا عملية عسكرية انتصرنا فيها ونخشى أو يخشى أصدقاؤنا أن تؤثر فى روح الهند وتفسدها.

إن هناك شيئًا جديدًا فى روح الهند ولكن الذى جاء بهذا الجديد ليس هو الانتصار العسكرى وإنما هو شىء آخر».

وراحت أنديرا غاندى تسأل نفسها:

- «شىء آخر ... ماذا أسميه؟ كيف أصفه بالضبط»؟.

واستطردت:

- قد أستطيع أن أسميه أو أصفه بأنه شعور الثقة بالنفس. ولم تكن العمليات العسكرية هى التى جاءت به وإنما هذا الشعور هو الذى جعل قبولنا للتحدى العسكرى ممكنًا.

أريد أن أقول إن الانتصار العسكرى لم يصنع ثقتنا بأنفسنا.

ولكن ثقتنا بأنفسنا هى التى صنعت انتصارنا العسكرى، ورأيى أن أى انتصار عسكرى محدود فى قيمته.

المهم هو أن تكون لدى الشعب ثقة بنفسه.

من أين جاءت ثقتنا بأنفسنا؟

أقول لك على الفور: جاءت من المشاركة... من إحساس شعب الهند أنه يشارك فى صنع مصيره.

عندما يشارك الشعب يثق... وعندما يثق ينتصر.

إن التحول فيما أظن بدأ بانتخابات رئاسة الجمهورية...

كان المرشح الذى أيدته هو جيرى رئيس الجمهورية الحالى، وكان الشعب فى الهند يحس أن نجاح «جيرى» يعنى انتصارًا لسياسة معينة تفتح الطريق لتحولات اجتماعية واسعة وعميقة فى الهند.

كان انتخاب جيرى مجرد اختبار للقوى فى الهند.

وأحست جماهير شعب الهند بذلك.

لو أنك كنت موجودًا وقتها معنا لدهشت إلى أى درجة أحس الناس أن انتخابات رئاسة الجمهورية تعنى - بالنسبة لهم مباشرة - شيئًا مهمًا.

ليست مجرد تغيير على قمة السلطة.

ولكن احتمالات تغيير فى حياة الناس.

كان الصراع عنيفًا... وكان الاختيار مفتوحًا.

والاختيار وسط الصراع المفتوح والديمقراطى هو الذى يولد إحساس الناس بالمشاركة.

مازلت أتذكر مشهدًا وصفه لى صديق من أصدقائى كان فى دلهى القديمة وقت إعلان نتائج انتخابات الرئاسة تباعا.

جاء وقت كانت فيه الأرقام تشير إلى تقدم جيرى.

ثم جاء وقت بدا فيه أن منافسه يتساوى معه.

ومرت دقائق وكل شىء معلق فى الميزان أمام الناس الذين كانوا يتابعون إعلان النتائج.

وبدا أن منافس جيرى يتقدم عليه.

وإذا بمئات الناس يركعون على ركبهم للصلاة.

وبدأت أرقام «جيرى» تصعد ثم بدا فوزه مؤكدًا.

وانفجرت مشاعر الناس.

انتخابات الرئاسة كانت هى أول تجربة قريبة لإحساس الناس بالمشاركة المباشرة.

بعدها جاءت الانتخابات البرلمانية وتقدمت عن حزب المؤتمر بقائمة واكتسحت هذه القائمة كل ما كان أمامها.

ليس لشخصى وليس من أجلى... ولكن الناس كانوا يعرفون أن نجاح القائمة التى تقدمت بها يعنى برنامجًا معينًا يؤثر تأثيرًا مباشرًا فى حياتهم... تأثيرًا يريدونه».

* * *

واستطردت أنديرا غاندى:

- هذه هى المسألة... ثقة الشعب بنفسه... ثقته التى تأتى من إحساسه بأنه يشارك... إحساسه بأن هناك برنامجًا معينًا يعبر عنه... إحساسه بأنه يستطيع أن يجىء بالسلطة التى تتولى تنفيذ هذا البرنامج.

هذه هى المسألة.

وعندما تأزمت الأمور مع باكستان فى الشرق والغرب فلقد كان أكثر ما حرصت عليه هو أن تبقى لشعب الهند هذه الثقة فى نفسه».

وسكتت أنديرا غاندى لحظة ثم استطردت:

- كان ذلك هو السبب فى أننى عقدت معاهدة مع الاتحاد السوفيتى.

إن حرصى على استقلال الهند شديد.

وتمسكى بسياسة عدم الانحياز فى دمى.

ولكنى أحسست أن شعب الهند يبحث حوله عن صديق فى ظروف صعبة.

باكستان يحكمها نظام عسكرى مسلح.

الصين تؤيد باكستان لأسباب تخصها.

الولايات المتحدة تؤيد باكستان بحكم أحلافها معها.

شعب الهند بدأ يتصور أنه وحيد فى العالم وخفت أن تتأثر ثقته بنفسه.

وهكذا عقدت معاهدة مع الاتحاد السوفيتى... كان هدفى منها رمزيًا بالدرجة الأولى وهو أن يعرف شعب الهند «أن لنا نحن الآخرين أصدقاء».

إن المعاهدة لم تضف إلينا شيئًا لم يكن موجودًا عندنا قبلها.

والاتحاد السوفيتى لم يكن سيحارب معنا مهما ساءت الأحوال.

المسألة بالنسبة لى أن أقول لشعب الهند: «إن لنا صديقًا».

لم أكن أريد أن تتأثر ثقة شعب الهند بنفسه بعد إحساسه بالمشاركة فى صنع القرار السياسى وما يعنيه هذا القرار من تحولات اجتماعية».

* * *

واستطردت أنديرا غاندى:

- هل سعينا إلى حرب مع باكستان؟

لماذا نسعى إلى حرب مع باكستان؟

لقد كنا أمة واحدة، ثم جاء التقسيم، وقد قبلناه عن طيب خاطر وحاولنا أن نتعاون، وساروا فى طريق وسرنا فى طريق، وجاء الحكم العسكرى فى باكستان يبحث لنفسه عن مغامرات يشغل بها الناس عن مشاكلهم الحقيقية.

وتحالفوا مع أمريكا.

وتحالفوا مع الصين.

هم أحرار فيما يقررون لأنفسهم، ولكنهم راحوا يتحرشون بنا لغير سبب، وحين عجزوا عن الاحتفاظ بباكستان الشرقية واختار شعبها أن يستقل ببنجلاديش فإنهم لم يحاسبوا أنفسهم على أخطائهم، وإنما أرادوا أن ندفع نحن نيابة عنهم ثمن الفشل... هل هذا ممكن؟

هكذا حدث ما حدث... فأى ذنب لنا فيه... وما الذى نستفيده من كسر باكستان».

قلت:

- ربما قال بعض الناس إن الهند صفت حسابها مع جبهة... حتى لا تجد نفسها فى لحظة خطر أمام حرب على جبهتين.

الآن ليس أمامكم غير الصين»؟

قالت أنديرا غاندى بسرعة:

- ... وهل صفينا جبهة باكستان... إننى أختلف معك.

فى اجتماع سيملا مع بوتو - ذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية باكستان - كان يحدثنى عن ضرورة الإفراج عن أسرى الحرب الباكستانيين وفجأة إذا به يقول لى:

- هل تظنين أن احتفاظك بهؤلاء الثمانين ألفًا من جنودنا يمنعنا من إقامة جيش... نحن نجند غيرهم... إن السند والبنجاب معين لا ينفد للقوى البشرية المحاربة والسلاح موجود والحصول عليه سهل؟

هكذا قال لى بالحرف وهم يتسلحون من الرأس إلى أخمص القدم».

قلت لأنديرا غاندى:

- لقد أثرت الآن موضوعًا مهمًا.

لماذا تحتفظ الهند بهؤلاء الأسرى... أليس ذلك نوعًا من الضغط على «بوتو» خصوصًا أن هؤلاء الأسرى كلهم من السند والبنجاب وهذان الإقليمان هما قاعدة سلطته»؟

وقالت أنديرا غاندى:

- هل تظن أننى أريد أن أحتفظ بهؤلاء الأسرى... ماذا أفعل بهم... إن إطعامهم عبء لا تستطيع الهند أن تتحمله... مجرد إطعامهم».

قلت:

- إطعامهم على أى حال أسهل من إطعام عشرة ملايين لاجىء من بنجلاديش...».

قالت أنديرا غاندى بسرعة:

- أبدًا... الظروف اختلفت.

إطعام هؤلاء الأسرى الآن فى نفس صعوبة إطعام اللاجئين أمس مع فارق العدد الكبير.

وهناك سببان:

السبب الأول أننا نواجه قحطًا شديدًا... ولم يكن لدينا هذا القحط قبل سنتين.

والسبب الثانى أن الحصول على الحبوب الآن مشكلة...

قبل سنتين كنا نستطيع أن نشترى من الأسواق العالمية إذا احتجنا.

الآن دخلت قوى كبرى واشترت مخزون القمح.

الاتحاد السوفيتى والصين اشتريا مخزون القمح من أستراليا وكندا وأمريكا.

هذه مشكلة.

الأقوياء والأغنياء الآن يشترون الحبوب ولم يكونوا يشترونها من قبل... من قبل كنا نحن الذين نحصل على معونات الأغذية من الدول المتقدمة والآن أصبح سعر القمح فى السماء».

واستطردت أنديرا غاندى:

- أنت ذاهب بعد غد إلى باكستان... سوف تقابل بوتو فيما أعلم... قل له إنه يستطيع أن يأخذ كل أسراه ولكن يجب أن نصل إلى تسوية شاملة لمشاكلنا.

عندما التقينا فى سيملا فى ٢٧ يونيو سنة ١٩٧٢ قال لى إنه سوف يعترف ببنجلاديش ولكنه يريد شهرين أو ثلاثة حتى يستطيع أن يرتب نفسه ويؤهل جماهير شعبه لهذا الاعتراف... كان وعده أن يعرض ذلك على الجمعية التشريعية فى أغسطس أو سبتمبر ولكنه لم يفعل.

لماذا لم يفعل؟

لماذا لم يحتفظ بكلمته معى؟

هل هناك ضغوط عليه؟

ومن الذى يضغط؟

أفهم أن هناك تعبئة فى مشاعر الرأى العام، ولكن القيادة السياسية تقود الرأى العام ولا تنقاد له، وأفهم أن هناك دورًا للعسكريين يضغطون به... وهذه مسألة خطيرة... ألا ترى ذلك»؟.

قلت لأنديرا غاندى:

- دعينا من المشاكل مع باكستان... أريد أن أسألك ما هو العمل فى مشاكل الهند»؟.

قالت أنديرا غاندى:

- لا تصدق دعاة الشؤم... فى صحافة الغرب كانوا يتحدثون عن انهيار الهند... وذلك الانهيار لم يحدث... وأظننا نتقدم... ونحن نتقدم ببطء ولكننا نتقدم».

قلت:

- هناك شىء أحسست به ولن أخفيه عليك... إننى قادم من شرق آسيا وهناك إحساس هام بأن القوى المؤثرة فى مصاير آسيا اليوم وغدا هى الاتحاد السوفيتى والصين واليابان... لقد أدهشنى أنه لا أحد يتكلم عن دور أو تأثير للهند.

أين الهند فى مصاير آسيا»؟.

وقالت أنديرا غاندى:

- يستحيل فى آسيا نسيان دور الهند... طبيعيًا جغرافيًا تاريخيًا... الهند لها دورها ولهذا الدور تأثيره.

لسنا قوة نووية، ولكننا نستطيع إذا أردنا، والمشكلة هل ندفع هذا الثمن الباهظ فى الأبهة النووية... سلاح لا يمكن استخدامه... أو ندفعه للتنمية... إذا اضطررنا فسوف نتخذ القرار.

ليس لنا مقعد دائم فى مجلس الأمن: ولكن الأمم المتحدة ليست مكانًا تحل فيه المشاكل ولكنها مكان يمكن فيه إفراغ المشاكل من شحناتها المتفجرة.

نحن وأنتم وغيرنا من الشعوب... حتى إذا لم نكن قوى نووية، وحتى إذا لم تكن لنا مقاعد دائمة فى مجلس الأمن، لنا دور.

أليس لنا دور؟... ألم نكن نؤدى هذا الدور»؟.

قلت لأنديرا غاندى:

- لقد كنت أريد أن أسألك عن سياسة عدم الانحياز... أين مكانها وسط عصر التوازنات الدولية بين الكبار»؟.

قالت أنديرا غاندى:

- دورها موجود....

إن عدم الانحياز سياسة صحيحة وسليمة.

كانت كذلك فى الماضى وهى كذلك الآن وفى المستقبل.

عدم الانحياز ليس أن تكون غير متحيز لهذا الطرف الدولى أو ذلك الطرف الدولى الآخر.

وإنما عدم الانحياز أن تأخذ فى كل قضية عالمية رأيًا يتفق مع مبادئك.

وهذه سياسة لا تتغير.

يتحدثون كثيرًا عن عصر التوازن الدولى بين القوى الكبرى.

هناك بالقطع متغيرات كثيرة فى العالم ولكن علينا أن نتذكر أن نفس النوايا القديمة مازالت كامنة.

المهم أن ننشط دور الدول غير المنحازة.

ليست هذه مسئولية الهند وحدها... أنتم أيضًا مسئولون... يوجوسلافيا... غيرنا وغيرنا».

قلت:

- هل ترين بعقد مؤتمر لدول عدم الانحياز»؟.

وسكتت أنديرا غاندى قليلاً ثم قالت:

- هل تعرف ... بى خشية على الدوام من المؤتمرات الكبيرة الواسعة... المظاهر تستطيع أن تبلع الفكرة»!.

* * *

وابتسمت أنديرا غاندى وقالت فجأة:

- هل تريد أن تسأل أنت طول الوقت؟

لدى أسئلة أريد أن أسمعك فيها».

وقلت ضاحكًا.

- هل هناك من يستطيع أن يعصى أمرًا لإمبراطورة الهند»؟.

قالت وهى تهز رأسها بنفى سريع:

- هل تصدق هذه الأوصاف الصحفية...؟».

وواصلت حديثها على الفور، لم تترك لصحفى فرصة الدفاع عن مهنته... قالت:

- هناك أسئلة كثيرة تجول بفكرى».

قلت:

- إننى على استعداد بقدر ما أستطيع».

قالت:

- ما هو الحل لأزمة الشرق الأوسط»؟.

وطرحت أمامها تصورى الشخصى...

قالت:

- هل هناك عدول عن فكرة الدولة العلمانية فى مصر»؟.

وشرحت لها رأيى.

قالت:

- لماذا لم تعترف معظم الدول العربية ببنجلاديش»؟.

وقدمت لها التفسير الذى أتصوره.

* * *

وتشعب الحديث إلى ذكريات أيام مضت حين كانت دول عدم الانحياز تلعب دورها على مقدمة المسرح السياسى الدولى.

وتحدثنا طويلاً عن «نهرو» وعن أول مرة استمعت إليه فيها مطولاً فى باندونج سنة ١٩٥٥ إلى آخر مرة رأيته فيها على فراش المرض فى غرفة نومه سنة ١٩٦٤ بالمقر الرسمى لرئيس الوزراء

وقالت أنديرا غاندى:

- لقد أصبح هذا البيت متحفًا لحياته وأعماله.

لقد ذهب فى نفس الغرفة التى قابلته أنت فيها آخر مرة».

واستطردت:

- كان يكتب خواطره بانتظام كل ليلة قبل أن ينام.

فى الليلة الأخيرة كتب مقطعًا من قصيدة لروبرت فروست.

واختلج صوت أنديرا غاندى وهى تستعيد السطور الأخيرة التى كتبها والدها قبل النهاية بساعات:

«الغابة جميلة... مظلمة... وعميقة.

ولكن لدى موعدًا لابد أن أحفظه وأميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام، أميالاً طويلة أقطعها قبل أن أنام»!.

بوتـو وباكســـتان

الشعور السائد فى باكستان كلها هو الشعور بالوحشة!

وحشة شديدة حزينة أحيانًا، غاضبة فى أحيان أخرى، مجروحة فى معظم الوقت، محسوسة طول الوقت بألم نافذ حتى العظام...

وظنى أن جميع أصدقاء الباكستان يتحتم عليهم أن يساعدوها لكى تواجه ولكى تجتاز، وحتى تتعدى مرحلة النقاهة بعد أن تخطت مرحلة الخطر.

والصديق لا يساعد صديقه بمسايرته فى الوهم، وإنما تأتى مساعدة الصديق لصديقه من باب واحد هو: باب الفهم...

* * *

والشعور بالوحشة له ما يبرره فى باكستان.

إن الدولة ولدت فى ظروف اضطراب تاريخى عظيم اجتاح شبه القارة الهندية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وجعل تقسيم الهند سنة ١٩٤٧ ضرورة سياسية لا بديل لها إزاء استحكام العداء بين الهندوس والمسلمين، وهكذا فإن الأقاليم ذات الأغلبية من السكان المسلمين فى غرب الهند (السند والبنجاب أساسًا) وفى شرق الهند (البنغال الشرقية كلها) انفصلت عن الهند وأعلنت نفسها تحت قيادة محمد على جناح - قائد أعظم كما يلقبونه فى باكستان - دولة مستقلة مسلمة.

وكانت الباكستان من أول يوم تشعر بالخطر من عدة عوامل:

* الدولة جديدة ليس لها أساس قائم بذاته وليست لها قواعد ثابتة ترتكز عليها، لأن ذلك كله طوال قرون ممتدة كان فى دلهى أو متصلاً بها.

* الدولة بظروف قيامها قسمان أحدهما فى غرب الهند والثانى فى شرقها،

والهند نفسها بين القسمين تقوم بدور العازل أكثر مما تقوم بدور الجسر على عرض ١٥٠٠ ميل. وفضلاً عن ذلك فهناك اختلاف لغات واختلاف قوميات إلى آخره.

* الدولة بإحساسها الدفين تشعر بأن الهند أمامها (٤٠٠ مليون وقتها أمام ١٠٠ مليون) لا تستطيع أن تغفر لها انسلاخها عنها.

* * *

هذه العوامل جعلت الباكستان تبحث لنفسها عن أمنها. أو ما تتصوره أمنها. بوسائل متعددة بينها:

١ . الحماسة الزائدة للأحلاف العسكرية الغربية فكانت باكستان على سبيل المثال عضوًا نشيطًا، ومؤسسًا، فى حلفين: حلف بغداد أو الحلف المركزى الآن، ثم حلف جنوب شرق آسيا.

٢ . الولاء المطلق عبر سنوات طويلة لمخططات الولايات المتحدة الأمريكية وربما كان دافع باكستان إلى ذلك. أو على الأقل دفاعها عن نفسها حياله. هو أن هذا وحده هو الطريق لبناء جيش قوى مزود بأحدث السلاح ومدرب بمنتهى الكفاية على استعماله.

٣ . تغطية ذلك كله أو تعزيزه بالانتماء الإسلامى، وفى وقت من الأوقات كانت فكرة حلف بغداد أصلاً وأساسًا هى فكرة حلف إسلامى يحلم به راسموا السياسة الأمريكية ويتمنونه مستندًا على تركيا ومصر وباكستان وعندما رفضته مصر وتحولت نقطة الوسط من القاهرة إلى بغداد اتخذ الحلف اتجاهًا آخر، ومع ذلك بقيت فكرة الحلف الإسلامى فى خيالات راسمى السياسة الأمريكية تظهر وتختفى، وتسخن وتبرد وفق تطورات الظروف.

* * *

محصلة ذلك كله أن الباكستان بدأت تشعر تجاه الهند بنوع من الأمن:

* عليها حماية حلفين عسكريين تقودهما الولايات المتحدة.

* لديها جيش قوى مسلح ومدرب بسلاح أمريكى حديث.

* دورها الإسلامى محاط باستمرار بهالة أنها أكبر دولة للمسلمين من حيث تعداد السكان ومن هنا فإن صلاتها الإسلامية تستطيع أن تعطيها عمقًا واسعًا فى الدفاع عن نفسها.

. . . .

. . . .

كان ذلك شعورًا زائفًا استيقظت منه الباكستان سنة ١٩٧١ على حقائق قاسية مؤداها:

١ . إن الخرائط المرسومة والملونة لا تصنع الدول.

٢ . إن الجيوش القوية لا تكفى إذا لم تكن هذه الجيوش أداة تعبر عن انسجام تاريخى واستراتيجى واضح تحركه قيادة سياسية تفهم قوانين التطور وتستوعب روح العصر.

٣ . إن التأثير الأكبر على الحركة السياسية لأى شعب من الشعوب أو أمة من الأمم يجىء من الحقائق الاجتماعية والاقتصادية وتراكماتها التاريخية والحضارية أولاً وقبل أى شىء آخر.

من هنا فوجئت الباكستان بما لم تكن تتوقعه:

* الخريطة الملونة للباكستان غربًا وشرقًا تمزقت، واستقل شرق الباكستان تحت اسم بنجلاديش.

* الجيش الباكستانى تعرض لهزيمة مهينة فى الشرق وفى الغرب معًا.

* أحلاف أمريكا لم تردع ... والصيحة بـ «وا إسلاماه» لم تكن فى زمانها ولا فى مكانها!

والنتيجة كما قلت شعور سائد بالوحشة فى باكستان.

وحشة حزينة، غاضبة، مجروحة، مؤلمة.

وإلى جانب الأسباب العملية - وقد لمست بعضها - فقد كانت هناك أسباب نفسية يحسونها فى باكستان ولكنهم لا يتكلمون عنها صراحة وبينها:

١ - إن هزيمتهم الساحقة كانت انتصارًا لعدوهم التقليدى أو لمن يعتبرونه عدوهم التقليدى وهو الهند.

٢ - إنهم فى أعماق أعماقهم يدركون أنه لم يكن هناك مفر من قيام بنجلاديش لأسباب حقيقية وطبيعية من ناحية، ثم لنوعية السياسة والساسة والقرار السياسى للسلطة الحاكمة فى إسلام أباد وحتى وقعت المأساة.

٣ - إنهم يشعرون بعذاب حارق فى الضمير لأن جزءًا من حقيقة ما وقع فى بنجلاديش وصل إليهم وكان ضروريًا أن يصل، فلم يكن معقولاً أن تخفى مذبحة من نوع ما حدث فى بنجلاديش ثم لا تصل صور منها إلى باكستان، كما أنه لم يكن معقولاً أن تصل الصور دون أن تمس الضمير الباكستانى حتى وإن تظاهر بالإنكار.

❋ ❋ ❋

ولو بحثنا عن الإنصاف فإن شعب باكستان لم يكن مسئولاً عن كل ما جرى:

١ - الاستغلال الطبقى البشع الذى كانت تمارسه ٢٢ عائلة يعدها الرئيس ذو الفقار على بوتو واحدة بعد واحدة - كانت تمارس استغلالها فى شرق باكستان وفى غرب باكستان أيضًا.

٢ - السياسة والساسة والقرار السياسى الذى أدى إلى مذبحة الشرق كان هو نفسه سلطة الحكم فى الغرب.

٣ - إن شعب باكستان فى الغرب، وربما من قبل المأساة، كان هو الذى ثار على السلطة القديمة وحاول بإرادته الحرة أن يعطى لنفسه بداية جديدة، ولكن

السلطة القديمة عطلت إرادته ولم تبتعد عن طريقه إلا بعد أن وقعت المأساة وعجزت عن مواجهة آثارها وانتزع الشيخ مجيب الرحمن سلطة الحكم فى بنجلاديش بقوة الثورة، كما أن الرئيس ذو الفقار على بوتو تسلم سلطة الحكم فى باكستان (فى الغرب) عندما أشهرت السلطة القديمة إفلاسها بنفسها ورجته أن يتقدم ليتسلم تركة مثقلة بأعباء مادية ونفسية رهيبة!

ومهما يكن من أمر المسئولية وأين تقع تمامًا، فإن الشعور بالوحشة، حزينة غاضبة مجروحة مؤلمة، فى باكستان يصبح أمرًا طبيعيًا.

❋ ❋ ❋

والمشكلة أن جميع المأزومين بالوحشة يضيعون وقتًا غاليًا فى تبرير أنفسهم، وأخطر من ذلك فهم أحيانًا يجدون نوعًا غامضًا من اللذة فى تعذيب أنفسهم بما يتصورونه عن اضطهاد الآخرين لهم وتخليهم عنهم.

وذلك نوع من الهرب.

وأعترف أننى واجهت بعضًا من ذلك خلال زيارتى للباكستان ولكنى حاولت قدر ما أستطيع إنسانيًا ألا أجعل لذلك سبيلاً يؤثر فى رؤيتى الموضوعية للحوادث أو الناس ولا أعرف هل نجحت أو فشلت.

وعندما وصلت إلى «كاراتشى» ذات صباح باكر قادمًا من الهند كانت الرياح تهب ساخنة وباردة...

تلقفت صحافة باكستان مقتطفات من محاضرة ألقيتها فى معهد العلوم السياسية والاستراتيجية بجامعة جواهر لال نهرو فى الهند وأقامت الدنيا وأقعدتها.

❋ كنت قد قلت: «إننى لا أستطيع أن أتصور موقفًا محايدًا إزاء ما حدث فى بنجلاديش».

❋ وكنت قد أشرت: «إلى مساعدات سوفيتية وصلت إلى الهند عن طريق مصر».

* وكنت قد أعترفت: «بأننى لا أرى سببًا منطقيًا يدعو معظم الدول العربية إلى تأخير اعترافها ببنجلاديش».

كنت قد تحدثت فى ذلك كله وغيره فى جامعة جواهر لال نهرو إزاء موجة عتاب فى الهند راحت تلح على فهم موقف وسياسة ودور مصر، وكيف أن الهند وقفت معها باستمرار ومع كل قضية نضال عربى، فى حين أن مصر تبدو وكأنها قد تركت الهند وابتعدت عن صداقتها التقليدية معها.

* * *

ونزلت فى مطار «كاراتشى» وإذا بين الذين جاءوا لانتظارى السفير المصرى على خشبة وهو بطبيعته رجل عاقل مجرب وهادئ الأعصاب.

وهمس على خشبة فى أذنى قائلاً:

- الدنيا هنا قائمة قاعدة بسبب ما نقل من تصريحاتك فى الهند».

قلت له ضاحكًا:

- هل يحل مشاكلك أن أعود إلى الطائرة مرة أخرى... هى فى طريقها إلى بيروت وأستطيع من بيروت أن أستقل أول طائرة ذاهبة إلى القاهرة»؟.

وقال على خشبة بجد:

- هذا يزيد المسائل تعقيدًا ولا يحل شيئًا».

والتفت إلى صديقين من باكستان كانا فى انتظارى وهما: نسيم أحمد وزير الدولة للإعلام وكان صحفيًا مرموقًا قبل ذلك، ثم كمال أظفر وزير المالية فى حكومة السند ومن أقرب المعاونين إلى الرئيس ذو الفقار على بوتو. وقلت:

- هل أستطيع أن أجد مجموعة من صحف الباكستان الصادرة اليوم لكى أرى ماذا فعلوا بما قلت أمس فى الهند»؟.

ودخلت إلى قاعة المطار وإذا عشرات من ممثلى الصحافة والإذاعة والتليفزيون ينتظرون بالأقلام والعدسات وكشافات الضوء الباهر.

وقلت:

- إننى أعرف ماذا قلت فى الهند أمس وأتحمل مسئوليته... وظهر اليوم فأنا ضيف غداء مع كل رؤساء تحرير الصحف الباكستانية الكبرى، وعلى الغداء فسوف أكون مستعدًا للإجابة على كل سؤال، وفى هذه الفرصة فإننى سأقرأ كل ما نسب إلىّ فى صحافة باكستان اليوم».

* * *

وأعترف أن الأسلوب الباكستانى معى كان ممتعًا.

كانوا من قبل يعرفون - وقد قرأوا بالكامل - ما كتبت تأييدًا لبنجلاديش وتمسكًا بالصداقة مع الهند شريطة ألا يكون ذلك على حساب باكستان.

وكانوا قد تابعوا - ونقلوا فى الصحافة والإذاعة والتليفزيون - ما قلت قبل ساعات فى دلهى وأخذه كل طرف على النحو الذى يحلو له.

وكان الأسلوب الباكستانى معى - كما قلت - ممتعًا.

الدولة تبالغ فى عنايتها بى ويقال لى رسميًا إن الرئيس بوتو أمر بنفسه أن أعامل كضيف شرف فى باكستان.

وأقدم الشكر ولكنى أقول بصراحة:

- إننى أشعر إزاء هذا كله بغربة شديدة، وما أراه من حولى يخرجنى عن إحساسى بأننى صحفى ورجائى هو النظر فى إعفائى منه كله».

الصحافة والإذاعة والتليفزيون فى حالة ثورة عارمة تطالبنى بتفسيرات وتوضيحات لموقفى من بنجلاديش والهند وباكستان، وتصل إحدى الصحف إلى حد أن تجعل عنوانها الرئيسى فى صفحتها الأولى عند وصولى إلى كاراتشى: «غضب عام فى المدينة ضده»!

طائرة هليكوبتر خاصة فى انتظارى بمطار لاهور لتأخذنى إلى المناطق التى

احتلتها وجلت عنها الهند وأجد جنرالاً باكستانيًا مؤمنًا وطيبًا يصحبنى فى الهليكوبتر ويقول لى ـ بالعربية الفصحى وبنطق باكستانى ـ مشيرًا إلى بعض الأطلال المخربة :

ـ هذا ما فعله أصدقاؤكم الهنود»؟.

وقلت :

ـ الحرب هى ذروة المأساة الإنسانية كلها».

وعاد الجنرال الباكستانى يقول :

ـ الهنود كفار ... وهم فى إسرائيل كفار ... والكفر كله ملة واحدة».

وأقول :

ـ هذه مسألة يطول فيها الحوار».

وأجد نفسى فجأة أمام بطارية من عدسات وكشافات التليفزيون ومجموعة من زوجات أسرى الحرب الباكستانيين الذين مازالت الهند تحتجزهم ويقلن لى :

ـ ألا تساعدوننا فى استعادة أزواجنا؟

وأضعف أمام الدموع وأقول بصدق :

ـ لكن كل الحق فى المطالبة بعودة الرجال من الأسر، ونأمل كما انتهت الحرب أن تسوى كل آثارها».

وأواجه على غير انتظار وباستمرار بسؤال يقول :

ـ ما هو الفارق بين قيام بنجلاديش وقيام إسرائيل؟.

وأقول بهدوء :

ـ فارق كبير ... فى إسرائيل قومية دخيلة جاءت بالسلاح وطردت قومية أصيلة كانت تعيش فى الأرض واستولت على الوطن وكل ما كان عليه.

وفى بنجلاديش فإن البنغاليين ـ وهم القومية الأصيلة فى البنغال ـ قرروا بأنفسهم فى انتخابات حرة مصيرهم الوطنى على ترابهم الوطنى ووجهوا بما ووجهوا به فاختاروا الاستقلال الكامل وبقوا على أرضهم لم ينزعها منهم غيرهم...

أليس هذا فارقًا كبيرًا»؟.

وحاولت فى غداء مع رؤساء تحرير الصحف الباكستانية أن أضع ما قلت فى الهند داخل إطاره.

قلت لهم :

«إننى فى الهند ذكرت أننى لا أستطيع أن أتصور موقف حياد إزاء ما حدث فى بنجلاديش.

ومازال ذلك رأيى لأن أى إنسان فى الدنيا كلها لا يستطيع أن يكون محايدًا إزاء مذبحة من حجم ونوع ما حدث فى بنجلاديش».

وقلت لهم :

«... إننى فى الهند أشرت إلى مساعدات سوفيتية وصلت إلى الهند عن طريق مصر... وذلك صحيح ولهم أن يقرأوا نص ما قلت لكى يعرفوا أن ذلك السلاح لم يذهب فى وقت المعارك ولكنه ذهب قبل أن يخطر فى بال أحد أن الحرب سوف تنشب فعلاً بين الهند وباكستان.

ومع ذلك فلماذا نسيان أن هناك سلاحًا وصل وقت المعارك إلى باكستان من دول عربية لم تخف موقفها وإنما أعلنته»؟.

وقلت لهم :

«إننى فى الهند اعترفت بأننى لا أرى سببًا منطقيًا يدعو معظم الدول العربية إلى تأخير اعترافها ببنجلاديش.

وفى ذلك فقد كنت أعبر عن رأى شخصى لا يملك أى تأثير رسمى ولست أفهم

لماذا تترك الدول العربية دولة إسلامية مثل بنجلاديش وحدها يعترف بها العالم كله إلا أقرب الناس إليها بالعقيدة الدينية. ثم إننى لا أدعو إلى الاعتراف العربى ببنجلاديش على أساس الأمر الواقع، وإنما أدعو إليه على أساس حرية الأمة البنغالية فى تقرير مصيرها وهو نفس ما نطالب به لشعب فلسطين».

ثم قلت لهم:

- إننى لا أخفى حرصى على الصداقة بين مصر والهند فى إطار سياسة عدم الانحياز، ولكنى لا أرى أن هذه الصداقة سوف تكون على حساب الباكستان».

ثم أضفت فى النهاية:

- إننى تعرضت لضغوط كثيرة منذ جئت إلى باكستان ولكن ذلك لن يدفعنى إلى أن أغير موقفى أعنى لن أقول فى «كاراتشى» أو «لاهور» أو «إسلام أباد» كلامًا يختلف عما قلته فى دلهى، كما أننى لست على استعداد لأن أكون طرفًا فى الحرب الباردة بين صحافة الهند وصحافة الباكستان.

ثم إن أية ضغوط لن تؤثر فى فهمى - وأنا أحاول تعميقه إلى أقصى حد ممكن - بمشاكل باكستان العملية بل حتى مزاجها النفسى».

* * *

كان ذلك هو الجو الذى التقيت فيه بالرئيس الباكستانى ذو الفقار على بوتو.

(والغريب أن موعدى معه جاء فى نفس اليوم الذى كانت سفارة مصر فى إسلام أباد تتلقى احتجاجًا على بعض ما قلت، كما أن سفارة باكستان فى القاهرة كانت فى نفس اليوم تقدم احتجاجًا إلى وزارة الخارجية هنا).

وكان لقاؤنا فى قاعة الاجتماعات بقصر الرئاسة فى راولبندى.

ولقد ذكرتنى القاعة حين دخلتها بتأثيرات الفن الفارسى على القصور الملكية فى عصر أسرة قاجار بالتحديد، وبدت لى القاعة طبعة متقشفة من أبهاء المرايا فى قصر جولستان التى أعيد ترميم بعضها فى القرن التاسع عشر.

ودخلت قاعة الاجتماعات قبل الرئيس بوتو بدقيقة ثم انفتح الباب على مصراعيه وبدا اثنان من حراس البنجاب بالقامات الطويلة والرماح المنصوبة - كل منهما يمسك بالباب من ناحية... ودخل الرئيس الباكستانى بخطى شابة نشيطة رغم الشعر الذى سرح فيه الشيب، وابتسامة عريضة وخلية البال على شفتيه، رغم الهموم الثقال!

* * *

وكانت البداية كالعادة فى أى حديث مدخلاً شخصيًا يدلف منه المتحدثون إلى شواغلهم العامة.

قال لى:

- لقد فرغت قبل أسابيع قليلة من قراءة كتابك عن عبد الناصر وعمالقة العصر الذين تعامل معهم...».

واستطرد بوتو:

- كان الفصل الذى كتبته فى هذا الكتاب عن شواين لاى مثيرًا وأريد أن أعرف هل تحدث معك شواين لاى عنه عندما قابلته أخيرًا فى بكين.

تصورت أنه سيتحدث معك فيما ذكرته عنه من أنهم ردوا حرب الأفيون إلى الغرب فى فيتنام وأثروا بذلك فى معنويات القوات الأمريكية»؟.

قلت:

- إن شواين لاى لم يفتح هذا الموضوع معى.

ومع ذلك... أليس من حق الصين أن ترد التحية بأحسن منها»!

وضحك بوتو وتشعب الحديث قليلاً إلى شخصية شواين لاى وإلى روح الصين الجديدة وأثرها على آسيا.

وقلت:

- إننى وصلت إلى باكستان فى آخر محطة لى بعد رحلة آسيوية طويلة».

وقال الرئيس بوتو برقة :

ـ لعلها لم تكن رحلة متعبة... هل زادت متاعبك معنا هنا»؟.

قلت :

ـ بالحق أبدًا... إننى أستطيع أن أفهم شعور الوحشة فى باكستان.

ربما كنا فى مصر أقدر من غيرنا على أن نحس بما تحسون به.

لقد عشنا من قبل عذاب انفصال.

وعشنا من قريب محنة هزيمة مع أن ظروفنا فى التجربتين تختلف كثيرًا عن ظروفكم.

لقد قلت هذا لكثيرين من الأصدقاء هنا».

وقال بوتو :

ـ إننا عشنا تجربة قاسية».

وقلت :

ـ كانت قاسية عليكم وعلى غيركم... إننى سمعت كثيرًا فى بنجلاديش عندما قابلت مجيب الرحمن وغيره من قادة بنجلاديش».

وقال بوتو بسرعة :

ـ دعنى أصحح لك. إنك تقول «مجيب الرحمن وغيره من قادة بنجلاديش» ليس هناك غيره قادة فى بنجلاديش... ليس فى بنجلاديش إلا مجيب وحده».

قلت :

ـ ليكن... لن يستحكم خلاف بيننا حول هذه النقطة...

أريد أن أسمع منك وجهة النظر الأخرى.

إننى أعتقد أنك تتحمل مسئولية ضخمة.

بلدك خارج من مأساة انفصال ومحنة هزيمة.

وأنت تحاول أن تبدأ بداية جديدة.

وألمح فى بعض تطبيقاتك للاشتراكية آثارًا واضحة من تجربة عبد الناصر.

وأعتقد أنك أمام لحظات اختبار واختيار حاسمة.

ولديك بالتأكيد كثير تقوله وأمامى كثير أسمعه».

وتنهد الرئيس ذو الفقار على بوتو من أعماقه وأمسك بسيجار كان أحد الحراس قد وضعه أمامه على المكتب وراح يحركه ويدق به أمامه وهو يتحدث ثم قال :

ـ لقد استفدنا كثيرًا من تجربة عبد الناصر... هذا صحيح وكان عبد الناصر يشجعنى باستمرار وكنت أذهب إليه عندما كنت وزيرًا للخارجية فى عهد الماريشال أيوب خان وأشكو له همومى وكان يسمعنى فى صبر.

تجربتكم فى مصر كلها بالغة الأهمية لنا ولذلك فنحن نتابعها، ولذلك أيضًا فإننا نؤيدكم فى كل مواقفكم، لا نؤيدكم لمجرد أننا مسلمون مثلكم ولكن نؤيدكم عن استحقاق.

نحن نشكر الله لأننا مسلمون، ولكن ذلك ليس وحده سبب تأييدنا لكم.

لقد تأثرت علاقاتنا بدول أخرى بسبب موقفنا من إسرائيل، ولكن ذلك لن يؤثر فينا وإنما سنقف معكم إلى النهاية.

إن إسرائيل لا تكف عن مضايقتنا ولكننا لا نهتم.

لقد أسهموا فى تمزيق باكستان...

إن الخطة لم توضع فى «دلهى» ولكن وضعت فى «تل أبيب».

وكانوا هم الذين أعطوا أسلوب العمل لجماعات المختى باهينى.

قلت :

- سيادة الرئيس ... إننى سمعت بعض الأصدقاء الباكستانيين يشيرون إلى هذا ولكن أحدًا منهم لم يقدم لى دليلاً عليه.

ولقد قابلت كثيرًا من قادة الثورة الشعبية للمختى باهينى فى بنجلاديش وأعتقد أن شعورهم فيما يتعلق بإسرائيل كان قاطعًا».

وقال الرئيس بوتو:

- هناك أشياء لا تظهر إلا بمرور الأيام ومع ذلك فدعنا نترك هذه النقطة ونواصل حديثنا».

واستطرد الرئيس بوتو:

- إننى فى كل ما حدث لا أريد أن أتهرب من مسئولياتنا.

علينا نصيبنا من المسئولية ولكنى كنت أتمنى أن يساعدنى مجيب الرحمن حتى تعود وحدة باكستان فى الشرق والغرب...

لقد تطورت الأمور مع الأسف على نحو مأساوى.

أظهر جزء فى المأساة أنه كان لدينا جيش قوى ولم تكن لدينا قيادة سياسية قادرة وهذه كارثة.

لقد كانت لدينا حكومة عسكرية فقدت ثقتها بنفسها وكان أيوب خان مريضًا ولم يستطع أن يواجه الثورة الشعبية ضده، وكنا نتوقع حكومة مدنية ولكن أيوب خان ترك المسرح وجاء بيحى خان وهو رجل ضعيف يغطى ضعفه بالإسراف فى الشراب وكان أيوب يريده واجهة باعتباره قائد جيش ولكن يحيى بدأ يحلم بأن يكون رئيسًا.

كان مفروضًا أن يشرف على عملية الانتقال من الحكم العسكرى إلى السلطة المدنية.

وحين شددنا الحملة ضده مطالبين بإجراء انتخابات حرة وباتخاذ سياسة

خارجية مستقلة فإنه دعانى لمقابلته وأقسم لى على الكتاب أنه سوف يجرى انتخابات حرة شريطة أن أوقف الحملة ضده.

أعطانا سنة كاملة للحملة الانتخابية.

هل هذا معقول فى بلد حرم من الحياة النيابية لمدة ١٤ سنة؟

كانت النتيجة أن الجو كله أصبح متوترًا لأن كل المشاكل الكامنة طفت على السطح وبدت القلاقل غير محتملة.

وأصبحت أشك فيه...

كان اعتقادى أنه يترك الفوضى لكى يثبت أن الحياة المدنية محكوم عليها مقدمًا بالفشل وأنه ليس هناك من بديل للاستقرار غير الحكم العسكرى.

وعندما أجريت الانتخابات كان الجو محمومًا.

وفى الشرق تضافرت عوامل كثيرة على رفع درجة الحرارة بشكل خطر وخرجت الأمور وأفلتت من كل زمام.

فى ٢٥ مارس اتخذ يحيى خان قرارًا سيئًا فى رأيى، لأنه قرر أن يضرب بقوة الجيش ضد الشعور الشعبى فى بنجلاديش.

لقد ضرب وأنا لا أنكر ذلك... ضرب بيد غليظة وبفظاظة.

بالطبع هناك ضرورة لبعض الاجراءات الخشنة إذا كان الأمر يتعلق بالمحافظة على وحدة الوطن، ولكن قرار يحيى خان كان سيئًا من الناحية السياسية وأسوأ من ذلك أن جميع قراراته العسكرية كانت خاطئة عندما تطورت الأمور».

وسكت الرئيس ذو الفقار على بوتو قليلاً وكأنه يتأمل فى فكره شيئًا ثم استطرد:

- كانت المأساة فى نجومنا.

لقد قابلت بعد ذلك الجنرال بير زاده المستشار العسكرى ليحيى خان وقلت له:

«بعد كل ما حدث فإنكم لا تستطيعون مواجهة المشاكل... لابد من إصلاح اجتماعى واقتصادى واسع النطاق لكى يشعر الناس ببعض الأمل فى المستقبل».

وقلت لبير زاده: «المطلوب الآن قرارات عسكرية أقل وقرارات اجتماعية واقتصادية أكثر».

واستطرد الرئيس بوتو يكرر:

ـ كانت المأساة فى نجومنا...

لو أن «مجيب» تعاون معى وكان أكثر صبرًا وأقل عنادًا لأمكن إنقاذ الموقف.

كان مجيب معى فى الرأى بأن يحيى خان يريد أن يثبت فشل الديمقراطية لكى تستمر الديكتاتورية.

كان يحيى يريد أن يلعب بمجيب الرحمن.

وكان يريد أن يلعب بى أيضًا.

كل ما يهمه كان يريد أن يصبح رئيسًا للجمهورية وقد قال لى بنفسه ذلك واعترف به أمامى... قال لى:

ـ ماذا أصنع... أريد أن أصبح رئيسًا للجمهورية»!

واستطرد الرئيس بوتو يقول:

ـ لقد انتهى الأمر كما رأينا بمأساة ولكننا نريد الخير لإخواننا فى البنغال الشرقية، لقد تقاسمنا معهم الحياة فترة طويلة والسلام ضرورى لهم كما هو ضرورى لنا.

ونحن على أى حال واجهنا أمورنا وأعتقد أن أحوالنا الاقتصادية والاجتماعية أحسن... الناس هنا يعملون والأرض خصبة وهناك قاعدة صناعية لا بأس بها، ورصيدنا من العملات الأجنبية يزداد.

ونحن على استعداد للتفاوض معهم والوصول إلى اتفاق نفتح به صفحة جديدة».

وقلت للرئيس بوتو:

ـ لقد راودنى شعور غريب وأنا أسمع بعض من قابلت فى بنجلاديش... برغم كل شىء... برغم المذابح وما جرى فيها... فإنهم على استعداد لأن ينسوا وأن يبدأوا معكم هنا فى الغرب صفحة جديدة.

لو أن كل شىء سار فى طريق طبيعى وانتهى التوتر بينكم فإننى لا أستبعد فى ظرف عشر سنوات على الأكثر أن يقوم بينكم وبينهم هناك نوع من الارتباط الوثيق».

وقال الرئيس بوتو:

ـ إننى أبذل كل جهدى لأقنع شعبى وأنت تعلم أننى أواجه فى ذلك مشاكل كثيرة ولكنى لم أخف أبدًا رأيى فى ضرورة اعترافنا ببنجلاديش فور تسوية بعض المسائل المعلقة بيننا».

وقلت:

ـ إننى أعرف...».

ثم أضفت ضاحكًا:

ـ إننى قرأت فى برقيات وكالات الأنباء العالمية قصة طريفة نقلتها هذه الوكالات... أنك كنت تتحدث إلى جماهير واسعة حول الاعتراف ببنجلاديش وبدأت هذه الجماهير تقاطعك وإذا أنت تقول لها من الميكروفون: إذا لم تكونوا على استعداد لأن تسمعوا فاذهبوا إلى الجحيم.

هل القصة صحيحة»؟.

وقال بوتو ضاحكًا هو الآخر:

ـ ذلك حدث.

المشكلة أننا نحن الذين يجب أن نتخذ القرار الصعب... هذه دائمًا مشكلة المهزوم... عليه أن يتخذ القرار الصعب.

أنديرا ليس لديها قرار صعب تتخذه... انتصرت فى الحرب.

مجيب ليس لديه قرار صعب يتخذه... تحقق له ما يريد.

أما أنا هنا فعلى أن أتخذ القرار الصعب.

لقد حاولت تخفيف الصدمة فقلت للناس: إننا لم نكسب الحرب ولكننا لم نخسرها، ومع ذلك أحس الناس بالصدمة لأنهم هنا لا يستطيعون نسيان ٧٠٠ سنة من التاريخ كانت لهم فيها السيطرة على الهند...

لا يمكن لأحد أن يقنعهم بأنهم هزموا.

أقصى ما يستطيعون الوصول إليه لتفسير ما حدث وتبريره أنها لعنة هبطت عليهم من السماء ولكنها ليست حقيقة.

إننى فى سملا كنت وعدت أنديرا غاندى أن يجىء اعترافنا ببنجلاديش فى شهر أغسطس الماضى وعندما عدت إلى روالبندى وتقابلت مع أقطاب حزبى وتحدثت إليهم فى ضرورة تهيئة الناس لقبول الحقيقة كان قولهم لى بالإجماع:

هذه كارثة لا نستطيع مواجهتها شعبيًا.

ماذا أفعل؟ هل أحل الحزب وأدخل فى تناقض مع الشعب أم أعطى لنفسى الفرصة لأقود حزبى وشعبى.

إنهم فى الهند يقولون لى كل يوم: أنت وعدت بالاعتراف فى أغسطس ولم تنفذ.

وليس ذلك دقيقًا إننى وعدت أن أحاول وأن أهيىء الظروف ومازلت ملتزمًا بذلك.

ولكن ماذا عن بقية المشاكل الأخرى التى يجب أن تسبق الاعتراف...

أسرى الحرب الباكستانيون مثلاً هل يجوز تأخير إعادتهم إلى وطنهم أكثر من ذلك»؟

قلت:

- المشكلة أن البعض هناك يتصورون أنك تريد أن تكسب وقتًا لتعد فيه لجولة ثانية فى الحرب... إنك قلت لأنديرا غاندى - وقد سمعت منها بنفسى - إنها مخطئة إذا تصورت أن عدم عودة أسرى الحرب الباكستانيين يمكن أن يمنعك من بناء جيش جديد»؟.

وقال الرئيس بوتو:

- إننى قلت لها ذلك فعلاً فى سملا.

قالت لى إنها لا تستطيع إعادة الأسرى إلا بعد السلام.

وقلت لها إن هناك مشاكل لابد من حلها قبل السلام «ولكن إذا كنت تتصورين أننى أريد الحرب فإننى أستطيع تجنيد قوات تحل محل هؤلاء الأسرى الذين تحتفظين بهم فى قفص كما يفعلون فى حدائق الحيوانات».

وقالت لى مسز غاندى: الاعتراف أولاً.

ووعدت أن أحاول.

وجاءنى السوفييت يقترحون حلاً وسطًا وقلت لهم إننى على استعداد لعقد صفقة كاملة نسوى بها جميع المشاكل مرة واحدة.

إننى قدمت الدليل على حسن نيتى حين أفرجت مقدمًا عن مجيب الرحمن بلا قيد ولا شرط. أليست هذه دلالة كافية».

واستدرك الرئيس بوتو يقول:

- لماذا لا تحاول مصر أن تتدخل لحل هذه الأزمة... لماذا لا تحاول الدول العربية... أنتم الأقرب إلينا.

قولوا لهم إننا سنعترف بهم... قولوا لهم إن لنا مصلحة فى الاحتفاظ بأقوى العلاقات مع البنغال المسلمة ولكن هناك قضايا لابد من تسويتها».

قلت:

ـ قبل أن نؤكد لهم أنكم سوف تعترفون بهم أليس من الضرورى أن نعترف بهم نحن أولا ؟

إننا أخرنا اعترافنا بهم بناء على طلبك شخصيًا فيما أعرف.

كان رأيك أن ذلك سوف يحرج باكستان ويؤثر فى مشاعر شعبها ثم إنه قد يساعد على تشجيع نزعات انفصال أخرى فى إقليم الحدود الشمالية الغربية مع أفغانستان، وفى إقليم بالوشستان أيضًا.

وقال الرئيس بوتو :

ـ دعنى أقرر لك بصراحة أننا لا ندعى لأنفسنا ذكاء يفوق ذكاء غيرنا، ولا نريد أن نمارس على أصدقائنا ضغطًا يقيد حريتهم فى العمل، ولكن يجب أن تعرفوا أن صداقتكم مهمة جدًا لشعب الباكستان وأن تفهمكم لأوضاعه ضرورى».

❊ ❊ ❊

قلت للرئيس بوتو :

ـ لقد كنت وزيرًا للخارجية زمانًا طويلاً، وسياسة التقارب بين الصين وباكستان كانت سياستك، وخلافك مع أيوب خان بدأ بالسياسة الخارجية وبما حدث فى مؤتمر طشقند الذى توسط فيه السوفييت بينكم وبين الهند، لهذا كله وغيره فأنا أريد أن أنتقل بالحديث إلى الأوضاع العالمية.

إننى قادم من شرق آسيا وإحساسى أن النزاع الصينى السوفيتى هو العنصر الأساسى الذى يؤثر فى اتجاهات الحركة العامة فى آسيا وربما أوسع من ذلك ... ما رأيك»؟.

وقال الرئيس بوتو :

ـ بعد انتهاء حرب فيتنام، أو بعد وقف إطلاق النار فى فيتنام على الأصح، فإننى أتصور أن الاهتمام سوف يزداد بأحوال شبه القارة الهندية.

ذلك سوف يؤثر فينا بشكل مباشر.

الصين والاتحاد السوفيتى كلاهما على حدودنا، وكلاهما مهتم بشبه القارة الهندية.

والاتحاد السوفيتى يؤيد الهند وقد أعطاها كميات هائلة من السلاح، كما أنه وفقًا لمعلوماتنا فإن الروس يقيمون قاعدة بحرية كبيرة فى شيتا جونج (بنجلاديش) وهذه القاعدة نقطة هامة بالنسبة لهم فى سياستهم تجاه الصين.

من ناحية أخرى فإن الصين قوة آسيوية ضخمة لها دورها الواسع ووجودها وتأثيرها محسوسان فى كل مكان فى آسيا ونحن على علاقة طيبة معها، وكان ذلك كما أشرت أنت موضوعًا من أهم ما أنجزته عندما كنت وزيرًا للخارجية.

بالطبع نحن نريد علاقات أفضل مع الاتحاد السوفيتى ونسعى لذلك».

وقلت مقاطعًا :

ـ سيادة الرئيس إن أحد معاونيك ذكر لى أن كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى قال لك صراحة عندما كنت فى موسكو إن الاتحاد السوفيتى سوف يساعد الهند ضدكم فى أى معركة بينها وبينكم».

وقال بوتو :

ـ إن كوسيجين ذكر شيئًا يحمل هذا المعنى، ولكن ذلك لا يهم ... فى العلاقات مع الدول الكبرى فإننا لا نستطيع أن ندخل فى مواجهة بالتناطح، أليس ذلك تعبيرك ... إننى قرأت مقالاتك عن أسلوب إدارة الصراع بين القوى العظمى وبين القوى الصغرى ومازلت أذكر وصفك لأسلوب مصارع الثيران وأنا أوافق على تحليلك».

قلت :

ـ سيادة الرئيس ... لا تذكرنى بذلك الآن لأن هذه المقالات أغضبت منى كثيرين».

وقال بوتو :

ـ ولكنك كنت على حق. إن أحوال العالم تتغير، ولابد لنا اكثر من غيرنا أن نتفهم حقيقة المتغيرات فى العالم لكى نستطيع أن ندير سياساتنا.

أعود إلى ما كنت أحدثك فيه.

نحن نريد علاقات طيبة مع الاتحاد السوفيتى، ولكن الاتحاد السوفيتى يحاول الآن تنفيذ ما أسميه «حلف بريجينيف» وهو معاهدة للأمن فى آسيا يعرضها على كل دولها.

لا أعرف لماذا يطالبون الآن بحلف بريجينيف وما هو هدفهم؟

إن الصين مهما قالوا تريد علاقات أفضل مع الهند.

ونحن نريد تفاهمًا أفضل مع الهند.

وإذن لماذا حلف جديد فى آسيا... لماذا حلف جديد للأمن...؟

أمن من ضد من؟

إن آسيا تستطيع أن تحل مشاكلها بالتفاهم وليس بالأحلاف.

يكفينا ما فعلته بنا الأحلاف... نحن كنا عضوًا فى حلفين فى نفس الوقت.

سيِّئ أن تكون أى دولة عضوًا فى حلف، وأسوأ أن تكون عضوًا فى حلفين.

... إذا استطاعت اليابان أن تتفاهم مع الصين وهذا يحدث...

... وإذا استطاعت الهند أن تتفاهم مع اليابان وهذا محتمل...

... وإذا استطعنا أن نسوى مشاكل شبه القارة الهندية بيننا وبين الهند وهذا ما نسعى إليه...

إذن فلماذا أحلاف جديدة فى آسيا.

لا نستطيع بالطبع أن ننسى أن الولايات المتحدة طرف فى صراعات آسيا. لقد كانوا إلى وقت قريب غارقين فى حرب فيتنام، ولكن وقف إطلاق النار سوف يعطيهم مرونة كبيرة فى الحركة.

إن أمريكا سوف تنسحب من فيتنام ولكنى لا أتصور أن أمريكا سوف تنسحب من آسيا، لا ماديًا ولا سياسيًا، وأعتقد أنها بانتهاء حرب فيتنام سوف تكون أقدر على التأثير. وعلينا أن ننتظر كيف ستمارس أمريكا دورها الجديد.

اهتمامهم بالطبع وبالدرجة الأولى الآن على الناحيتين... على بحر الصين حيث اليابان والصين، وعلى الخليج...

وابتسم بوتو وقال:

ـ ما هو الاسم الذى ترضونه الآن للخليج... الخليج العربى أو الخليج الفارسى؟ ألم تكن هناك مشكلة بينكم وبين الإيرانيين على تسميته»؟.

واستطرد:

ـ ذات يوم كنت اتحدث مع سوكارنو... وقال لى سوكارنو إن العرب مصممون على أن الخليج ليس فارسيًا ولكنه عربى... ونحن لماذا نسكت على تسمية المحيط الهندى بهذا الأسم... ونحن نقترح أن نسميه المحيط الهندى الإندونيسى الباكستانى.

وقلت لسوكارنو: هذا اسم طويل ولن يحفظه أحد».

ويعود بوتو إلى سياق حديثه:

ـ ما هو الدور الذى ستقوم به الولايات المتحدة؟

سؤال مازال معلقًا.

المشكلة أن أمريكا تعتمد كثيرًا على حسابات العقل الإلكترونى ولكن العقل الإلكترونى لم يجعل السياسة الأمريكية عظيمة... كانت السياسة الأمريكية عظيمة فى العصر الويلسونى (نسبة إلى مبادئ وودرو ويلسون).

فى السياسة لابد من هذين العنصرين:

اتخذ حساباتك كما تشاء.

ولكن لا تنس عنصر الأخلاق.

ليس صحيحًا أن هناك تعارضًا بين الحسابات وبين الأخلاق.

لماذا نتصور مثل هذا التعارض أو التناقض»؟.

واستطرد بوتو:

- إذا انتقلت من هنا إلى الشرق الأوسط فأعتقد أن الولايات المتحدة قد تبدى اهتمامًا بأزمة الشرق الأوسط.

لا أعرف من الذى سيتصدر للحديث معكم فى هذه المشكلة.

ربما نحوا روجرز جانبًا هذه اللحظة وأبرزوا كيسنجر.

لا أحد يستطيع أن يتصور من الآن ما سوف يحدث ولكنى أتمنى أن تكونوا على حذر.

تذكروا أنكم أنتم فى مصر أساس أزمة الشرق الأوسط.

لو لم تكن هناك مصر لم تعد هناك أزمة.

الأزمة موجودة لأن مصر موجودة تناضل عن الحقوق العربية».

وقلت لبوتو:

- أريد أن أسألك إلى أى مدى يمكن عزل النزاعات المحلية عن تأثيرات القوى الأعظم»؟.

وقال بوتو:

- لديهم مفاتيح ولكنهم لن يتدخلوا من أجل غيرهم فى أى صراع ساخن ولهذا يجب أن نعتمد على أنفسنا وهذا يستلزم فهمًا عميقًا لقوانين وموازين العصر».

وعدت أسأل:

- هل توافق على الرأى الذى يقول إن هناك خمسًا من القوى الأعظم فى هذا العالم وفى هذا العصر»؟.

وقال بوتو:

- أنا أعتبرها ثلاثًا فقط... القوة يجب أن تكون مسلحة بنظرية، والنظرية يجب أن تكون مسلحة بقوة، لهذا فإن القوى الأعظم فى رأيى هى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والصين.

اليابان قوة اقتصادية ولكنها ليست فلسفة سياسية.

وأوربا الغربية قوة سياسية واقتصادية ولكنها لا تطرح على أحد شيئًا مثل «حلف نيكسون» أو «حلف بريجينيف».

واستطرد بوتو:

- هل تعرف؟ أننى أتصور أن المنطقة التى نعيش فيها من العالم... نحن وأنتم سوف تصبح أخطر مناطق الصراع لأنها منطقة متنازع عليها.

من هنا من الباكستان إلى المحيط الأطلسى منطقة هامة وخطيرة وغنية والصراع المقبل سوف يكون عليها.

علينا أن نستعد وعلينا أن نفكر.

وأمامنا قرارات مهمة لابد أن نكون مستعدين عندما تطرح نفسها علينا.

* * *

وعندما تركت الرئيس بوتو كنت أقول لنفسى:

- هو نموذج حى للذين تنتظرهم القرارات المهمة...

إن الظروف سوف تطرح عليه أسئلة بالغة الأهمية وعلينا أن ننتظر كيف يجيب عليها!

١- كيف يستطيع أن يقود تجربته الجديدة فى باكستان ويمنع الانقسامات الجديدة...

إن انفصال بنجلاديش لم يقض على باكستان وفى الحقيقة فإنهم فى باكستان كانوا يعتبرون البنغال ملحقًا إضافيًا - ولا أقول مجالاً حيويًا للاستغلال - وربما كان

الدليل على ذلك اسم باكستان نفسه فلقد أخذوا له الحروف الأولى من أسماء أقاليمهم:

ب: من إقليم بنجاب.

أ: من إقليم أفغانستان (والمقصود به إقليم الحدود مع افغانستان).

ك: من إقليم كشمير.

س: من إقليم سند.

تان: نهاية اسم إقليم نالوشستان.

وفى هذا كله لم ترد إشارة إلى حرف مأخوذ من إقليم البنغال... وبالتأكيد فإن باكستان الغربية تملك مقومات دولة تستطيع أن تعيش وحدها وأن تتقدم وتتطور والمشكلة هى مشكلة القيادة.

٢ - كيف يستطيع أن يصل إلى حل مع الهند وإلى حل مع بنجلاديش؟

استمرار الصراع مع الهند استنزاف لا نهاية له لشبه القارة كلها.

وبنجلاديش حقيقة طبيعية وسياسية وقومية لا مجال لإنكارها وعقارب الساعة لا تعود إلى الوراء.

٣ - كيف يستطيع خلال ذلك أن يحتفظ بوحدة أقاليم باكستان الغربية وخصوصًا إقليم الحدود وإقليم بالوشستان، مع العلم بأن الأحزاب السياسية فى الاقليمين تراودها على الأقل نزعات استقلال ذاتى.

٤ - ما هو دور الجيش الباكستانى فى ذلك كله وهل هو متربص فى الدهاليز كما يقول البعض أو أين هو تمامًا؟.

٥ - كيف يستطيع أن يحدد دورًا لباكستان؟.

لقد انسحب من حلف جنوب شرق آسيا لأن اشتراكه فيه لم يعد له مبرر انسلاخ البنغال الشرقية (بنجلاديش)، ولكنه مازال يحتفظ بعضويته فى الحلف المركزى.

والحلف المركزى نشيط فى الشرق الأوسط.

وأكثر من ذلك فإن باكستان بعد انسلاخ البنغال الشرقية أصبحت من دول الشرق الأوسط فعلاً.

ومعنى ذلك أننا لابد أن نتوقع لباكستان دورًا أكثر نشاطًا فى شئون الشرق الأوسط وصراعاته.

* * *

وكان فكرى كله وأنا أغادر قصر الرئاسة فى راولبندى:

- إن باكستان قضية بالغة الأهمية بالنسبة لراسمى الاستراتيجية العربية وبالذات هنا فى مصر.

تستحق اهتمامًا كبيرًا... وتحليلاً عميقًا.. ثم حركة نشيطة قادرة على الخيال، وعلى تحقيق الخيال فى نفس الوقت...

الماريشال الذى انتصر

لقد سعيت فى شبه القارة الهندية إلى لقاء ضابطين كبيرين وضعتهما الظروف وجهًا لوجه فى الحرب المحدودة والسريعة التى انفجرت فى قلب آسيا مع الأيام الأخيرة من سنة ١٩٧١.

* أولهما هو الفيلد ماريشال مانيكشو» القائد العام للقوات الهندية، وكان النصر فى تلك الحرب من نصيبه.

* وثانيهما هو «الجنرال تيكاخان» القائد العام للقوات الباكستانية، وكانت الهزيمة فى تلك الحرب من نصيبه.

والدول عادة لا تسمح للصحفيين بمناقشات مفتوحة مع قوادها العسكريين، ومن هنا فإننى أشعر بعرفان لا حدود له، لأن السيدة أنديرا غاندى رئيسة وزراء الهند اتصلت بالماريشال مانيكشو وأذنت له أن يناقشنى فيما أريد، كما أن الرئيس ذو الفقار على بوتو رئيس جمهورية الباكستان فعل نفس الشىء مع الجنرال تيكاخان.

وهكذا قابلت الاثنين:

- الماريشال مانيكشو، لمدة ثلاث ساعات، فى بيته، وسط ثكنات قيادة المدرعات الهندية خارج دلهى.

- والجنرال تيكاخان، لمدة ساعتين ونصف الساعة، فى مكتبه، بمقر القيادة العليا للجيش الباكستانى فى روالندى.

* * *

كان اللقاء مع هذين الضابطين الكبيرين تجربة حرصت عليها وظننت أنها حلقة

ضرورية فى سلسلة الحرب الحديثة وتطورها وهو موضوع حرصت على أن أتابعه مرحلة بعد مرحلة، وربما ساعدتنى على ذلك ظروف العمل الصحفى خصوصًا فى فترة من حياتى الباكرة قضيتها مراسلاً حربيًا فى ميادين قتال بعيدة وقريبة، وكانت هذه الفترة هى التى تركت معى لهفة دائمة على متابعة كل شىء يتصل بالاستراتيجية العليا للدول بما فى ذلك استخدام القوة المسلحة لتحقيق أهدافها فى ظروف متغيرة، وهكذا فإننى شاهدت وعشت عدة مراحل من تطور الحرب الحديثة، حلقات بعد حلقات من السلسلة:

١ - مرحلة الحرب لتحقيق النصر بقوة السلاح وبلا قيد أو شرط، وكانت الحرب العالمية الثانية آخر النماذج - ربما فى التاريخ - لهذا النوع من الحروب.

وقابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة فى الغرب وبينهم الجنرال أيزنهاور الذى قاد غزو الحلفاء لأوربا التى سيطرت عليها النازية، والماريشال مونتجمرى الذى اشتهر بحربه فى الصحراء ضد روميل، والماريشال آلان بروك الذى كان رئيسًا لهيئة أركان الحرب الإمبراطورية وكان مسئولاً عن الاستراتيجية البريطانية فى الحرب العالمية الثانية، والجنرال ماك آرثر الذى خاض معارك المحيط الهادى حتى خضعت اليابان وركعت.

كذلك قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة فى الشرق وبينهم الماريشالات سوكولوفسكى وروكوسوفسكى وماليونفسكى وجريتشكو.

٢ - مرحلة الحرب الساخنة فى عصر الحرب الباردة، وكانت هذه مرحلة غريبة فى قصة الحرب الحديثة بدأت معظم معاركها بغير إعلان وانتهت إلى غير نتيجة وكانت حرب كوريا من أبرز نماذجها.

وقد قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة وبينهم فى كوريا بالذات الجنرالات فان فليت وماكسويل تايلور (صاحب الكتاب النفير المختنق الذى ألقى أضواءً قوية على احتمالات الحرب المحدودة فى عصر الردع النووى) ثم الجنرال الفرنسى بوفر وكان من أبرز قواد حملة السويس سنة ١٩٥٦.

٣ - مرحلة احتمال الحرب النووية وهى مرحلة لم تجرب قط، فقد أطلت ثم توارت بعد أن تبين أن تطور وسائل نقل الأسلحة النووية يجعل للضربة الثانية قوة قتل لا تقل عن الضربة الأولى ومن ثم تحققت استحالة هذه الحرب، وتأكد معها أن الصدام المسلح المباشر بين القوى الأعظم غير مطروح على الإطلاق لأن الصراع حتى إذا بدأ بالأسلحة التقليدية فسوف ينقلب نوويًا فى أية لحظة.

وقد قابلت وتحدثت مع كثيرين من نجوم هذه المرحلة التى ظلت باستمرار فكرًا وفلسفة، وربما كان أشهر هؤلاء الجنرال الفرنسى بيير جالوا صاحب الكتاب المشهور «ميزان الرعب»!

٤ - مرحلة إمكانية الحرب المحدودة بين القوى العادية والصغرى - وبتأييد سياسى من القوى الأعظم - وهى حرب تجرى فى ظل موازين دولية ومحلية معقدة، وتتطلب اشتراطات خاصة لخوضها والنجاح فيها، وكانت الحرب الهندية الباكستانية أشهر وأقرب نماذج هذا النوع من الحروب.

ومن هنا كان حرصى فى شبه القارة الهندية هذه المرة أن أقابل نجومها.

الماريشال مانيكشو الهندى.

والجنرال تيكا خان الباكستانى.

كان تصورى، أنه إذا كانت الظروف لم تسمح لى أن أشاهد هذه المرحلة من تطور الحرب بنفسى - فلا أقل من أن أسمع التجربة كما يرويها أصحابها على الناحيتين.

* * *

كان «الماريشال مانيكشو» مفاجأة كاملة لى عندما وجدته واقفًا على باب بيته وسط ثكنات قيادة المدرعات خارج دلهى.

بشرة بيضاء مشربة بحمرة، قامة ممشوقة، ابتسامة مرحة من أول لحظة، نشوة عصفور فى عينيه، ملابسه العسكرية أنيقة بسيطة، بنطلون، قميص شمر أكمامه إلى ما فوق المرفق، عصا ماريشالية تحت إبطه.

وقال لى على الفور:

ـ لماذا تريد أن تقابل جنديًا انتهت قصته»؟.

قلت بسرعة:

ـ لأنها مرحلة فى تطور الحرب أريد أن أسمعها منه»؟.

وتأبط ذراعى بسرعة واستدرنا داخلين إلى البيت وهو يقول:

ـ تعال أولاً أقدمك إلى زوجتى ... وأحذرك منذ البداية أنها السلطة العليا فى هذا البيت».

وكانت زوجته، سيدة رقيقة جذابة، تمسك فى يدها بصينية عليها إناء قهوة ومجموعة فناجين وقالت ضاحكة:

ـ انتظر حتى أضع ما فى يدى على المائدة».

واستطردت تؤكد سلطتها العليا فى البيت:

ـ أين ستجلسان ...؟ هنا فى هذا الركن ... هذا أفضل».

وتطلعت إلى عصا الماريشالية يسحبها من تحت إبطه ويمسكها بيديه بعد أن جلس، ثم تطلعت إلى علامة الرتبة العالية على كتفيه وقلت له:

ـ ماريشال مانيكشو ... أظنك أول قائد عسكرى فى العالم النامى كله يحصل على رتبة «فيلد ماريشال» فى ميدان قتال وبعد معركة كان له فيها النصر ... ربما كان هناك ماريشالات كثيرون غيرك، ولكن رتبهم سياسية وهذه كارثة من كوارث العالم النامى خصوصًا عندما يقرر هؤلاء الماريشالات السياسيون أن يقودوا جيوش بلادهم فى العمليات فعلاً ... إذا كانت الرتب العسكرية لهؤلاء لمجرد الزينة أو لإضفاء جو المهابة عليهم فلست أمانع ... لكن المشكلة تنشأ حينما يصدق هؤلاء ما تقول به علامات الرتب بغض النظر عما تقول به الحقيقة»؟.

وقال الماريشال مانيكشو بمرح، ونشوة العصفور فى عينيه مرة أخرى:

ـ ومع ذلك تصور أن المقادير فرضت علىّ أن أتلقى أوامرى من امرأتين:

زوجتى فى البيت ...

ورئيسة الوزراء فى المكتب.

اثنتان فقط لهما سلطة إصدار الأوامر لى فى الهند.

زوجتى عمليًا.

ورئيسة الوزراء دستوريًا.

امرأتان فى النهاية تأمران ... وفيلد ماريشال يطيع».

ورحنا نضحك جميعًا، وكل منا يمد يده ليأخذ فنجان قهوته فى جو شديد الألفة من أول لحظة.

وبدأ يتحدث عن مصر وسألته:

ـ هل زرتها»؟.

قال:

ـ بعد انتهاء الحرب مررت بمطار القاهرة ذاهبًا إلى لندن لألقى عدة محاضرات ... قضيت فى مطار القاهرة ساعتين ...

والدى عرف مصر أكثر ... خدم مع القوات البريطانية فى الحرب العالمية الأولى طبيبًا فى الجيش البريطانى ... قضى فى مصر خمس سنوات ما بين سنة ١٩١٤ و١٩١٩ ... كان ذلك قبل زمانى وزمانك.

لكنى عرفت بعض «أولادكم» جاءوا إلينا يدرسون فى كلية الدفاع الهندى وكنت قائدًا لهذه الكلية ... كان بعض «أولادكم» أيضًا يدرسون فى كلية أركان الحرب».

قلت:

ـ فيلد ماريشال ... دعنا نترك الماضى والذكريات ... إننى مهتم بحربك فى شبه القارة الهندية ... حدثنى عنها»؟.

وقال الجنرال مانيكشو:

ـ كانت الحرب قصيرة ودامية... سريعة وحاسمة».

قلت:

ـ أريد أن أعرف ما هو أكثر من هذه الأوصاف... الحرب التى خضتها أنت حرب مهمة لأكثر من سبب:

لقد جرت فى ظل موازين القوى النووية.

وجرت فى ظل سياسة الوفاق بين القوتين الأعظم.

وجرت بين قوتين متوسطتين فى العالم النامى.

وكانت حربًا محدودة وصلت إلى نتيجة سياسية محددة.

عندما أقول محدودة فلست أعنى أنها كانت نصف حرب... أو أنها كانت فى نصف ميدان، ذلك شىء لا تعرفه الحروب إطلاقًا فى أى عصر وفى أى ظرف... وعندما يبدأ استعمال القوة المسلحة فإن الأطراف يستخدمونها إلى آخر ما يملكون منها وفى أى مكان.

الحرب المحدودة بالمعنى الذى أعنيه حرب تستهدف تغيير أوضاع سياسية قائمة وخلق أوضاع أخرى بدلاً منها ملائمة.

أقصد أنها ليست بالمعنى القديم محاولة لفرض إرادة طرف فرضًا مطلقًا وبلا قيد أو شرط على طرف آخر... مثل ذلك صعب فى العصر الحديث وأحكامه وموازينه.

ما أقصده هو بالضبط ما قلته: كسر وضع قائم وخلق وضع ملائم، لا أريد أن أطيل فى السؤال وإنما أردت أن أضع أمامك ما أتصور لكى يكون سؤالى واضحًا».

وقال الماريشال مانيكشو:

ـ واضح ما تقول... وسوف أجيب عليك».

واستطرد يقول:

ـ نحن نعيش فى ظل توازن دولى معين لا نستطيع أن ننساه لأنه يؤثر فى حركتنا.

والقوى الأعظم مهتمة بما يجرى على أرضنا سواء سمحنا لها بذلك أو لم نسمح... هذه أوضاع العالم المعاصر.

لكن ذلك لا ينبغى له أن يشل قدراتنا وإنما هو يفرض علينا حسابات أدق.

وبالنسبة لى شخصيًا كان أهم شىء هو وضوح التوجيه الصادر إلىّ من قيادتى السياسية، وأعترف لك أننى كقائد عسكرى كنت سعيد الحظ لأن رئيسة الوزراء كانت شديدة الوضوح فى توجيهاتها الصادرة إلىّ.

لقد حددت لى كتابة طلباتها منى...

قالت لى فى توجيهاتها فى بداية سنة ١٩٧١ ما يلى:

١ ـ إن هناك موقفًا ينشأ فى البنغال لا تستطيع الهند أن تتحمله طويلاً وسبب هذا الموقف هو تدفق اللاجئين بالملايين من شرق البنغال ـ بنجلاديش ـ إلى غرب البنغال فى الهند.

٢ ـ إن الهند تستطيع تحمل هذا الموقف وأعبائه الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لمدة تتراوح ما بين عشرة شهور إلى سنة، ولكن هذا الموقف إذا طال أكثر من ذلك فسوف يكسر ظهر الهند.

٣ ـ على أن أكون فى هذه الفترة مستعدًا لعمل مسلح هدفه بالتحديد هو فتح باب العودة أمام هؤلاء اللاجئين ليعودوا إلى أرضهم التى طردوا منها، أو هربوا منها بسبب الإرهاب.

٤ ـ فى هذه الفترة فإن حكومة الهند سوف تفعل قصارى جهدها لإيجاد مخرج سلمى من هذا الموقف الصعب وفى هذا السبيل فإنها سوف لا تكف عن شرح سياستها للقوى الكبرى وللرأى العام العالمى، كما أنها ستظل على اتصال نشيط بالأطراف المباشرين فى هذا الموقف.

٥ ـ إذا لم تنجح هذه المساعى كلها فإن الأمر سوف يصدر إلىّ بالعمل، وبسبب الأوضاع الدولية فإن الفرصة التى سوف تكون متاحة لى هى فترة تتراوح ما بين ثلاثة أسابيع إلى أربعة أسابيع، وبالتالى فإن علىّ أثناء إعداد خططى أن أراعى تحقيق الهدف فى إطار هذه المدة».

* * *

واستطرد الماريشال مانيكشو: «على هذا النحو، وبهذه التوجيهات، كانت كل الأمور واضحة.

التوجيهات صدرت إلىّ من قيادة سياسية تمثل إرادة شعب الهند.

وهذه القيادة حددت لى طلبها منى بدقة كاملة.

وما طلبته من احتياجات يجرى توفيره فى حدود إمكانيات الهند.

وحكومتى مسئولة بعملها السياسى عن التعامل مع حركة التوازنات الدولية.

ثم إن هذه الحكومة مسئولة أيضًا عن خلق الظروف المواتية للمهمة التى كلفتنى بها.

بهذا الشكل أصبح دورى محددًا فى ثلاث نقط:

ـ كان علىّ أن أضع خططى.

ـ وكان علىّ أن أقرر احتياجاتى.

ـ وكان علىّ أن أعد قواتى نفسيًا وعسكريًا لتنفيذ ما كلفنا جميعًا به.

وليست هذه كلها أمورًا صعبة، ولقد ساعدنى إلى أقصى مدى أننى كنت أعرف الإجابة على سؤالين لابد أن يعرفهما أى قائد عسكرى:

ـ النقطة الأولى: طبيعة الأرض التى تدور عليها الحرب.

ـ النقطة الثانية: طبيعة الخصم الذى تدور ضده الحرب».

واستطرد الماريشال مانيكشو: «طبيعة الأرض كنت أعرفها.

إننى كنت قائدًا للجيش الشرقى لمدة ٤ سنوات وذلك قبل أن أتولى منصب القائد العام للجيش الهندى.

حينما كنت قائدًا للجيش الشرقى لم يكن لى عمل إلا قراءة الخرائط، ولم أكن أكف عن التفكير فى احتمالات ما يمكن أن يحدث لو نشبت الحرب بيننا وبين باكستان، وأحيانًا كنت أغمض عينى وأتذكر حتى فى الظلام كل خريطة باكستان الشرقية... السهول والأنهار والمدن... كانت الصورة ماثلة فى ذهنى طول الوقت وبكل التفاصيل.

من هنا كان سهلاً علىّ أن أتصور الخطة وأتصورها على الأرض فعلاً.

أما عن الخصم فلعلك لم تنس أننا كنا، نحن وجيش الباكستان، جيشًا واحدًا.

أنا شخصيًا كنت أنتمى إلى لواء موجود الآن فى باكستان وعندما وقع تقسيم الهند فقد تفرقنا... بعضنا جاء إلى هنا وبعضنا الآخر ذهب إلى هناك.

كان يحيى خان (رئيس باكستان وقت الحرب) يعمل تحت رئاستى سنة ١٩٤٥... كنت أنا كولونيل (عقيد) وكان هو ماجور (رائد).

وربما كانت معرفتى الشخصية بيحيى خان هى التى جعلتنى واثقًا من أنه سوف يعطينى الفرصة التى أنتظرها.

وتوقف الماريشال مانيكشو عن الحديث لحظة ثم ابتسم وهو يقول:

ـ هذه مسألة أخرى!».

وقلت:

ـ لماذا توقفت عن الحديث»؟.

وقال الماريشال مانيكشو:

ـ لم أتوقف عن الحديث ولكنى لم أكن أريد أن أقفز فوق سياقه المنطقى.

إننى أعتقد أن يحيى خان بغبائه الشديد أعطانى الفرصة التى كان من الصعب علىّ أن أتصرف بغيرها.

سوف أقول لك كيف...

فى الفترة من بداية سنة ١٩٧١ إلى نهاية شهر نوفمبر ١٩٧١ كان كل شىء قد وصل إلى مكانه.

الشعب لدينا معبأ بالكامل خلف قيادته.

القيادة السياسية للهند أدارت علاقاتها جيدًا بين خطوط التوازن الدولى.

هذه القيادة أيضًا شرحت موقفنا للقوى المتعددة وللرأى العالمى الذى أصبح يتفهم موقفنا بوضوح خصوصًا بعد ما ظهرت أبعاد المذبحة فى بنجلاديش.

خططى كلها معدة، وما طلبته لها تم توفيره.

قواتى تعرف تمامًا ما هو مطلوب منها.

كل ذلك تحقق وفى نفس الوقت فإن المهلة المعطاة لى كى أتصرف قد أوشكت أن تنتهى...

... فى نوفمبر ١٩٧١ كان قد مضى على التوجيهات السياسية الصادرة إلىّ فى بداية السنة ما يقرب من تسعة شهور أو عشرة.

تتذكر أننى قلت لك إن توجيهات رئيسة الوزراء كانت بأن الهند تستطيع تحمل عبء الموقف الناشئ من تدفق اللاجئين إليها ما بين عشرة شهور إلى سنة واحدة.

حسنًا... الشهور العشرة كانت على وشك أن تنتهى.

ماذا سنفعل؟

ما هى النقطة التى سوف نتدخل عسكريًا عندها؟

كان هذا سؤالاً هامًا فى أذهاننا جميعًا.

كنا نناقشه فى اجتماعاتنا مع القيادة السياسية ومع هيئة أركان الحرب.

وقلت لهم ذات مرة:

- اطمئنوا... لا تشغلوا أنفسكم بذلك... إن يحيى خان سوف يعطينا ما نطلب دون أن يدرى.

هو كذلك كما عرفته شديد الغباء...

وفى أى لحظة فإنه سوف يرتكب تصرفًا ظاهر الحمق ولحظتها نتصرف».

واستطرد الماريشال مانيكشو:

- فى اشتراطات الحرب الحديثة وفى ظروف الموازين القائمة فإنه من أهم العناصر التى تخدم أى طرف فى وضع خطته موضع التنفيذ - أن يترك خصمه يرتكب أول خطأ فاضح أمام العالم.

دعه يتورط ... دعه يتهور... دعه يقع فى الحماقة كلها وهذا سيعطيك العذر لأن تضرب بقسوة.

حماقته سوف تبرر قسوتك... وربما تغفرها أيضًا».

وضحك الماريشال مانيكشو من قلبه ورقصت فى عينيه مرة أخرى نشوة العصفور وقال:

- ارتكب يحيى خان حماقته التى كنت أنتظرها.

لم أكن أعرف ما سيفعل بالضبط ولكنى كنت واثقًا أنه لن يمسك أعصابه... وهكذا فعل مساء ٣ ديسمبر ١٩٧١ حين أمر بشن هجوم على مواقعنا فى الغرب بالطيران.

كانت الساعة السادسة إلا ربعًا فى المساء حين أغارت طائراته بأمر منه على مواقعنا فى الغرب.

كان يتصور أنّه بذلك يخفف الضغط عن قواته فى الشرق.

كانت قواته فى الشرق معرضة لضربات الثورة فى بنجلاديش وكانت حشود قواتنا فى الشرق تضغط بمجرد وجودها هناك وكان ضغطها محسوسًا.

وحينما تلقيت أنباء الضربة الجوية وكانت شيئًا قدرنا احتمال وقوعه وأخذنا احتياطنا له فإننى اتصلت بمكتب رئيسة الوزراء ولكنها كانت تتحدث فى هذه اللحظة فى اجتماع شعبى فى كلكتا.

وزير الدفاع كان فى مهمة فى الخارج... وزير الخارجية أيضًا.

كنت على هذا النحو مسئولاً عن لجنة الدفاع وقائدًا عامًا ولهذا اتخذت بعض القرارات السريعة حتى اتصلت بى رئيسة الوزراء فأخذت موافقتها على ما اتخذت من قرارات فى إطار خطتنا وتلقيت إشارتها بالانطلاق».

* * *

وطلب الماريشال مانيكشو من زوجته مزيدًا من القهوة لنا ثم استطرد:

ـ كنت أدرك أنها ستكون معركة دامية ولكننا سوف نحقق هدفنا.

سوف تكون معركة دامية لأنى أعرف الجنود الباكستانيين.

مقاتلون شجعان بغير جدال وفى المعارك فإنهم سوف يكونون فى منتهى الشراسة.

لكنى كنت واثقًا أن الحرب سوف تنتهى لصالحنا لأنى كنت أعرف القيادة الباكستانية.

الشجاعة فى المعارك شىء.

ونتيجة الحرب شىء آخر.

إذا كانت الشجاعة فى المعارك تتصل بشراسة الرجال فإن نتيجة الحرب تتصل بالفكر السياسى والعسكرى الذى يقود.

كان الفكر السياسى العسكرى الباكستانى مرتبكًا.

ونتيجة ذلك أن اقتناع القوات بما هو مطلوب منها كهدف كان مهتزًا.

كانت السيطرة ضعيفة وخطوطها واهية.

والسيطرة لا تجىء من لغة الأوامر ولكن تجىء من سلامة هذه الأوامر نفسها وصدورها عن قيادة مقتنعة وقادرة على الاقناع».

وعادت الابتسامة عريضة إلى وجه الماريشال مانيكشو وهو يقول:

ـ كانت خططنا جيدة.

وكانت توقيتاتنا مضبوطة.

ولم يكن يهمنى أن تكون حربنا فى عناوين الصفحات الأولى من الجرائد.

لو كان ذلك يهمنى لحاولت دخول المدن الكبرى فى طريقنا.

ولكننى حرصت على أن أتفادى دخول المدن تمامًا.

المدن مغرية لأن سقوطها يصنع دويًا إعلاميًا.

ولكن المدن قادرة على ابتلاع الجيوش... وعلى أكل الجنود.

إذا دخلت مدينة كبيرة فقد ضيعت فرقة لتأمينها.

وإذا دخل جنودى المدينة فإن مغرياتها سوف تناديهم إلى البقاء فى راحتها وهذا خطر.

المدن سهلة... تستسلم بسرعة وتملأ عناوين الصحف.

لكنى تفاديتها تمامًا فى خطتى».

* * *

وقلت للماريشال مانيكشو:

ـ أريد أن أسألك بصراحة... هل استفدت من تجربة حرب الأيام الستة فى الشرق الأوسط... هناك كثيرون من النقاد العسكريين يرون أنكم استفدتم كثيرًا منها».

وقال الماريشال باستقامة واضحة:

- بالتأكيد درستها ... إن الجندى الذى لا يدرس ولا يستفيد من دروس حروب أخرى فى التاريخ أو فى زمانه لا يستحق أن يكون جنديًا.

درستها... ودرست حرب الأيام الستة باهتمام يشبه اهتمام الطبيب الجراح الذى يسمع عن عملية جراحية جديدة ويريد أن يعرف كيف جرت».

قلت:

- ماريشال مانيكشو... سوف أسألك سؤالاً أكثر صراحة...

ما هو فى رأيك الخطأ الذى وقعنا فيه»؟.

وقال الماريشال:

- لقد قرأت لك بعض مقالاتك... وأشعر أنك تعرف.

ومع ذلك ولكى لا تتصور أننى أتهرب من الرد عليك فسوف أقول لك عن خطأ أحسست به فى دراستى لحرب الأيام الستة.

الخطأ أنكم لم تحتفظوا بأعصابكم حتى بعد أن جاءت ضربة الطيران مفاجئة لكم.

الأعصاب التى كانت تقود المعارك عندكم اهتزت بسرعة.

هناك درس يجب أن نتعلمه فى الحرب دائمًا.

إنك قد ترى المسائل تسير فى اتجاه خاطىء بالنسبة لك... ولكن لا تفقد أعصابك... تأكد أن هناك أخطاء أخرى فظيعة لدى عدوك.

إذا وجدت نفسك فى وضع حرج فليس معنى ذلك أن عدوك فى وضع آمن.

عندما كنت أسمع عن بعض الأخبار السيئة من الجبهة أثناء حربنا، كنت أقول لنفسى:

- ليكن... إنها أسوأ على الجانب الآخر.

كان من الخطأ أن تتصوروا أنكم هزمتم لأن القوات الإسرائيلية تقدمت بسرعة فى أول يوم.

تقدمهم السريع كان يمكن أن يكون مصدر خطر كبير عليهم لو أن قيادة المعركة عندكم لم تفقد أعصابها.

كان يجب أن توجهوا إليهم الضربة المضادة عندما امتدت خطوطهم بسرعة مع تقدمهم السريع... بدلاً من ذلك فإن قوادكم فقدوا الثقة فى أنفسهم.

لماذا... ؟!

كان ذلك خطأ فى رأيى.

أؤكد لك أن الإسرائيليين كانوا فى دهشة للطريقة التى تصورت بها قيادتكم العسكرية فى وقت مبكر من المعركة أنها خسرتها.

كان فى استطاعتكم أن تضعوهم فى مأزق حقيقى لو أن أعصابكم بقيت متماسكة».

* * *

وسكت الماريشال مانيكشو ثم قال وهو يبتسم:

- لنترك حرب الأيام الستة لا داعى لأن نتحدث طويلاً فيها... دعنا نعد إلى شبه القارة الهندية.

كانت الحرب كما قلت لك دامية سريعة وحاسمة.

فى اثنى عشر يومًا كان كل شىء قد انتهى.

وأدرك الجنرال نيازى المسكين (القائد المحلى فى بنجلاديش) أن عليه أن يستسلم للقوات الهندية وإلا فإنه سوف يذبح إذا وقع فى يد المقاومة الشعبية فى بنجلاديش».

قلت:

- هل قابلت الجنرال نيازى»؟.

قال:

- لقد حرصت على ألا أقابله، تركت الجنرال جاكسون يقابله... إننى أمليت شروط الاستسلام وقلت لجاكسون اطبعها من ٥ نسخ واحصل على توقيع نيازى عليها.

وقد فهمت أن الجنرال نيازى أحس بالراحة لأن الكابوس كله انتهى بالنسبة له.. مسكين نيازى لم يكن لديه التكوين العسكرى أو المزايا التى تؤهله ليكون قائدًا لقوات بهذا الحجم الذى وضع تحت إمرته.

أنا لا أعرفه جيدًا... بعض معاونى يعرفونه، ولكنى درست شخصيته... إن أى قائد عسكرى يجب أن يدرس نوعية قيادات الطرف الآخر... وكان نيازى من كل ما عرفت عنه «رجلاً طيبًا» ولكنى لا أحب ذلك الوصف... «الرجل الطيب» لا يصلح لأن يكون قائدًا عسكريًا ممتازًا.

عندما يقولون لى عن إنسان أنه «رجل طيب» فأنا أقول: إذن فسوف أقابله فى حفل كوكتيل ولكنى لا أستطيع أن أحارب معه.

لا بأس «برجل طيب» معى فى رحلة بسيارة... ولكنى بالتأكيد لا أريد «رجلاً طيبًا» معى فى نفس الدبابة».

* * *

وتطرق الحديث إلى موضوعات شتى.

شبه القارة الهندية وعلاقات القوى فيه، وتأثره وتأثيره بما يجرى فى آسيا كلها، دور الصين واليابان والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بالقرب من الهند ومن حولها، موازين العالم المتحركة والمتغيرة والقوانين الجديدة للصراع الدولى.

وعند نقطة من الحديث سألت الماريشال مانيكشو:

- إن الاتحاد السوفيتى بالقرب منكم دولة نووية، والصين أصبحت هى الأخرى دولة نووية، وليس هناك من يستطيع أن يمنع اليابان من صنع «القنبلة» فى أى وقت تشاء... والهند أين هى فى هذا السياق؟

وقال الماريشال مانيكشو:

- إن الهند لديها الإمكانيات لكى تصبح دولة نووية... لدينا العلماء والمواد الخام، وعندنا الموارد ولكن السؤال هو:

- ماذا سنستفيد من ذلك؟

كما ترى فإن التخلف شديد فى بلادنا والفقر رازح.

وإذا حاولنا إنتاج القنبلة الذرية فإن الثمن الذى سندفعه سوف يكون فادحًا.

قد يبدو لك هذا الكلام غريبًا من رجل عسكرى خصوصًا إذا تذكرت أننا نحن العسكريين مغرمون دائمًا بالأسلحة المتطورة نفس غرام الأطفال باللعب الجديدة.

ولكنى أقول لك بأمانة إنه إذا سألتنى رئيسة وزرائى يومًا وقالت لى:

- هل تريد قنبلة ذرية؟

فإننى سأقول لها:

- سيدتى... هل تستطيع الهند أن تتحمل نفقات إنتاج هذه القنبلة الملعونة؟... وماذا سيحدث لفئات الشعب؟... شكرًا لك يا سيدتى ولكنها لن تنفعنا فى شىء...

ربما تزيد هيبتنا ولكنها لن تحل مشاكلنا لأنه يصعب علىّ أن أرى ظروفًا يصبح فيها استخدام القنبلة الذرية ممكنًا.

الصين لديها «القنبلة».

وإذا صنعناها نحن فإن باكستان سوف تستميت لكى تكون لديها هى الأخرى «قنبلة».

وما هى النتيجة؟.

سلاح لن يستعمل قط.

* * *

قلت للماريشال مانيكشو:

-إن هذا سوف يجرنا إلى نقطة هامة... الحرب فى العصر الحديث... كيف تجرى وما هى ضوابطها»؟.

وقال الماريشال مانيكشو:

-نستبعد أولاً الحرب بين الدول الأعظم... إننى لا أتوقع حدوث مواجهات عسكرية بينها... لا مواجهات شاملة ولا مواجهات محدودة ... المواجهة العسكرية الشاملة مستحيلة... والمواجهة المحدودة لا يمكن أن تبقى محدودة بل إن الجحيم سوف يتفجر من أول لحظة.

حتى بين الاتحاد السوفيتى والصين لا أتصور حدوث مواجهة عسكرية.

الصين لن تهاجم لأنها لن تعبر حدودها...

والسؤال هو: هل تقدم روسيا على مهاجمة الصين؟

رأيى أن ذلك أيضًا صعب... على الأقل أشك فى أن الروس يمكن أن يقبلوا مغامرة خطيرة على هذا النحو.

نأتى إلى الدول المتوسطة والصغرى...

هذه الدول لا تملك إلا الأسلحة التقليدية.

وما لديها من هذه الأسلحة مرتبط بعطاء الدول الكبرى مهما كان شكل هذا العطاء.. معونات... عقود توريد أى شىء.

الدول المتوسطة والصغرى سوف تحدث فيما بينها مواجهات عسكرية لأن

الأوضاع والموازين بينها لم تستقر بعد، ثم إن هناك دواعى للاحتكاك متعددة ومتنوعة.

وإذا أرادت الدول المتوسطة والصغرى أن تقاتل فإنها تستطيع ولكن عليها أن تؤمن مجموعة من العوامل:

عليها أن تتأكد من حركة الميزان الدولى لصالحها عمومًا.

وعليها أن تتأكد أن وجهة نظرها واضحة للعالم تعطيها المبرر للحركة وتضمن لها تأييد أصدقائها.

ثم إن عليها أن تتأكد مما لديها فعلاً من الأسلحة ومن مخزن الذخائر.

-وعليها أن تكون مستعدة بصناعاتها الحربية تعطيها أقصى ما يمكن لها الحصول عليه داخل حدودها... لأن إمدادها وقت الحرب سوف يكون صعبًا إزاء تعرض الموانى والمطارات والسكك الحديدية وإلا فإن هذه الدول سوف تكتشف فى لحظة أنه ليس فى يدها غير القوس والسهم.

هنا مسألة أخرى يجب ألا ننساها.

إن الدول العظمى سوف تمد الدول المتوسطة والصغرى بالأسلحة قبل الحرب، وسوف تؤيدها بالبيانات أثناء الحرب، ولكنها من أول لحظة فى نشوب القتال سوف تسعى إلى إيقافه بالتعاون مع القوى العظمى الأخرى، وهذا يفرض على من يريد أن يخوض من القوى المتوسطة والصغرى حربًا - أن يجعلها حربًا محدودة ليس فقط فى هدفها ولكن أيضًا فى مدتها.

لابد أن يكون هناك نوع من التوقيت تضعه مثل هذه الدول أمامها وتقرر فى إطاره، ومقدمًا أنها قادرة على تحقيق أهدافها.

إن تجربة حرب فيتنام ونهايتها كما رأيناها تثبت أمامنا أن أيًا من الدول العظمى لن تقدم بعد الآن على إرسال قوات مسلحة لها خارج حدودها.

وعلى أى حال فإننا جميعًا يجب أن نتابع بيقظة دور القوى الاعظم فى صراعاتنا خصوصًا عندما تصل إلى حد حمل السلاح».

واستطرد الماريشال مانيكشو:

ـ إننى أصل إلى ما هو أبعد... فى سنوات قلائل فإن الحرب المحدودة نفسها سوف تصبح صعبة.

أنا أقول إنه من الناحية النظرية فإن هذه الحرب صعبة من الآن فعلاً...

ولكن هناك قضايا معلقة، وسوف يصبح فيها استعمال القوة ضروريًا.

ثم إن الأمور تتوقف باستمرار على الرجل الذى يتخذ القرار».

وقلت للماريشال مانيكشو باسمًا:

ـ لماذا تقول «الرجل» الذى يتخذ القرار»؟.

وضحك من قلبه وهو يقول:

ـ لك الحق... ألم أقل لك من بداية لقائنا إننى أتلقى أوامرى من امرأتين زوجتى فى البيت... ورئيسة الوزراء فى المكتب»؟!.

.... والجنرال الذى انهزم

لقد حرصت على لقاء القائدين اللذين وضعتهما الظروف وجهًا لوجه فى حرب شبه القارة الهندية لأسباب عديدة، آخرها وليس أولها هو تقصى حكاية تلك الحرب ووقائعها. أما أولها فهو دراسة نموذج عملى فى الحرب المحدودة، جرى فى ظل الظروف العالمية المتغيرة وموازينها الجديدة.

كان من ذلك سعيى فى دلهى لمقابلة الماريشال مانيكشو القائد الهندى الذى كان النصر فى تلك الحرب من نصيبه (وقد قدمت حديثى معه فى الأسبوع الماضى...).

... وكان من ذلك سعيى فى روالبندى لمقابلة الجنرال تيكاخان القائد الباكستانى الذى كانت الهزيمة فى تلك الحرب من نصيبه (ولقائى معه هو موضوع هذا الحديث).

وربما كان الافتراض الذى يقفز إلى الذهن من أول لحظة، هو أن حكاية الجنرال تيكا خان تكرار عكسى لحكاية الماريشال مانيكشو!

أى أن صورة الهزيمة الباكستانية هى الجانب الآخر من صورة النصر الهندى.

أو أن ما فعله الماريشال مانيكشو وانتصر به، هو ما لم يفعله الجنرال تيكا خان وانهزم بسببه.

ولكن ذلك الافتراض الذى يقفز إلى الذهن من أول لحظة، يحوى تبسيطًا زائدًا عن الحد... وربما مخلاً.

ذلك أن أسباب هزيمة أى طرف ليست هى بالضرورة أسباب انتصار طرف ثان، كما أن حجم الخسائر التى تلحق بفريق ليست هى بالضبط حجم الغنائم التى يحصل عليها فريق آخر!

ومضى هو يقول:

ـ لقد ألصقوا بى ذلك كله وأكثر منه...».

وقلت:

ـ جنرال تيكا خان... دعنى أقل لك إن التاريخ مخرج عبقرى... يوزع أدوار مآسيه على الناس، بصرف النظر عن طبعائهم.

فى أحيان كثيرة لا تكون هناك علاقة بين الدور وبين من يمثله.

أعرف فنانين تخصصوا فى أدوار الملائكة وليس فى قلوبهم شعاع نور، وأعرف فنانين تخصصوا فى أدوار الشر، وطبائعهم أبعد ما تكون عنه.

التاريخ مخرج عبقرى فى توزيعه للأدوار على الممثلين.

وتطلع إلىّ الجنرال تيكا خان لا يعرف على أى نحو يكيف ما قلت. وأخرجه من حيرته على أى حال طابور من حراس القيادة من جنود البنجاب بملابسهم التقليدية المهيبة، دخلوا إلى الغرفة ليقدموا القهوة والشاى مع قطع من البسكويت الإنجليزى...

* * *

قال الجنرال تيكا خان:

ـ إننى أعرف ما تريد أن تسألنى فيه... إن الرئيس بوتو اتصل بى أمس تليفونيًا، وطلب إلىّ أن أروى لك كل شىء كما رأيته، ولهذا فإننى سوف أوفر عليك الأسئلة، وأروى لك القصة كما عشتها، وبعدها تستطيع أن تسألنى فى أى تفصيل».

واستطرد تيكا خان وهو ينظر إلى ساعته:

ـ ليس لدينا فيما أرى وقت طويل... الساعة الآن الثامنة والنصف، ولديك موعد مع الرئيس بوتو فى الحادية عشرة فى القصر الجمهورى، وهو على بعد خمس دقائق بالسيارة من هنا، ولكنى أريدك فى النهاية أن تذهب معى إلى قاعة السينما

لكى ترى فيلمًا تسجيليًا التقطناه لوقائع الحرب فى بنجلاديش... إن الفيلم طويل، ولكنك تستطيع أن تحس بما فيه من ربع الساعة الأول فقط... ربع ساعة فى قاعة السينما فقط قبل أن تذهب لموعدك مع الرئيس...

الوقت المتاح لنا إذن لا يزيد على ساعتين، وعلىّ أن أقول لك فيه كل شىء وأترك لك فى النهاية فرصة لتستوفى ما تشاء...».

وراح الجنرال تيكا خان يتحدث... ويتحدث... ويتحدث.

وكنت أسمع... وأسمع... وأسمع.

لم أتدخل فى سياق حديثه على الإطلاق إلا مرتين أو ثلاثًا بأسئلة سريعة، قصدت بها استجلاء نقط محددة، أتأكد بواسطتها من استنتاج أحسست به مبهمًا فى بداية الحديث، وعند نهايته كان هذا الاستنتاج قد بلغ حد اليقين.

* * *

كان الاستنتاج الذى أحسست به مبهمًا فى بداية الحديث، وبلغ حد اليقين فى نهايته هو: أن الجنرال تيكا خان، سواء أدرك ذلك أو لم يدركه، وضع فى ظرف تقطعت كل صلة بينه وبين إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث...

أحسست بذلك فى بدايات الحديث.

... وبينما كان الجنرال تيكا خان يتحدث ويتحدث ويتحدث، وبينما كنت أسمع وأسمع وأسمع ـ كانت مقاييس إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث ترد إلى ذهنى واحدًا بعد الآخر، وكان كل تفصيل فى رواية الجنرال يجىء فى مكانه وينسجم فيه بسرعة كما لو أن حديثه كله كان تدريبًا عمليًا فى الأخطاء السياسية القاتلة.

ولعله من هنا أننى أختار أسلوبًا يبدو مستحدثًا فى عرض رواية الجنرال تيكا خان:

ذلك أننى سوف أثبت بعض القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى

العصر الحديث، ثم أضع بعدها أقوال الجنرال تيكا خان، **فيما جرت به التصرفات الفعلية على أرض الأزمة والصراع والقتال المسلح فى بنجلاديش، ثم أضغط خفيفًا** على التناقض بين ما كان فعلا، وبين ما كان يجب أن يكون، لو أن قواعد إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث روعيت، أو حتى وضعت فى الاعتبار!

أولاً:

*** تقول أهم قواعد إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث، إن أول شىء يجب أن نفعله هو أن نحسن تعريف وتحديد أى مشكلة أو أزمة يكون علينا مواجهتها.

إن التعميم فى مواجهة المشاكل والأزمات خطأ وخطر.

والإبهام فى مواجهة المشاكل والأزمات خطأ وخطر.

إن بعضنا يتصور بمجرد انطباعاته العامة أنه يعرف المشكلة أو الأزمة التى يواجهها، ولكن الانطباعات العامة شىء، والتعريف والتحديد بمنتهى الدقة شىء آخر، وكثيرًا ما يعطى التعريف والتحديد بمنتهى الدقة نتائج تختلف اختلافًا كبيرًا وفادحًا عما توحى به الانطباعات العامة التى تدور فى رأس أى واحد منها.

إن التعريف والتحديد بمنتهى الدقة يجب أن يكون عملاً علميًا خالصًا، يستوعب أصول وجذور المشكلة أو الأزمة التى نواجهها، ويرصد حركتها الراهنة، ويمد بصره إلى اتجاهاتها المستقبلية، على ألا ينسى طوال الوقت تفاصيل الوقائع أو المزاج النفسى لأبطالها.

....

....

- يقول الجنرال تيكا خان:

- يوم ٦ مارس سنة ١٩٧١ استدعانى الجنرال يحيى خان رئيس الدولة فى ذ
الوقت وأبلغنى قراره بتعيينى حاكمًا عامًا للباكستان الشرقية - بنجلاديش فيما بع
وتعيينى قائدًا عسكريًا للقوات الباكستانية بها فى نفس الوقت.

ويوم ٧ مارس وصلت إلى داكا، عاصمة الإقليم الشرقى.

كان وصولى فى نفس اليوم الذى أعلن فيه الشيخ مجيب الرحمن زعيم حز
عوامى ليج - عصبة الجماهير - الإضراب الشامل فى كل أنحاء باكستان الشرقية.

وفوجئت عندما وجدت كل شىء معطلاً، من مكاتب الحكومة إلى دور المحاكم.

كان الشيخ مجيب قد عقد عدة اجتماعات شعبية، وأصدر فيها قرارات تشك
كلها عصيانًا للسلطة وتمردًا عليها.

إلى جانب أمره بالإضراب الشامل، فإنه أصدر أمرين آخرين، أولهما بعد
التعاون معنا على الإطلاق، والثانى برفع الأعلام السوداء.

وكان ذلك غريبًا.

وفى مساء ٧ مارس استدعيت السكرتير الأول للحكومة المحلية واستدعي
أيضًا مفتش البوليس وأبلغتهما بدعوة الشيخ مجيب الرحمن إلى مقابلتى فى بي
الحاكم العام، وأبلغاه الدعوة، ولكنه رفض، لأنه لا يريد أن يذهب إلى بيت الحاك
العام، وقلت لهما:

- أبلغاه أننى لم أتول بعد منصب الحاكم العام، لأننى لم أقسم اليمين أمام قاضى
القضاة، وبالتالى فإن بيتى ليس بعد بيت الحاكم العام، ولكنه بيت الدول
الباكستانية.

ولكن الشيخ مجيب رد برفض المجىء إلى بيت الحاكم العام، واقترح بدلاً من ذلك
أن أذهب إليه فى بيته إذا كنت أريد أن ألقاه، وكان تبريره لذلك أنه زعيم الشعب
المنتخب.

وقلت لهما أبلغا «مجيب» أن بيته صغير لا يتسع لاجتماع كبير وأنا مستعد على أى حال بدلاً من بيتى أو بيته، أن أجتمع به فى مقر الجمعية الوطنية.

ومرة أخرى رفض الشيخ مجيب، وأصر على موقفه.

كان متعنتًا بشكل غريب.

وصرفت النظر عن لقائه، وطلبت من السكرتير الأول للحكومة ترتيب إجراءات أدائى لليمين كحاكم عام لباكستان الشرقية، وكان ذهولى شديدًا عندما جاءنى السكرتير الأول للحكومة يقول:

- إن قاضى القضاة لا يستطيع حضور مراسم أداء اليمين، لأنه مضطر إلى التقيد بالإضراب العام الذى دعا إليه الشيخ مجيب... وربما كان خائفًا على حياته؟

كيف يمتد الإضراب إلى قاضى القضاة؟... هكذا لم أستطع أن أؤدى اليمين؟... هكذا لم أستطع أن أتولى قانونيًا سلطات الحاكم العام للإقليم... وبدأت أتجه إلى ممارسة منصبى الآخر كقائد عام للقوات فيه.

وحينما التفت إلى الناحية العسكرية، وجدت أننا كالعميان فى الإقليم الشرقى، وجاءنى المسئولون عن القسم المخصوص - البوليس السياسى - وعن المخابرات يقولون لى إن الناس يرفضون التعاون مع رجالهم ومدهم بأية معلومات.

كنا كالعميان تمامًا إلا حيث توجد لنا حاميات عسكرية فى ثمانى مناطق: داكا - شيتا جونج - كوميلا - سيليت - جيسور - خولنا - رانجبور - رانشاى.

كنا فى ظلام كامل مما يجرى... إلا حيث كانت لنا قوات وكان هذا شيئًا لا يمكن قبوله... لم يحدث من قبل... ولا يمكن السماح به...

وبعثت بتقرير أولى إلى الجنرال يحيى خان وتلقيت منه إشارة بأنه سوف يجىء بنفسه إلى داكا وعلىّ أن أمهد لمفاوضات بينه وبين الشيخ مجيب الرحمن، ولكن كيف أمهد لمفاوضات بين رئيسى وبين رجل لم يأت لمقابلتى، ثم هو يحرض على العصيان كما أنه يحرض على مقاطعة قواتى لدرجة أنه أصدر بيانًا يمنع تزويدنا بالخضر فاستعضنا عنها بالمعلبات، وأصدر أمرًا للغوغاء يقول فيه:

«استمعوا إلى أوامرى ولا تنفذوا أوامر القائد العام واجعلوا من كل بيت قلعة».

إن ذلك الموقف أدى إلى اشتباكات خصوصًا فى ميناء شيتا جونج لأن عمال تفريغ الميناء استمعوا إلى أوامر الشيخ مجيب ورفضوا تفريغ البواخر».

قلت للجنرال تيكا خان:

مجرد ملاحظة سريعة هنا... أظن أن البواخر التى امتنعوا عن تفريغها كانت تحمل إمدادات عسكرية من غرب الباكستان إلى شرقها».

وقال الجنرال تيكا خان:

- لم نكن قد حركنا أية قوات فى ذلك الوقت من الغرب إلى الشرق... كانت هناك وحدات وضعت تحت الإنذار ولكنها لم تكن قد صعدت إلى بواخر النقل.

كانت الباخرة التى سببت المشكلة والاشتباك باخرة اسمها «سوارت» وكانت تحمل شحنة من المدافع، وظلت شهرًا كاملاً حتى من قبل أن أصل أنا إلى داكا بدون تفريغ... وهددت الشركة صاحبة الباخرة بعودتها بشحنتها إلى كاراتشى وأصدرت أوامرى للضابط المسئول عن الميناء بأن يستخدم قواته لتفريغ شحنة المدافع، وإذا بالشيخ مجيب الرحمن يأمر رجاله باعتراض إفراغ الشحنة.

ووقع الاشتباك بين قواتنا وبين رجال الشيخ مجيب.

وفى ذلك الجو وصل الرئيس يحيى خان إلى داكا ليتفاوض مع الشيخ مجيب وكان الإضراب شاملاً وأسوأ من ذلك أن صحف الشيخ مجيب بدأت تتهجم على الجيش الباكستانى وشكوت للجنرال يحيى خان وقال لى:

- إننا نتفاوض ويجب أن نحتفظ بهدوء أعصابنا.

ولم أكن مشتركًا فى المفاوضات ولكن استفزازات الشيخ مجيب كانت تزيد كل يوم عن حدها...

اتخذوا قرارًا بإعلان قيام بنجلاديش ورفع أعلامها.

حتى التليفزيون فوجئت عندما قالوا لى إنه عرض علم بنجلاديش... وأرسلت قوة إلى هناك وقلت إننا سوف نغلق المحطة كلها إذا عرض علم بنجلاديش.

لم تصل المفاوضات إلى نتيجة.

وأبلغنى الجنرال يحيى خان بأن أكون على استعداد لفرض الأمن والنظام.

وطلبت إلى رجالى أن يكونوا على استعداد وكان أهم ما يجب حمايته من وجهة نظرى هو منشآت الاتصال اللاسلكى ومخازن أسلحة الجيش ومخازن البوليس.

كان يوم ٢٤ مارس هو اليوم الذى صدر لى فيه الأمر بالتدخل على أن أبدأ العمل مع أول ضوء يوم ٢٥ مارس.

وحدث شىء غريب.

كانت هناك وحدة من قواتنا مشتركة... فيها جنود من البنجاب من الغرب؛ وجنود من البنغال من الشرق... الجنود البنغاليون تمردوا فى الليل واغتالوا قائدهم واحتلوا مواقع رئيسية وحاولوا منها منع وحداتنا الأخرى من التقدم.

كان ذلك بالتأكيد بأمر من الشيخ مجيب».

....

*** يقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إن الخطأ الذى وقع فيه الجنرال تيكا خان - قيادته السياسية قبله - وجره بعد ذلك إلى الخطر، أنه لم يستطع تعريف وتحديد المشكلة أو الأزمة التى وجد نفسه أمامها:

* لم يعرف - برغم أن كل شىء كان ظاهرًا أمامه وواضحًا - أنه يواجه ثورة شعبية كاملة.

* لم يعرف أن لهذه الثورة طموحًا قوميًا له جذوره وله أسبابه.

* لم يعرف أن لهذه الثورة قيادة لها حقوق الطاعة على جماهيرها ابتداء من قاضى القضاة إلى عامل التفريغ فى الميناء.

هكذا بغير تعريف وتحديد للمشكلة أو الأزمة فإن الذين يتولون العلاج يجدون أنفسهم - حتى مع منتهى حسن النية - يعطون دواء لداء لم تظهر أعراضه ولم توجد جراثيمه، بينما الداء الحقيقى لا يجد دواء يستجيب له بالشفاء!

ثانيـــا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إنه فى مواجهتنا لأى صراع فإن علينا أن نعد بحساب لا يدركه الخطأ جميع الأطراف المشتركين فيه مباشرة أو المهتمين به.

وعلينا أن نحسب ما هى دواعى اهتمام هؤلاء الأطراف جميعًا، وما هى مطالبهم من الصراع، وما هى قدراتهم على التدخل فيه؟

....

....

يقول الجنرال تيكا خان:

- لقد كان لابد أن نتدخل بقوة.

تدخلنا فى داكا للسيطرة على العاصمة.

وابتعدنا عن شيتا جونج لأن نسبة التفوق لرجال الشيخ مجيب على رجالنا فيها كانت عشرين إلى واحد.

لكن إمدادات بدأت تجىء إلينا من باكستان الغربية... وفى أول أبريل تدخلنا واستعدنا السيطرة على شيتا جونج.

وبدأنا نواجه نوعًا من حرب العصابات وكنا نرتب أمورنا عليه... ولكن الموقف ساء بعد أن أعلن راديو عموم الهند ذات صباح:

- أنه لا توجد حدود بين الهند وبنجلاديش وعلى اللاجئين من باكستان الشرقية أن يبدأوا طريق العودة إليها.

وبعد ساعات كان أكثر من سبعين ألفًا من البشر يتدفقون عبر الحدود ويهاجمون مواقعنا.

وكان الجيش الهندى يدعم هذا الطوفان من البشر، بل إن الجيش الهندى فعل أكثر من ذلك لأنه بعث بجماعات من مهندسيه تسللوا مع رجال الشيخ مجيب فنسفوا الكبارى الرئيسية وخطوط السكك الحديدية لكى يحرموا قواتى من ميزة الحركة...

إن ما فعلوه أدى إلى كوارث فى وصول المؤن حتى إلى السكان المدنيين.

أصبح الموقف يتدهور كل يوم.

كان واجبنا واضحًا وكنا نحاول أن نؤديه فى ظروف مرهقة.

ولكن الآخرين كانوا جميعًا أطرافًا فى مؤامرة واحدة علينا.

كانت مؤامرة تضم الهنود والسوفييت والبريطانيين والأمريكيين أيضًا...

وبدأوا يملأون العالم بدعايات ضدنا.

....

....

*** يقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث، إن القيادة الباكستانية - والقيادة السياسية هى التى أقصدها هنا وليس الجنرال تيكا خان - لم تستطع أن تعد بحساب لا يدركه الخطأ جميع الأطراف المشتركين فى الصراع الدائر على بنجلاديش أو ما هى مطالبهم من الصراع، أو ما هى قدراتهم على التدخل فيه؟

كان لابد من عد الهند أولاً كطرف مهم: دواعيه إلى ذلك نزاعه مع باكستان، ثم عبء تدفق اللاجئين عليه، ثم شعور التضامن بين الأمة البنغالية فى شرق الباكستان وشرق الهند أيضًا.

وكان لابد من عد الاتحاد السوفيتى كطرف مهم: ودواعيه إلى ذلك حركة الصراع الصينى - السوفيتى فى آسيا، ووقوف الاتحاد السوفيتى فى ذلك الصراع تأييدًا للهند وتحديًا للصين.

وكان لابد من عد الولايات المتحدة كطرف أقل أهمية ولكنه موجود: دواعيه إلى ذلك أنه يريد الاستفادة من الصراع الصينى السوفيتى.

وحتى بريطانيا لا يمكن إغفالها كطرف: ولو بتأثير علاقاتها التقليدية ومصالحها القائمة مع شبه القارة الهندية.

لم ير النظام الباكستانى إلا ما تحت قدميه.

وكانت هذه من ضمن أسباب المأساة.

ثالثًا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إن الجو العالمى المحيط بأى صراع شديد التأثير فى نتيجته، بل إن هذا الجو - مضافًا إلى ما سبق من قواعد - يجعل نتيجة الصراع محققة حتى قبل أن تنتهى المعارك العسكرية.

....

....

يقول الجنرال تيكا خان:

- نتيجة للدعايات التى وجهها أطراف المؤامرة جميعًا ضدنا إن العالم كله بدأ يتحدث عن مذبحة لم يسبق لها مثيل فى بنجلاديش.

قالوا إن عدد القتلى وصل إلى ثلاثة ملايين.

مثل هذا مستحيل عمليًا... كيف كان يمكن لجيش مشغول بالدفاع عن نفسه، وخطوط مواصلاته معرضة للخطر، أن يقتل ثلاثة ملايين.

حتى رقم مليون واحد مبالغ فيه...

حتى رقم مائة ألف مبالغ فيه....

إننى قدمت تقريرًا بعد الحرب، وكان تقديرى أن عدد القتلى لا يزيد على عشرة آلاف عندما تركت داكا ولو تجاوزنا لوصل هذا العدد إلى ثلاثين ألفًا عند نهاية الحرب.

قالوا أيضًا إن هناك ٢٠٠ ألف حالة هتك عرض.

ماذا كان يفعل جنودى؟ ذلك شىء لا يعقل!

إن هناك بعثة كاثوليكية أجرت تحقيقًا ونشرت تقريرًا قالت فيه إن عدد حالات هتك العرض وصل إلى أربعة آلاف وهذا الرقم أيضًا غير صحيح.

لا يمكن أن يزيد الرقم على أربعين وهذه مسألة عادية... شىء غير مقبول ولكنه يحدث.

ولقد أمضيت أربعين سنة فى الخدمة العسكرية وأنا أعرف أن الاغتصاب جريمة... كما أننى مسلم وأعرف أنه فى الإسلام أكثر من جريمة، ولم أكن لأسمح به وقد أجريت تحقيقات فى بعض ما وصل إلىّ من وقائع، وأمرت الجنرال زمان وهو الآن سجين فى داكا، بإعدام مرتكبى هذه الحوادث رميًا بالرصاص.

لكن الصحافة العالمية ظلت تتجاهل الوقائع وظلت مصرة على ترديد الأكاذيب.

كانوا جميعًا شركاء مؤامرة ضدنا. لقد أعطوا لبنجلاديش عطفًا عالميًا هائلاً، وفى حماية هذا العطف تقدم آخرون لمساعدة العصاة فيها دون اعتبار لأى شىء.

فى نفس الوقت شغلونا بالدفاع عن أنفسنا... لم نكن ندافع عن سلامة الدولة فقط، ولكننا كنا ندافع عن سمعة باكستان وأخلاقياتها كانوا يريدون لنا العار إلى جانب الهزيمة».

....

....

*** يقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث... إن الجو العالمى المحيط بأى صراع له تأثير كبير ليس على مجراه فقط، ولكن على نتيجته أيضًا.

وحتى لو كان عدد القتلى كما يقول الجنرال تيكا خان ثلاثين ألفًا وحتى لو كانت حوادث هتك العرض أربعين...

حتى لو كان ذلك كله - وكله قابل للمناقشة الطويلة - فإنه أعطى للأطراف الأخرى فى الصراع مع باكستان لون المذبحة، وكان هذا اللون الكئيب من عوامل هزيمة الباكستان، ولم يكن أقل فى أثره من العامل العسكرى البحت.

إن هناك عنصرين لهما تأثير كبير فى السياسة الحديثة:

* الوقائع كما حدثت فعلاً على الطبيعة وفى الحقيقة.

* والوقائع كما يمكن تصويرها للعالم حتى إن بدا التصوير مغايرًا بعض الشىء لما حدث على الطبيعة وفى الحقيقة.

ما حدث فعلاً: حقيقة تاريخية.

وصورة ما حدث أمام الآخرين: واقع سياسى له نفس قوة الحقيقة التاريخية حتى إن لم يكن مطابقًا لها تمامًا.

إن الحرب النفسية لا توجه إلى دولة من الدول على جبهتها فقط، ولكن الحرب النفسية توجه إلى دولة من الدول على جبهة بعرض العالم كله... وهذه هى النقطة الحرجة فى الحرب النفسية لأنها تحاصرها بجو معين لا تستطيع بسهولة أن تفلت منه.

رابعـــا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إنه إزاء أى مشكلة أو أزمة، فإن أول شىء لابد من تحديده هو الهدف المطلوب تحقيقه، وهذه نقطة فاصلة فى الوصول بأى صراع إلى النصر أو إلى الهزيمة.

....

....

يقول الجنراك تيكا خان:

* لقد كنا نتصرف فى حدود حقنا الشرعى فى صيانة وحدة الباكستان فى الشرق والغرب.

ولقد كانت الأوامر الصادرة إلىّ تقضى بالمحافظة على الأمن والنظام.

ولكن الشيخ مجيب الرحمن وحزب عوامى ليج وراءه جعلوا هذه المهمة مستحيلة.

إنهم يقولون إن غرب الباكستان يستغل شرقها ويعيش على حسابه.

ولقد أدخلوا هذا الادعاء فى تفكير البسطاء من البنغاليين وهذا ليس صحيحًا...

هل تعرف ماذا كانت داكا قبل باكستان؟

كانت قرية صغيرة لم يسمع باسمها أحد وهى الآن عاصمة».

....

....

*** يقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث، إننا لا نستطيع أن ننظر إلى التاريخ كحادثة بوليسية... بل إن العلم الحديث يرد الجريمة نفسها إلى جذور اجتماعية ونفسية.

وبالتالى فإن منطق فرض الأمن والنظام فى غيبة من التاريخ يصبح غيبوبة سياسية لا تعرف لنفسها هدفًا يمكن تحقيقه.

ولقد كان فى الإمكان حقن دماء كثيرة لو أن الهدف كان واضحًا أمام النظام الباكستانى.

بل لقد كان فى وسع النظام الباكستانى أن يحتفظ بوحدة الباكستان فى الشرق والغرب لو أنه استطاع أن يرى لنفسه هدفًا فى الشرق أبعد من هدف حفظ الأمن والنظام.

لو أن الهدف كان الاعتراف بالحقوق الشرعية للقومية البنغالية فى إطار الوحدة السياسية لباكستان لتغير مجرى التاريخ.

خامسًا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إنه بعد تحديد الهدف المطلوب تحقيقه فى أى مشكلة أو أزمة - فإن الدور يجىء على اختيار الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الهدف.

....

....

يقول الجنرال تيكا خان:

- إنهم لم يتركوا لنا مجالاً إلا استعمال القوة العسكرية، وربما وقعنا فى بعض الأخطاء، ولكن أحدًا لم يعطنا طريقًا بديلاً نسلكه».

....

....

*** ويقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى، إن القوة العسكرية ليست الوسيلة الكفيلة بصيانة الوحدة الوطنية.

إن استعمال القوة المسلحة لصيانة وحدة الوطن، أو لمحاربة أعدائه ممكنة، بل قد تكون ضرورية فى بعض الظروف، ولكن ذلك لابد له لكى يصل إلى ما يريد، أن يتم فى ظل اشتراطات تفرضها طبيعة العصر، وهذا وحده بالنسبة لها أولى ضمانات النصر.

سادسًا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إنه بعد اختيار الوسائل الكفيلة بتحقيق الهدف فإنه من الضرورى التأكد من كفاية هذه الوسائل على تحقيقه.

....

....

يقول الجنرال تيكا خان:

*** لم تكن تحت تصرفى القوات الكافية للسيطرة فى الداخل على التمرد الذى دعا إليه مجيب الرحمن، ولا كانت تحت تصرفى القوات الكافية لمواجهة الاستفزازات التى تعمدتها الهند».

....

....

*** ويقول تطبيق الوقائع على القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث، إن النظام الباكستانى كان عليه أن يتأكد من حساب قواته بالقياس إلى قوات أعدائه.

إن القوة المسلحة يجب ألا تستخدم فى مناورة سياسية... وإنما يمكن أن تستخدم القوة المسلحة لتحقيق هدف سياسى.

يضاف إلى ذلك اعتبار آخر:

قد يكون إقدام النظام الباكستانى على استخدام القوة المسلحة خطأ.

ولكن العجز عن استعمالها لتحقيق الهدف - بعد اتخاذ القرار - جريمة.

أى أن الخطأ فى اتخاذ قرار يمكن أن يغتفر...

ولكن الفشل فى تنفيذه - بصرف النظر عن الصواب والخطأ - لا يمكن اغتفاره مهما كانت الظروف.

سابعًا:

*** تقول القواعد فى إدارة وممارسة الصراع السياسى فى العصر الحديث إنه بعد تحديد الهدف، واختيار الوسائل، والتأكد من كفاية هذه الوسائل - فإن مقدرة المكلفين بالتنفيذ تلعب دورًا أساسيًا.

مقدرة المكلفين بالتنفيذ هى المصدر للقرار الصادر بالتنفيذ.

....

....

يقول الجنرال تيكا خان:

- لقد كانت التجربة كلها محنة مروعة... إننى لم أبق فى داكا إلى النهاية، وإنما تركت المسرح هناك لمساعدى الجنرال نيازى».

....

....

*** وأعترف - بكل تعاطفى مع شعب بنجلاديش - أننى لم أشعر لحظة طوال حديث ممتد مع الجنرال تيكا خان بأى إحساس عدائى ضده.

أكاد أقول العكس.

لقد روى الرجل قصة التجربة التى عاشها كما رآها، وكان صادقًا فى وصف ما رأى.

ولم تكن المسئولية فى صميم الأمر عليه، وإنما كانت المسئولية فى صميم الأمر على غيره، لم تكن أمامه بما فعل هو، ولكنها كانت وراءه بما صدر إليه من قرار.

لم يكن هو صانع المأساة الكبرى، وإنما كان دورًا من أدوارها.

ولم يكن هو الذى اختار لنفسه دوره، وإنما كان الاختيار بيد مخرج عبقرى اسمه التاريخ!!